

موهبة العطف

موهبة العطف لا تتوفر لدى الجميع ، ولكنها دائما تميز الكتاب الكبار . وكلما كبر العالم الذي يشمل الكتاب بعطفه واتسع نطاقه ، كبر الكاتب نفسه وازدادت اهميته . فمن الممكن ان نشفق على عصفور مقرر أو على زهرة ذابلة دون ان نلاحظ مأساة شعب ، بل وحتى مأساة البشرية كلها . وثمة رافة بيانية ، مجردة ، عندما يتحدث البعض بعبارات بليغة عن قضايا الكون ، بينما يتكاسلون عن الانحناء الى الارض لرفع عصفور لسعه البرد .

وأندري بلاتونوف ينتمى الى ذلك النوع من الكتاب الذين يرون في العصفور المقرر البشرية المقرورة . وكان ينطلق دائما من الانسان المحدد الى الفكرة الفلسفية ، فلم يحشر نموذجاً مصطنعاً للانسان في اطار الفكرة المجردة سلفاً . ونحن لا نجد لديه ابطلا يذكرنا بأنهم فكرة المؤلف التي «تمشى على قدمين» ، بل يسير ابطاله على الأرض بمحض ارادتهم وباندفاع ، بينما الكاتب يتبعهم مرتدباً «طاقة الاخفاء» ، محاولاً ألا تقع عليه عين القارئ ولا يبدو معلقاً لجوجا على الاحداث . ولا يسعى بلاتونوف ابداً الى جعل القارئ يفكر كما يريد هو . وقد يحدث أن ينبه القارئ بطريقة لبقة ، لكنه يتحى جانباً على الفور وهو يتطلع بمكر وقلق وكأنه يقول : لقد قدمت لك نصيحة ، فكيف ستعمل بها ؟

Платонов А.

ДЖАН

Повесть и рассказы

На арабском языке

ترجمة خيري الضامن

ابو بكر يوسف

© الترجمة الى اللغة العربية ، دار «رادوغا» ، الطبعة الاولى ١٩٨٦
 طبع في الاتحاد السوفيتي .

П 4702010200-536 064-86
 031(01)-86

ISBN 5-05-000696-1

وثمة كتاب لديهم مؤلفات رائعة متفرقة ، لكن ابداعهم لا يتنظم في خط واحد متصل ، مكوّنًا كلا لا يتجزأ . ومثل هذا الخط قد يكون منكسرا ، متعرجا ، بل وحتى منقطعا . . المهم أن يكون . والا فلن يكون لدى الكاتب ما يعد فكرة الحياة كلها ، وصورة العالم المتكاملة ، بل افكار متفرقة عن هذا العالم .

وما أن تطالع اعمال بلاتونوف حتى يتولد لديك على الفور احساس باندماج اعماله الشديدة الثباين والمتعددة المستويات في كل هارموني واحد . . لغوى وفلسفى — وذلك دليل آخر على عمق موهبته . لقد كتب بلاتونوف قصصا وجدانية رهيقة — «فرو» و«أفروديت» — وروايات قصيرة تاريخية مثل قصة «هويس بيبفان» ، بل وحتى حكايات . . . وفي كل هذه الالوان ظل هو هو . . عطوفا على الآخرين ، متألما من اعماق قلبه لآلامهم . وأحيانا تبدو كتبه كالنبوءة ، محذرة ومنذرة («رياح الاوساخ») ، رغم ان بلاتونوف لا يلجأ ابدا الى اللهجة التعليمية في مؤلفاته .

وبوسعنا ان نتابع من خلال اعماله تاريخ روسيا ، مسجلا بعمق كما في التعبير المجازى ، من أيام بطرس الاكبر الغابرة (القرن الثامن عشر) الى سنوات التحول الثورى القربية منا : بداية مرحلة التجميع الزراعى ، والخطط الخمسية الأولى ، واحداث الحرب الوطنية العظمى ضد الفاشية . لكن الاحداث نفسها ، مهما كانت ضخمة ، لم تصبح هى ابطال قصصه ، بل الناس الذين كان بلاتونوف يضع قيمتهم فوق الاحداث في حد ذاتها . فكل شخص ، فى مفهوم بلاتونوف ، هو حدث تاريخى . ففى احدى

قصصه قال سائق قطار عجوز عبارة اصبحت مأثورة «الشعب بدونى ناقص» . وليس فى هذه العبارة ظل للتفرد او التفوق ، بل ان القضية هنا هى احساس ابطال بلاتونوف بالاندماج الدائم بالشعب ، واستعدادهم لمشاركته أتراحه . أوليس الكاتب نفسه من طراز ابطاله ؟ لقد تطوع وهو معتل الصحة ، ومضى الى الجبهة عام ١٩٤١ ، وخاض غمار الحرب الوطنية العظمى كلها حتى نهايتها ، ليكتب «ناس ملهمون» و«عدو بلا روح» و«نحو غروب الشمس» وغيرها من قصصه ومقالاته عن بطولة الشعب .

كان بلاتونوف ينتمى بمولده الى اعماق روسيا ، وكان يدرك جيدا ان معنى الاحداث المكنون لا يستدعى ان تبحث عنه بالضرورة فى مركز هذه الاحداث . بل ان الكثير منها يمكن فهمه بصورة افضل فى «الاعماق» الريفية بالذات ، ويتجلى فى نفوس من يسمون بالبسطاء ، الذين لا يعرف العالم عنهم اية بطولات رنانة . وفى قصة «موطن الكهرياء» يكتب احد الموظفين البسطاء ، القسادم من اعماق روسيا التى خربتها الحرب الاهلية ، هذه الايات الرومانسية الساذجة والأبية :

كبير قلبنا المقاتل
فلا تبكوا يا فقراء البطون
فسوف تمضى عنا ظلال القبور
وسندوق طعم الخلوى .

وكان بلاتونوف يدرك ان «فقراء البطون» هؤلاء يمكن

ان يكون لديهم عالم داخلي واسع الثراء ، لا يعون هم
انفسهم دائما كل جماله . وهنا يكمن مغزى اعمال بلاتونوف
التي مستحظى باعتراف البشرية جمعاء .

جاءت رواية «الأشباح» استجابة حية من الكاتب على
احداث الواقع السوفييتي في العشرينات والثلاثينات . وقد
تجسدت مسيرة شعوب آسيا الوسطى المتخلفة نحو الاشتراكية ،
والتي اصبحت حقيقة واقعة في تلك السنوات . . تجسدت
لدى بلاتونوف في بحث عن السعادة يقوم به شعب خرافي
مكون من اناس يتامى ، حرموا ارادة الحياة ، وانهكتهم
العبودية والظلام .

والوضع الذي يعيشه هذا الشعب يشبه الوقوف على
حافة الهاوية ، عندما تكفى بلوى أخرى جديدة في عداد
المصائب الكثيرة لتودى به . وكل ما يملكه هذا الشعب
هو «القلب وحده» ، عندما ينبض في الصدر .

تبدأ «الأشباح» كرواية سيكولوجية ، وبالتدريج تتصاعد
فيها عناصر الاسطورة ، فكان من نتيجة هذا الامتزاج بين
الأسس الاجتماعية — السيكولوجية والرمزية — الفلسفية ان ظهر
الى الوجود واحد من افضل اعمال بلاتونوف عن مسيرة
شعب الى الحياة ، الى النور ، وعن بطولة الشيوعي شاغاتايف
الذي ارسل الى الصحراء ليسانع شعبه .

لقد اثر بلاتونوف تأثيرا كبيرا على الادب السوفييتي
وخاصة على ابداع الكتاب الشبان المعاصرين . وحين أقرأ
قصص النادرين الشبان أسمع فيها احيانا صوت بلاتونوف .
وليس ذلك تقليدا لأسلوبه ، وانما هو صدى عطفه الرقيق
على الانسان ، وعبارته الابقاعية الغنائية بعض الشيء ، ومزجه

للسخرية بالرومانسية . وذلك دليل آخر على قوة الكاتب
الحقيقي حين يواصل الحياة في ابداع الكتاب الشبان القريبين منه روحا
والذين لا يشبهونه في الوقت نفسه .

يفهني يفتوشينكو

الاشباح

١

نزار شاغاتايف شاب آسيوي الملامح خرج الى باحة معهد الاقتصاد بموسكو ، وتطلع حواله مندهشا ثم عاد الى نفسه نافضا الزمان الطويل الذي قضاه هنا ، في هذه الباحة ، حيث امضى عدة سنوات ، وقضى فتوته دون ان يأسف عليها . فقد ارتقى الآن ذروة العقل والحكمة ، ومن تلك الذروة العالية يلوح هذا العالم الصيفي واضحا صافيا بعد ان سخته شمس المساء الغاربة .

في الباحة عشب نبت دون رعاية من احد ، وفي الركن صندوق قمامة ، يأتي بعده مستودع خشبي اكل الدهر عليه وشرب ، وقربه تنمو شجرة تفاح عجوز وحيدة لا تتمتع باي حنان من انسان . ووراء تلك الشجرة صخرة ضخمة حافظت على شكلها الطبيعي ووزنها الهائل ولا احد يعرف من اين جاءت ، وعلى مسافة ابعد انغرزت في الارض عجلة حديدية لحافلة من القرن التاسع عشر .

الباحة خالية . جلس الشاب على عتبة المستودع وغرق في تأملاته . كان قد استلم في قلم المعهد وريقة تفيد بانه ناقش اطروحة التخرج ، اما الدبلوما نفسها فسترسل اليه فيما بعد بالبريد . ولن يعود الى هنا بعد الآن . فودع في قرارة نفسه كل الجمادات المتواجدة حواله ، فهي ايضا ستغدو في زمن ما من الاحياء ، ستغدو حية من تلقاء ذاتها

٨

او بجهود الانسان . تفقد كل اشياء الباحة التي لا حاجة لاحد بها ، ولمسها بيده ، فقد كان ، لسبب ما ، يريد لتلك الاشياء ان تتذكره وتُحبه . لكنه نفسه لم يكن يصدق بذلك . وهو يعرف من ذكريات الطفولة ان زيارة الموضع المعروف تثير في النفس احساسا غريبا حزينا بعد الفراق الطويل : فانت لا تزال مرتبطا به بوشائج الفؤاد ، اما الاشياء الجامدة فقد نستك ولم تعد تعرفك وكأنها عاشت بدونك حياة مفعمة بالفرحة والنشاط ، بينما بقيت انت غريبا عليها وحيدا في مشاعرك ، تقف الآن امامها كائنا مجهولا باثنا .

وراء المستودع تمتد الحديقة العتيقة . وفيها اعدوا الطاولات واوصلوا الكهرباء للانارة الموقفة وزينوا المكان بمختلف انواع الزينة . فقد حدد عميد المعهد هذا المساء موعدا لحفلة الدفعة الثانية من الاقتصاديين والمهندسين السوفييت من خريجي المعهد . ترك نزار باحة المعهد الذي تلقى تحصيله العلمي فيه وتوجه الى دار الطلبة ليأخذ قسطا من الراحة ويغير بدلته استعدادا للسهرة . رقد على سريره وغفا دون قصد منه في غمرة الاحساس بالفرحة الجسدية المفاجئة التي لا تصادف المرء الا في عتفوان الشباب .

وفيما بعد ، عندما خيم الظلام ، عاد شاغاتايف الى حديقة معهد الاقتصاد . ارتدى بدلته الرمادية الجيدة التي حافظ عليها طوال سني الدراسة وحلق ذقنه امام مرآة نسائية يدوية . كل حاجياته موجودة تحت الوسادة وفي الخوان الصغير قرب السرير . وقبل ان يتوجه الى الحفلة تطلع بأسف في داخل خزانته المعتمدة الخاوية فستنساه قريبا وستلاشي

٩

رائحة ملابسه وجسده الى الابد من هذا الصندوق الخشبي .
في دار الطلبة يقيم طلبة من معاهد اخرى ، ولذا
توجه نزار الى الحفلة وحيدا . في الحديقة تعزف اوركسترا
دعيت خصيصا من دار السينما ، والطاولات مصفوفة في
صف واحد طويل ، وفوقها تنير مصابيح كبيرة علقها الكهربائيون
على دعائم وقفية بين الاشجار . ليل الصيف الخاوي يخيم
على رؤوس الحاضرين الذين اجتمعوا في آخر حفلة وآخر لقاء
لهم ، وكل روعة ذلك الليل تحلق في الفضاء المكشوف
الداقي ، في هدوء السماء والنبات .

الموسيقى تنهادي والشباب جلوس عند الطاولات وهم
على استعداد للتفرق منها في ارجاء الارض المحيطة بهم
لكي يرتبوا السعادة لانفسهم في تلك الارزاء . موسيقى
الكمان تخفت احيانا مثل صوت واهن بعيد .
وخيل لنزار ان ذاك هو صوت شخص يبكي وراء الافق ،
ربما في تلك البلاد التي لا يعرفها احد والتي ولد فيها
ايام زمان وتعيش فيها امه الآن او ربما ماتت هناك .
— جولشتاي ! — تلفظ بصوت مسموع فسألته جارته
المهندسة :

— ماذا تعني ؟

— لا اعني شيئا — اوضح لها نزار — جولشتاي امي ،
واسمها يعني زهرة الجبل . الاسماء تطلق على الناس وهم
في سن الطفولة عندما يشبهون كل ما هو طيب وجميل . . .
تهادي صوت الكمان من جديد ، كان يتشكى ويدعو
الى الانصراف دون رجعة ، فالموسيقى تعزف دوما من اجل
النصر حتى عندما تكون حزينة .

وسرعان ما بدأ الرقص والالعاب وابتهاجات الشباب
المعتادة . تطلع شاغاتايف الى الحاضرين وإلى طبيعة الليل .
كان يتعين عليه ان يبقى في هذا العالم امدا طويلا ،
ربما الى الابد ، يصارع الآلام ويعمل ويتمتع بالسعادة .
قبالة شاغاتايف جلست امرأة شابة لا يعرفها ، عيناها
تلمعان ببريق اسود وبدلتها الزرقاء تطبق على جبينها حتى
الذقن ، وكأنها عجوز ، وكان مظهرها بسبب ذلك مليحا
وليس مريحا . لم تكن راغبة في الرقص ، ربما بسبب
الخجل او قلة المهارة . وراحت تتطلع الى نزار باهتمام .
اعجبها وجهه الاسمر بعينه الصيقتين الصافيتين وهما تسليطان
عليها نظرة طيبة متجهممة ، واعجبها صدره العريض الذي
ينطوي على قلب مغمم بمشاعر خفية ، وفمه العاجز الرقيق
الذي يجيد البكاء والضحك . لم تكن تخفي ميلها الى
نزار فابتسمت له ، لكنه لم يرد عليها بشيء . وكان الابتهاج
يتزايد . طلبة الاقتصاد والتخطيط والهندسة يلتقطون الزهور
من الطاولات ويقطفون الاعشاب من الحديقة ويقدمونها
باقات الى صديقاتهم او يثرون الاعشاب رأسا على شعورهن
الكثيفة . ثم ظهرت الحبيبات الورقية الملونة وراح الحاضرون
يرشون بها بعضهم البعض مغتبطين . واختفت المرأة التي
كانت جالسة قبالة شاغاتايف . فهي الآن ترقص مبتهجة
في ممشي الحديقة والحبيبات الملونة على شعرها .
وكانت النسوة الاخريات الجالسات عند الطاولات مبتهجات
ايضا من اهتمام اصدقائهن بهن ومن الطبيعة ومن الانتظار
للذيد لمستقبلهن الذي يضاهي الخلود من حيث المدى
والآمال . وكانت احدهن بلا زهور ولا حبيبات ملونة على

الشعر . لم يهمس لها احد بكلمات الفكاهة والتنكيت ، فكانت تبسم ابتسامة تثير الشفقة لتقول بانها تشاطر الجميع ابتهاجهم وانها نفسها مبهتجة مرتاحة بينهم . لكن عينيها كشيئتان صبورتان كعيني ماشية العمل . في بعض الاحيان كانت تجول ببصرها في جوانب مختلفة بحثا عن شخص ما بحاجة اليها ، وعندما لا تجد احدا تشرع على عجل بالتقاط الزهور والاوراق الملونة الساقطة على كراسي الجيران وتخبطها خلسة . لاحظ نزار تصرفها هذا لكنه لم يفهمه . وقد شعر بالملل من الاحتفال الرتيب الطويل فهم بالانصراف . ونهضت المرأة التي كانت تجمع الزهور الساقطة من الآخرين ومضت الى جهة ما . فقد اشرفت الحفلة على الانتهاء وكبرت النجوم وبدأ الليل . نهض شاغاتاييف وانحنى لاقرب الرفاق ، فلن يلتقي بهم في القريب العاجل .

مر نزار بالاشجار ولمح تلك المرأة ذات الوجه الطويل مخبئة في الظل . لكنها لم تره . كانت تشك الزهور والاشربة الورقية في شعرها . ثم خرجت من وراء الاشجار ومضت صوب الطاولات المضاعة . وعاد نزار في الحال الى هناك . كان يريد ان يقلب الطاولات فورا ويسقط الاشجار ويوقف هذا الابتهاج الذي تتساقط عليه دموع الاسى ، لكن المرأة كانت الآن سعيدة ضاحكة ، وفي شعرها الفاحم وردة ، مع ان آثار الدموع بادية في عينيها . ظل شاغاتاييف في الحديقة . اقترب منها وقدم نفسه . واتضح انها طالبة في السنة الاخيرة من معهد الكيمياء . دعاها لترقص معه مع انه لا يجيد الرقص ، لكنها رقصت بأروع ما يكون وقادته على ايقاع الموسيقى حسب الاصول . جفت عيناها

بسرعة واستعاد محياها رونقه ، اما البدن المتعود على الحياة والانطواء فقد التصق بنزار الآن مطمئنا مفعما بالعفاف المتأخر فواحا بدفء طيب كالرغيف . ونسى شاغاتاييف نفسه معها ، فالنعاس والسعادة يتبعثان من هذه المرأة الغريبة التي لن يلتقي بها بعد الآن في اغلب الظن . فما أكثر ما تتواجد قربنا نعمة لا نلاحظها .

استمر اللقاء والمرح حتى بزغ الفجر . ثم خلت الحديقة فتنفر الجميع ولم يبق الا الادوات الجامدة . سار نزار وصديقه الجديدة فيرا في شوارع موسكو التي اضاءها نور الفجر . نزار الآسيوي يحب هذه المدينة حبه لمسقط رأسه ، وكان يشعر بالامتنان لانه اقام فيها امدا طويلا وتلقى تحصيله العلمي واكل الكثير من الخبز دون ملامة من احد . تطلع الى رفيقته فوجد محياها جميلا في ضوء الشمس التي اشرقت من بعيد .

مر الوقت وارتفعت السماء وصفت ، وانهمكت الشمس في ارسال خيراتها الى الارض وراحت تسكب الضوء بلا انقطاع . وسارت فيرا صامتة . وكان نزار يحدق فيها من حين لآخر ، وهو مندهش لانها تبدو قبيحة للجميع ، بينما يذكره صمتها المتواضع بصمت الاعشاب وباخلاص الصديق المعتاد . فمن بعيد فقط يمكن كرهها ويمكن رفض الانسان او اتخاذ موقف لا ابالي ازاءه . لكن شاغاتاييف عندما رأى عن كعب تجاعيد الارهاق على خديها وقرأ تعبير وجهها الذي يخبئ رغباتها وشاهد عينيها اللتين يحرسهما الحاجبان وشفتيها المتفتحتين — عندما رأى الزخم الروحي السحري الكامن في المادة الحية لهذه المرأة ، وتحسس كيائها

الجسد الطيب المتين تخاذل امام الحنان عليها وصار عاجزا عن القيام بشيء لمقاومتها حتى انه شعر بالخجل من التفكير فيما اذا كانت جميلة ام لا .

وقالت فيرا :

— تعبت جدا ، فقد سهرنا الليل كله ، فلنتفارق اذن .

— تمهلي — اجابها شاغاتايف — سأسافر قريبا ، فلنبق معا بعض الوقت .

واصلا سيرهما الى الامام ، اجتازا شوارع طويلة ، ثم توقفوا في مكان ما . واومات فيرا الى مسكن كبير جديد : — هذا بيتي .

— فلنذهب اليك . ارقدي انت لترتاحي ، وسأجلس قربك ثم اذهب .

وقفت فيرا مرتبكة . ثم قالت : — طيب ، — واقتادت ضيفها .

غرفتها كبيرة مؤثثة باثاث الفتيات العادى . لكنها غرفة كثيبة مضجرة وفارغة تقريبا ونافذتها مسدلة الستائر .

خلعت فيرا المشمع الصبفى فلاحظ نزار انها مكتنزة البدن أكثر مما تصور . ثم اخذت تبحث في اركان الغرفة لتجد ما تطعم به ضيفها ، بينما لفتت انتباه نزار لوحة قديمة مزدوجة معلقة فوق سرير الفتاة . اللوحة تجسد الاحلام عندما كانت الارض تعتبر مسطحة والسماء قريبة . فقد نهض شخص على الارض وفتح برأسه ثغرة فى قبة السماء وادخل رأسه حتى الكتفين فى الجانب الآخر من السماء ، فى اللانهاية الغريبة لذلك الزمان ، وراح يتطلع الى هناك .

ظل يتطلع فى المجهول ، فى الفضاء الغريب ، حتى نسي باقى جسمه تحت السماء العادية . وفى النصف الثانى من اللوحة نفس المنظر ولكن فى وضعية اخرى . جسم الانسان متعب نحيف ، وربما هو ميت ، ورأسه الهزيل تدحرج فى الآخرة ، على سطح السماء الشبيهة بطست من الزنك ، انه رأس الباحث عن اللانهاية الجديدة التى ليست لها نهاية بالفعل ولا عودة منها الى المكان المسطح الشحيح على الارض .

الا ان شاغاتايف ، كالمريض ، لم يعد يهتم بشيء ولا يرتاح لشيء . احتضن بوجل الفتاة عندما انحنت قربها لترتيب صينية على الطاولة ، وضغطها بقوة وحذر وكأنه يريد ان يندمج بها ليتدفأ ويستقر . فهمته فيرا فى الحال ولم تبعده عنها . عدلت قامتها وخفضت رأسه اوطأ من رأسها وراحت تداعب شعره الخشن الفاحم واشاحت بوجهها وهى تتطلع الى جانب ، لكن الدموع مع ذلك كانت تتساقط احيانا على رأسه وتجف هناك . بكى فيرا بكاء هادئا بالدموع وحدها تسيل من العينين ، وحاولت الا تغير تعابير وجهها كيلا تنتحب . احس شاغاتايف ببيكائها ، لكنه لم يكن يعياً بما يمكن ان يحدث فى هذه اللحظة . فقد كان عاجزا الآن عن ان يمد يد المعونة لاحد .

— انت لا تدري ، فانا حبلى — قالت فيرا .

— فليكن ! — اجاب نزار متغاضيا عن كل الذنوب ،

اجاب ببسالة المحكوم عليه بالموت .

— كلا — قالت فيرا باكتئاب ورفعت طرف كمها

لتجفف الدموع وتحجب وجهها الدميم الذى لا تنسأه حتى فى المنام . — كلا ، لا استطيع .

تركها شاغاتهايف . فلم يكن بحاجة ماسة الى السلوى
 فى لذة فؤارة مع فيرا ليحظى بالسعادة . يكفيه ان يكون
 قريبا منها ويلمس يدها ويسألها عن سبب بكائها ، هل
 هو الحزن ام الالهانة ؟
 — قبل ايام قتل زوجى . وانت تعرف صعوبة نسيان
 الموتى . والطفل سيولد ولا يرى اياه ، والام وحدها لا
 تكفيه . . . اليس كذلك ؟
 — بلى — وافقها نزار — سأكون ابا له من الآن
 فصاعدا .

عانقها واستولى عليهما النعاس فى الضحى ، وصمت
 فى آذانهما صخب البناء فى موسكو وحضر باطن الارض
 وخلاقات الناس فى وسائط النقل . امسكت يد احدهما
 بيد الآخر ، وسمع كل منهما عبر النعاس انفاس الآخر
 المكبوتة الواحدة .

فى العصر ، قبل انتهاء الدوام فى الدوائر سجلا زواجهما
 فى اقرب مكتب للاحوال الشخصية . وفقا بين باقتين من
 الزهور وهنأهما مدير المكتب بكلمة مقتضبة واقترح عليهما
 ان يقبلا بعضهما البعض توثيقا للاخلاص مدى الحياة ونصحهما
 بان يلبدا اطفالا كثيرين لكي يبقى جبل الثورة الى الابد .
 قبل نزار فيرا مرتين وودع مدير المكتب بود وفكر بانه حبذا
 لو قبل فيرا هو ايضا ولم يكتف بضرورات الخدمة .

منذ ذلك الحين صار نزار يتردد على فيرا كل مساء
 وهى تنتظره وتفرح لمجيئه . كانا يتعانقان فورا ، وهو يعاملها
 بمتهى الحذر ليصون فيها الطفل الذى فقد اياه . وبعد
 ذلك يمضيان للترهه مثلما يفعل جميع الناس عادة ، ويتمشيان

فى الشارع ، وهى تتأبط ذراعه ، ويتطلعان بانتباه الى
 واجهات المتاجر وكأنهما يستعدان لشراء الكثير وينظران الى
 السماء التى يجرى فيها ما يجرى ، ولا ينسيان شيئا مما
 يحيط بهما من سيل الاحداث المتواصل ، وكأن الفؤاد
 المغمم بالحب ينوء تحت عبء ثقیل ولا بد من تسليته
 طول الوقت بمختلف التفاهات كى ينشغل عن التفكير بعمله .
 الا ان شاغاتهايف لم يكن حتى الآن زوجا لفيرا بالفعل .
 فهى ترفض مضاجعته برقة وخوف كيلا تؤذيه ولا تستسلم
 له . فهى كأنما تخشى ان تبید فى سورة اللذة سلوتها الهشة
 التى ظهرت فجأة وعلى نحو غريب ، او انها تتحایل بفطنة
 وذكاء لتحافظ فى زوجها على دفء لا يخبو فتتدافأ باطمئنان
 امدا طويلا . لكن نزار لم يستطع تحمل مشاعره ازاء فيرا
 عندما بقيت محصورة فى الميل الروحي الذى يفوق طاقة
 البشر ، وسرعان ما بكى حينما رقدت على السرير عاجزة
 حسب الظاهر لكنها باسمه لا تقهر .

لم يكن شاغاتهايف يجيد تحمل عنفوان حياته فهو
 يعرف طبيعتها وطهارتها ، ولذا تهينه ممانعة الغير فيفقد رشده
 واعصابه . وحتى فى الطفولة كان على هذه الصورة يضرب
 الارض بقدميه الحافيتين وتنهمر الدموع من عينيه لشدة احتياجه
 ويتهدد المارة ويتوعددهم عندما يرى ما يؤكل وراء زجاج
 سميك ولا يستطيع ان يلتهمه فورا .

٢

الصيف مستمر . وحث المستنقعات حول موسكو يحترق
 من شدة القیظ ، وفى المساء تفوح فى الجو رائحة الدخان

المخلوط بابخرة دافئة من المزارع والحقول البعيدة وكأن طعام
العشاء يُعد في كل أرجاء الطبيعة . كان نزار يقضي الايام
الاخيرة مع فيرا ؛ فقد حصل على تعيين للعمل ، وكان
عليه ان يرتحل الى مسقط رأسه في اواسط الصحراء الآسيوية
حيث تعيش امه او لعلها ماتت من زمان . كانت تلك
الانحاء قد افقدته صبيا قبل خمسة عشر عاما . البسته
امه العجوز التركمانية جولشتاي قبعة عالية من فرو الضأن
ووضعت في حقيبته كسرة خبز يابس وازافت اليها رغيفا
مخبوزا من جذور القصب والاعشاب المفرومة ثم اعطته قسبة
ليأخذها معه كرفيق اكبر سنا وامرته بالرحيل .

— اذهب يا نزار— قالت له ، فهي لا تريد ان
تراه ميتا قربها . — اذا رأيت اباك لا تقترب منه . واذا
رأيت الاسواق والثروة في كونيـا-اورغينش وتاشاوز وحيوى فلا
تذهب اليها ، ولا تعرج عليها ، اذهب بعيدا الى الغرباء .
ولا تبحث عن ابيك .

ما كان نزار الصغير راغبا في ترك امه . قال لها انه
تعود على الموت ولم يعد يخاف منه ، وانه سيأكل القليل .
لكن امه طردته وقالت :

— كلا . اننى ضعيفة ولا استطيع ان احبك . فعش
لوحذك ، وسأساك .

وبكى نزار قرب امه . طوى ساقها النحيفة الباردة
وظل واقفا امدا طويلا منغرزا في البدن الضعيف الذى تعود
عليه . قلبه الصغير مرض آنذاك ، فقد انهد رأسا ونبض
نبضات ثقيلة كما لو امتلأ سائلا . جلس على تراب الارض
وقال لاه :
١٨

— سأساك انا ايضا ، ولا احبك . فانت لا تستطيعين
ان تطعمي طفلا صغيرا ، وعندما تموتين لن يبقى معك
احد .

رقد وجهه الى الارض وغفا مبلا بدموعه وانفاسه .
ثم استيقظ ولا احد قربه . مضت امه ، وهبت من الصحراء
ريح غربية تافهة بدون اية عطور ولا اى صوت حى .
جلس الصبى هادئا بعض الوقت . اكل خبز الام وتلفت
حواليه وراودته افكار نسيها بمر الزمن . امامه الارض التى
ولد فيها واراد ان يعيش عليها ، بلد الطفولة الموجود فى
الظل القاتم الذى تنتهى عنده الصحراء . فالصحراء هناك
تُدلي ارضها فى منخفض عميق وكأنها تعد لنفسها مدفنا ،
والجبال المسطحة التى لعقتها الريح الجافة تحجب نور السماء
عن تلك البقعة المنخفضة وتغطى وطن نزار شاغاناتيف بالظلام
والسكون . ولا يصل الى هناك الا ضوء متأخر يسكب غسقا
حزينا على الاعشاب النادرة فى السبخة الباهتة وكأن الدموع
جفت عليها لكن الاحزان لم تزيلها .

وقف نزار على حافة الارض القائمة الهابطة الى الاسفل .
وبعده تبدأ الصحراء الرملية الاكثر نورا وحبورا . وبين الكثبان
الرملية الموات ، حتى فى اوقات الهدوء ، فى ذلك اليوم
الطفولى المنقرض ، كانت ريح خفيفة تطلب حق اللجوء
باكية متململة مطرودة من بعيد . انصت الصبى الى تلك
الريح وجال يبصره فى اثرها ليراها ويبقى معها ، لكنه
لم ير شيئا ، وعند ذاك ندت عنه صرخة . وضاعت الريح
ولم يرد على صرخته احد . ومن بعيد جاء الليل ليبلغ
الارض المنخفضة القائمة التى ابعده امه عنها . وانبسطن

الظلال ، ولا شيء غير الدخان الأبيض يتلوى صاعدا من الخيام الدائرية والاكواخ المظلمة حيث كان الطفل يعيش فيما مضى . تلمس نزار ، في حيرة وارتباك ، قدميه وبدنه : فهل هو موجود في هذا العالم طالما لا يتذكره احد الآن ولا يحبه ؟ ولم يعد لديه سبب للتفكير بأنه كان يستقى حياته من قوة ورغبة اقاربه ، وهم الآن غير موجودين ، وقد طردوه . . . اشواك ابراهيم ، تلك النبتة التي يسميها الروس بالجواله ، تتدلى وتتدرج على الرمال بلا ريح وتمر قربها مبتعدة . النبتة متربة متعبة تكاد تلتقط انفاسها الاخيرة من شدة الكدح والتجوال ، وهي وحيدة يتيمة لا والدين لها ولا اقارب ، وهي تمضى وتبتعد دوما . لمسها نزار براحته وقال : « ساذب معك ، فانا اشعر بالملل لوحدي . فكرى في وسأفكر فيك . فانا لا اريد ان اعيش معهم ، لم يسمحوا لى بالبقاء فلموتوا لوحدهم ! » ورفع عصاه القصيبة مهددا وطنه وامه التي نسيته .

سار نزار وراء اشواك ابراهيم المتدرجة وظل يسير حتى خيم الظلام . رقد عندئذ وغفا من الضعف والخور وهو ممسك بالاشواك كيلا تتركه . وفي الصباح استيقظ وارتعب عندما لم يجد الاشواك قربها : فقد تدرجت وحيدة في الليل . اراد ان ييكي ، ولكنه رأى الاشواك في تلك اللحظة تهتر فوق الكتيب الرملى القريب ، فلتحق بها .

اختفى الوطن والام من زمان ، فلينسهما فؤاده طالما هو في طور النمو . في ذلك اليوم اوصلته الاشواك الجواله الى راعى الغنم فسقاه الراعى لبنا واطعمه ، وربط اشواكه الى عمود كي تستريح هي ايضا . ظل نزار مع الراعى امدا

طويلا وعاش عنده حتى تساقط الثلج . وعندذاك ارسل صاحب الاغنام الراعى لاداء بعض الاعمال فى شارجوى لان بصر الراعى اخذ يضعف ، وذهب الراعى مع الصبى ، وفي المدينة سلمه الى السلطة السوفيتية لانه لا حاجة لاحد به هناك . والسلطة السوفيتية تجمع دوما المشردين والمنبوذين وكأنها ارملة لديها كثير من الاطفال ولا يؤذيها قم آخر . مرت على ذلك سنين طويلة ، لكن النسيان لم يطو شيئا ، وظلت الام المفقودة حبيبة كالسابق ، وظل القلب دوما يدارى ذكرياتها وكأن الطفولة لم تنته . ولم يكن نزار يعرف اباه ابدا . فقد ضاع اثر ايفان شاغاتاييف الجندي الروسى فى القوات التأديبية بمدينة حيوى قبل ان تلد جولشتاي ابنها ، وكانت آنذاك أما شابة خلف لها زوجها كوشمات طفلين صغيرين ، الا انهما توفيا عندما كان نزار صغيرا ، وكانت امه قد حدثته عنهما فيما بعد . اما كوشمات فكان فقيرا واكبر سنا من زوجته بكثير . وكان يعيش على عمله الموسمى فى اراضى الاقطاعيين فى كونيا-اورغينش وتاشاوز لكى يطعم عائلته الخبز فى موسم الصيف على الاقل . وفي الشتاء كان ينام طول الوقت فى الكوخ المظلمة على سفح جبل اوست-اورت . كان يحافظ على قواه الشحيحة ، وكانت جولشتاي تنام معه تحت بساط واحد ، لتندفا وتغفو فى شهور الشتاء الطويلة لتوفر على العائلة الطعام ، وبينهما يرقد طفلاهما عندما كانا على قيد الحياة . ومن حين لآخر تخرج جولشتاي وتجمع الاعشاب لاعداد الطعام او تبحث عن عمل اجيرة فى حيوى . . . ذات مرة لم تجد عملا فى حيوى . كان الوقت شتاء ، والاثرباء يشربون الشاي

ويأكلون لحم الغنم ، والفقراء ينتظرون الدفء ونمو النبات .
وجدت جولشتاي مأوى لها في السوق ، وصارت تفتات
على ما يتبقى من الباعة على الأرض ، لكنها كانت تخجل
من الاستجداء . وفي سوق حيوى لمحها الجندى ايفان
شاغاتايف واخذ يحمل لها يوميا شيئا من ارزاقه في قدر .
كانت تأكل حساء لحم البقر في امسيات السوق الخالي ،
بينما يلمسها الجندى شيئا فشيئا ثم يعانقها . وما كان بوسعها
ان تنكر الجميل وترفض ملاطفاته . فتلوذ بالصمت ولا
تبدى مقاومة . وفكرت كيف ترد الجميل لهذا الروسى ،
وما كان عندها غير ما وهبته الطبيعة اياها .

— ما سبب هذه الدموع ؟ — سألت فيرا نزار في
يوم رحيله الى مسقط رأسه .
— تذكرت كيف كانت امى تبسم لى وانا صغير .
— كيف ؟

تعذر على نزار الجواب :
— لا اتذكر . . . كانت تفرح لى وتبكي على . والناس
لا يتسمون الآن بهذه الصورة . كانت دموعها تسيل على
وجه سعيد .

وقالت الام لنزار ان زوجها كوشمات عندما عرف بان
نزار ابن جندى روسى وليس ابنه لم يضربها ولم يهتج ،
بل انكمش وانطوى على نفسه وصار غريبا على الجميع .
مضى لوحده بعيدا وظل هناك يدارى احزانه ، ثم عاد
واحبا جولشتاي من جديد .

مضى نزار شاغاتايف للترهه مع فيرا لآخر مرة . ففى
المساء يستقل القطار الى آسيا . وجمعت فيرا حاجيات الطريق
الطويل : رتقت الجوارب وخاطت الازرار اللازمة وكوت بنفسها
الثياب الداخلية وفحصت كل الحاجيات مرارا وهى تلاحظها
وتحسدها لانها سترافق زوجها .

وفى الشارع طلبت فيرا من نزار ان يعرجا على معارفها .
فلربما يكف عن حبها الى الابد بعد نصف ساعة .
دخلا شقة واسعة ، وعرفت فيرا زوجها على امرأة
متقدمة فى العمر سألتها :

— كسينيا فى البيت ؟
— نعم ، جاءت قبل قليل . — اجابت ربة
البيت .

فى غرفة فسيحة غير مرتبة جلست بنت فاحمة الشعر
فى الثالثة عشرة او الخامسة عشرة من العمر . كانت تقرأ
فى كتاب وتداعب طرف ضفيرتها بيدها .
— ماما ! — فرحت البنت لقدم امها .
— مرحبا يا كسينيا ! — قالت فيرا . — هذه ابنتى —
وعرفت شاغاتايف عليها .

شد نزار على اليد الغريبة ، يد الطفلة والمرأة معا .
كانت اليد وسخة لزجة لان الاطفال لا يتعودون على النظافة
رأسا .

ابتسمت كسينيا . ولم تكن تشبه امها . وجهها كوجه
صبى معتدل القسمات ، وهو حزين بعض الشيء من الخجل
وعدم التعود على الحياة وشاحب من انكباب النمو . عيناها
بلونين مختلفين ، احدهما سوداء والاخرى زرقاء ، مما

اضفى على تعابير وجهها معنى الرضوخ والعجز وكأن شاغاتايف يرى وجهها قبيحا رقيقا يثير الشفقة . الا ان فم كسينيا يفسد منظرها . فقد اتسع وامتلات الشفتان كأنما تشعران دوما بعطش شديد ، كنبته قوية مدمرة تنبجس من اعماق سكون البشرة العفيفة .

خيم الصمت على الجميع بسبب حراجه الموقف ، لكن كسينيا حزرت بكل شيء .

— انت تعيشين هنا ؟ — وجه شاغاتايف سؤالا نافها .

— نعم عند جدتي لابي . — اجابت كسينيا .

— ابن ابوك ؟ توفي ؟

كانت فيرا متزوية تتطلع الى موسكو عبر النافذة . فضحكت كسينيا .

— كلا ، كلا ! ابي شاب يقيم فى الشرق الاقصى

ويعمل فى بناء الجسور ، وقد بنى جسرين !

— كبيرين ؟

— نعم . احدهما معلق والآخر بركيزتين وعوامتين

ضائعتين ، اختفيتا الى الابد ! — قالت كسينيا فرحة .

وعندى صورة من الجريدة !

— بابا يحبك ؟

— كلا ، فهو يحب الغرباء ، ولا يريد ان يحبنا

انا وماما .

ظلا يتحدثان ، فشر شاغاتايف بأسف مبهم مشوب

بحزن خفيف كما فى الاحلام والرحلات . نسي الحياة

المعتادة فالتقط يد كسينيا وظل ممسكا بها لا يفلتها .

وجلست البنت مرتبة مندهشة ، وعيناها الملونتان

تنظران بألم كشخصين قريبين لا يعرف احدهما الآخر . ووقفت امها فيرا تبسم من بعيد لابتها وزوجها . وسألت : — الم يحن الوقت للذهاب الى المحطة ؟

— كلا ، لن اسافر اليوم — قال نزار وقشط الارضية

بحذائه وهو يهدئ تململ روحه امام هذه البنت . وهو يشعر ،

فضلا عن ذلك ، بالخجل لان فيرا وكسينيا يمكن ان

تعتبرا حالته حبا رجاليا قاسيا ، اما هو فلا يشعر الا بميل

الى كسينيا مغمم باللذة المبهمة والقراة البشرية والاهتمام

بمصير افضل لها . كان يريد ان يغدو قوة حامية لها ،

وابا وذكرى خالدة فى نفسها .

اعتذر شاغاتايف وخرج لنصف ساعة . اشترى فى

المتجر الكبير مختلف الحاجيات بثلمائة روبل وجاء بها

هدية الى كسينيا . ولو لم يفعل ذلك لظل أسفا اياما طويلا .

فرحت كسينيا للهدايا بعكس امها .

— عندها فستانان فقط ، وآخر حذاء تمزق — قالت

فيرا . — فأبوها لا يرسل شيئا ، وانا بدأت العمل قبل

قليل . . . لماذا اشتريت كل هذه التفاهات ؟ ما حاجة

البنت الى العطور الثمينة وحقيبة الشمواء والبساط الملون ؟

— لا بأس يا ماما ، فليكن ! — قالت كسينيا . —

سيعطوننى فستانا بالمجان فى مسرح الاطفال ، فانا اساعدهم

هناك ، وفى الكشافة سيوزعون علينا جزمات جبلية قريبا ،

فلا داعى للحذاء . الحقيبة والبساط افضل .

— عبثا مع ذلك — تشكت فيرا . — وهو نفسه بحاجة

الى نقود ، فالسفر طويل .

— ما عندى يكفينى — قال نزار وخرج من جيبه

اربعمائة روبل اخرى وتركها للصرف على تغذية كسينيا .
اقتربت منه البنت ومدت له يدها شاكراً وقالت :
— سأشتري انا ايضا هدايا لك قريباً . سنحصل
على الثروة قريباً !

قبلها شاغاتايف مودعا .
وفي الشارع سأله فيرا :

— نزار ، ألم تعد تحبني ؟ فلنذهب ونقدم طلب
الطلاق طالما لم تسافر بعد . . . لقد رأيت بنفسك : كسينيا
ابنتي وانت ثالث زوج لى وانا فى الرابعة والثلاثين .
لاذت فيرا بالصمت ، وسأل نزار شاغاتايف مندهشاً :
— لم لا احبك ؟ وانت ، هل احببت الزوجين
الآخرين ؟

— نعم ، زوجى الثانى توفى ، وانا ابكى عليه لوحدى
حتى الآن . زوجى الاول تركنا بنفسه وكنت احبه هو ايضا
وكنت مخلصه له . . . واضطرت ان اعيش فترة طويلة بلا
رفيق واتردد على الحفلات المرحية واشك الزهور الورقية فى
شعرى بنفسى . . .

— ولكن لماذا تتصورين بانى لا احبك ؟
— انت تحب كسينيا ، انا واثقة من ذلك . . .
ستبلغ الثامنة عشرة وانت فى الثلاثين او اكثر بقليل .
وستتزوجان ، وساعلن انا خطوبتكما . ولكن لا تكذب
على ولا تفلق ، فانا متعودة على فقدان الرجال .
توقف شاغاتايف امام هذه المرأة مذهولاً لا يفهم شيئاً .
فالغربة كل الغربة ليس فى مصيبتها ، بل فى كونها واثقة
من ان الوحدة قدرها الذى لا فرار منه ، مع ان نزار تزوجها

وشاركها المصير . لقد احتفظت بمصيبتها ولم تستعجل فى
تبديدها . ذلك يعنى ان قوة معادية للانسان تقبع فى اعماق
عقله وفى لب فؤاده . قد تبدل بسببها العينان البراقتان
المفعمتان بالفرحة فى اوج الحياة الفوارة ، فى احضان
اليدين المخلصتين ، بل وحتى فى قبلات الاطفال . وسألها
نزار :

— ولهذا لم تضاجعيني ، اليس كذلك ؟
— بلى . فانت لم تكن تعرف بان عندى بنتا كهذه .
كنت تفكر باننى اصغر سناً واكثر طهارة . . .
— ثم ماذا ؟ ذلك سواء بالنسبة لى . . .
— كلا ، اخبرنى ، هل وقعت الآن فى حب كسينيا ؟
لاحظت ذلك .

— نعم — اجاب شاغاتايف — لم اتحمل .
سارا صامتتين حتى وصلا منزل فيرا . وقفت وسط
غرفتها دون ان تخلع معطفها المشمع ، واحتوتها الغربة
واللامبالاة ازاء حاجياتها واشيائها المحيطة بها . ولو سنحت
فرصة مفاجئة لأهدت كل ما تملك من حاجيات الى جارتها ،
فلعل هذا التصرف الطيب يهدئ بالها بعض الشيء ، ويجعل
فؤادها المتألم يتقلص مع تقلص تلك الحاجيات . لكن
ذلك سيحملها ايضا على توزيع بدننها عن آخره ، وحتى
هذه البقية الاخيرة ربما ستتعبذ بنفس العذاب الشديد
الذى يعانى منه البدن مع الثياب والحاجيات واسباب الراحة ،
وسيتعين عليها ان تسلم تلك البقية الباقية ايضا كى تجهز
عليها وتنساها .

يمكن للأنس والكابة والعوز ان تتقلص وتقع فى آخر

مسامة للانسان ولا يطردها منها الا انفاس الاحتضار .
— اذن ، فماذا علي ان افعل ؟ — سألت فيرا وهي
تخاطب نفسها .

نزار يفهم فيرا . فعانقها وظل ملتصقا بها امدا طويلا
لكي يهدئها بدفته على الاقل ، لان المعاناة الوهمية لا
تخفت بسهولة ، والكلمات عاجزة في هذا المجال .
وبدا الحزن يزابل فيرا . فقالت :

— كسينيا ستحبك ايضا . . . ساريها على حبك ،
ساجعلها تتذكرك ، ساصورك بطلا في نظرها . لا تضع
الامل يا نزار . فالسنين ستمر بسرعة ، وانا سأنعود على
الفراق .

— ما الداعي للتعود على الاسوأ ؟ — قال نزار ،
وهو لا يفهم لماذا تبدو السعادة مستحيلة في انظار الناس
فيحاولون استمالة بعضهم البعض بالحزن وحده .
مل شاغاتايف من المصائب منذ الطفولة . والآن
بعد ان حصل على التعليم بدت له تلك المصائب وضيفة ،
فعزم على ان يبني في وطنه ، في مسقط رأسه ، عالم
الاطمئنان والسعادة ، والآن ، فماذا يمكنه ان يفعل في
الحياة ؟

— لا تهتمى — قال نزار وداعب بطن فيرا الكبير
الذى يحنو على مولود السعادة المرتقبة — ضعي طفلك بسرعة
وسيفرح ولا بد .
— ربما لن يفرح — قالت فيرا مرتابة . — ربما سيعانى
الامرين .

— لن نسمح بالمعاناة بعد الآن . — اجاب نزار .

— من انتم ؟

— نحن — أكد نزار بصوت خافت لا على التعيين .
كان لسبب ما يخجل من الكلام بوضوح ويتورد وجهه وكأن
الافكار التي تخطر على باله معيبة .
عانقته فيرا مودعة . كانت تتابع عقارب الساعة ،
وموعد الفراق يقترب .

— انا واثقة ستكون سعيدا فقلبك ابيض . خذ معك
اذن ابنتي كسينيا .

بكت من حبها وعدم ثقتها بالمستقبل . غدا وجهها
في البداية أكثر قبحا ، ثم غسلته الدموع ، فاكتسى بمسحة
اخرى وكان فيرا تنظر من بعيد بعينين غريبتين .

٣

غادر القطار موسكو من زمان ، وهو يواصل زحفه
منذ عدة ايام . وقف شاغاتايف امام النافذة ، وشاهد الاماكن
التي قضى فيها طفولته ، وربما كانت تلك اماكن اخرى ،
لكنها شبيهة بها تماما . نفس تلك الارض الخالية العتيقة ،
ونفس الريح الطفولية تهز عيدان الاعشاب العاوية ، والفضاء
فسيح ممل كروح غريبة كثيفة . كان نزار يتوق في بعض
الاحيان الى النزول من عربة القطار والسير مشيا كطفل تركه
الجميع . الا ان الطفولة والاقوات الماضية مرت من زمان .
وشاهد في محطات القطار الصغيرة في السهوب صورا للزعماء
اعدها على الاكثر رسامون غير محترفين والصقت على الاسيجة
كيفما اتفق . ولعل هذه الصور النصفية قليلة الشبه باصحابها .

وربما رسمتها يد طفل من الطلائع بشعور صادق . فان
احدى الصور تمثل شيخا وابا طيبا لكل المشردين في الارض ،
لكن الرسام حاول دون قصد منه ان يجعل الوجه شبيها
به هو نفسه ليكون واضحا انه الآن لا يعيش وحيدا في
هذا العالم وان لديه ابا واقرباء ، ولذا غدا الفن اقوى من
قلة المهارة . وفي الحال يرى المرء وراء احدى المحطات
مختلف الناس يحرقون الارض ويغرسون النباتات او يبنون
شيئا لكى يمهّدوا مكانا للحياة ويوفروا المأوى لمن ليس
لديه مأوى . ولم ير شاغاتايف محطات خالية مقفرة لا
يعيش المرء فيها الا منفيا . ففي كل مكان يعمل الانسان
ويزايل فؤاده القنوط الازلي والتيتيم والجنون الحاقد الذي كان
يعم الجميع .

تذكر نزار كلمات امه : « اذهب بعيدا الى الغرباء
ولا تبحث عن ابيك » . لقد ذهب بعيدا ، وها هو يعود .
وجد له ابا في شخص آخر رباه ووسع قلبه ، واعاده الى
دياره من جديد ليبحث عن امه وينقذها اذا كانت لا تزال
على قيد الحياة او يدفنها اذا كانت ميتة ومسجاة على وجه
الارض .

في احدى الليالي توقف القطار على غير المتوقع وسط
السهب المظلم . مضى نزار الى الفسحة بين بابسي العربية .
الجو هادئ والقاطرة تلهث بعيدا والركاب نائمون باطمئنان .
وفجأة ندت صيحة عن طير افزعه شيء ما في ظلمة السهب ،
وتذكر نزار هذا الصوت عبر السنين وكأن طفولته صاحت
مستغيثة وسط صمت الظلام . اصاخ السمع ، وكان هناك
طير آخر اطلق تغريدة سريعة ولاذ بالصمت . ويتذكر نزار

صوت هذا الطير ايضا ، لكنه نسي اسمه ، ربما هو عوسق
البادية او الباز . نزل شاغاتايف من العربة ، ولمح على مقربة
منها شجيرة توجه نحوها ولمس غصنا وخاطبه قائلا : « مرحبا
يا نبتتي » . اهتزت النبتة قليلا من لمسة الانسان ثم عادت
الى ما كانت عليه من سبات ولامبالاة .

ومضى شاغاتايف مسافة ابعد . فتحرك شيء في السهب
وصاح . فالسهب لا يبدو صامتا الا للآذان التي نسيته .
وانحدرت الارض صوب الوادي ، وبدأت اعشاب عالية
زرقاء . ودخل شاغاتايف تلك الاعشاب تحديه الذكريات .
كانت الاعشاب ترتعش حوله مهتزة من تحت ، وفرت منها
مختلف الكائنات غير المرئية ، كل بالوسيلة التي لديه :
بعضها يزحف على بطنه وبعضها يركض على قوائمه وبعضها
يطير بتحليق واطئ . ولعلها كانت حتى الآن جائمة بهدوء ،
ولم ينم منها الا القليل . ولكل منها مشاغل حتى النهار
لا يكفي لادائها على ما يبدو ، وربما كانت تأسف لتضييع
حياتها القصيرة على النوم . فكانت ناعسة لا غير وقد اسدلت
غشاوة على العين لحد النصف ، لترى على الاقل نصف
الحياة وتسمع الظلمة ولا تتذكر عوز النهار .

نسي نزار نفسه واحس برائحة الرطوبة ، فعلى مقربة
من ذلك المكان بحيرة او بئر . مضى الى تلك الجهة
فبلغ بقعة مكسوة باعشاب واطئة ندية شبيهة بخميلة روسية
صغيرة . تعودت عيناه على الظلام فصار يرى بوضوح . وبعد
ذلك بدأ القصب . عندما دخله نزار صاح وتطايير وانكمش
كل ما فيه من احياء . وكان الجو دافئا هناك . ولم تختف
كل الحيوانات والطيور مرتعبة من الانسان ، فقد ظل بعضها

في مكانه كما يبدو من الاصوات والضجيج . لقد ارتعت
اشد الرعب حتى اسرعت الى التناسل والتمتع باللذة في
انتظار الموت . كان نزار يعرف تلك الاصوات من زمان ،
وعندما سمعها الآن تنبث ضعيفة مرهقة من العشب الدافئ
شعر بالعطف على الحياة البائسة التي لا تتنازل عن آخر فرحة
لها .

وتحرك القطار ومضى بهدوء . كان بوسع شاغاتايف ان
يلحق به ، لكنه لم يفعل ذلك . فكل ما تركه في القطار
حقيبة البياضات ، ويمكنه ان يستلمها في طشقند فيما
بعد . لكن شاغاتايف قرر ان لا يستلمها ، كيلا يلهيه
شيء عن قضيته . غفا على العشب وسط السكون ملتصقا
بالارض كالسابق .

وبعد سبعة ايام وصل شاغاتايف الى طشقند ماشيا
باقصر طريق . جاء الى لجنة الحزب المركزية حيث كانوا
ينتظرونه من زمان . وقال له سكرتير اللجنة ان شعبا بدويا
صغيرا مكونا من مختلف القوميات يهيم على وجهه في بؤس
شديد بمنطقة ساري كاميش (وادي القصب) بين جبل اوست
اورت ودلتا نهر اموداريا (جبحون) . وهو يتكون من التركمانيين
والقره قلباق وبعض الاوزبكيين والكازاخيين والفرس والاكرد
والبلوچستانيين واشخاص آخرين نسوا اصلهم . كان هذا
الشعب في السابق يقيم دائما تقريبا في منخفض وادي
القصب ، ومن هناك يتوجه لممارسة الاشغال الموسمية في
تطهير الترع والارواء في واحة حيوى وفي تاشاوز وحجيلي وكونيا-
اورغينش وغيرها من الاماكن النائية . ويعيش هذا الشعب
في فقر مدقع وبأس شديد جعله يعتبر تلك الاشغال التي

تستمر بضعة اسابيع في العام خيرا عميما لانه يتمكن في
تلك الاسابيع من تناول ارغفة الخبز بل وحتى الرز . واثناء
الارواء كان ابناء هذا الشعب يؤدون وظيفة الحمير فيديرون
باجسادهم عتلة الناعور الخشبية ليرتفع الماء ويصب في الترع .
فالحمار يأكل العلف طول العام ، اما الشعب العامل من
وادي القصب فهو يأكل اياما معدودات ثم ينصرف . ولا
يموت كله ، وفي العام التالي يعود من جديد بعد ان يرهقه
الانتظار في قعر الصحراء .
وقال شاغاتايف :

— انا اعرف هذا الشعب . لقد ولدت هناك .
— ولذا نرسلك اليه — اوضح له السكرتير .
ما اسم هذا الشعب ؟ الا تتذكر ؟
— لم يكن لديه اسم . — اجاب شاغاتايف — لكنه
اطلق على نفسه اسما قصيرا .
— وما هو ؟

— الجان . وتعنى هذه الكلمة عندهم الروح او الحياة
العزيزة . فلم يكن لدى هذا الشعب شيء غير الروح والحياة
العزيزة التي منحتهم اياه الامهات عندما ولدنه .
عبس السكرتير وانطبعت على وجهه مسحة من الحزن .
— يعني ان كل ما يملكه هو القلب وحده ، عندما
ينبض في الصدر . . .

— نعم ، القلب وحده — وافقه شاغاتايف — الحياة
وحدها ، فخارج اطار البدن لا يعود له اي شيء وحتى
الحياة لم تكن له ، فقد خيل اليه انها حياته .
— وهل قالت لك امك من هم هؤلاء الجان ؟

— نعم . انهم يتامى وهاربون من كل الارزاء وعبيد
عجزة طاعنون في السن طردهم اسيادهم . وبعد ذلك جاءت
نساء اقترفن الخيانة الزوجية والتحقن بهم من شدة الخوف ،
وجاءت فتيات احبين اشخاصا ماتوا فجأة ولم يرغبن في
غيرهم فبقين هناك الى الابد . وكان هناك اشخاص لا
يعرفون الله واشخاص يستخفون بهذا العالم ومجرمون . . .
لكنني لا اتذكر الجميع . كنت صغيرا .
— اذهب الى هناك . وابحث عن هذا الشعب الضائع .
فوادي القصب خال الآن .

— سأذهب — وافق شاغاتايف — وماذا علي ان افعل
هناك ؟ ابني الاشتراكية ؟

— وماذا غيرها ؟ — قال السكرتير . — شعبك كان
في جهنم ، فليعيش الآن في الجنة ، وسوف نساعدك بكل
ما نستطيع . . . وستكون مفوضا عنا . ارسلوا شخصا من
الناحية الى هناك ، ولكن من المستبعد ان يفعل شيئا ،
فهو ليس من رفاقنا على ما اعتقد . . .

ثم زود السكرتير شاغاتايف بتوجيهات مفصلة دقيقة
واعطاه شهادة ايفاد ، فودعه شاغاتايف وانصرف .
وعزم على السفر الى موطنه في نهر اموداريا باتجاه
مصبه فاستقل مركبا قرب شارجوي .

استلم في بريد طشقند رسالة من فيرا تقول فيها ان
طفلها بهم بالخروج الى العالم وهو يفكر بشيء ما لانه غالبا
ما يتحرك في احشائها ويعبر عن استيائه . وكتبت تقول :
« لكنني الاطفه وامسد بطني وعندما انحني بوجهي
عليه اخاطبه وأقول : «ماذا تريد ؟ انك تحسن بالدفع ،

والهدوء هناك ، وانا احاول ان اقلل من الحركة كيلا تفعل ،
فلماذا تريد ان تخرج من احشائي ؟ . . » . لقد تعودت
عليه وانا اعيش معه دوما كصديق مثلما كنت اريد ان
اعيش معك . وانا اخشى ميلاده ، ليس بسبب الالم ،
بل لان تلك ستكون بداية الفراق معه الى الابد . فان قدميه
اللتين يطرق بهما الان ستسرعان للابتعاد عن امه ، وستذهبان
أبعد فأبعد عندما ينمو ويتزعزع الى ان يختفى عني تماما ،
عن عيني الباكيتين . . . كسينيا تتذكرك ، وهي كثيفة لانك
بعيد ولن تأتي قريبا ، بل ولا نعرف عنك شيئا . فهل توفيت
في مكان ما ؟ » .

بعث شاغاتايف بطاقة بريد الى فيرا وقال انه يقبلها
ويقبل كسينيا في عينيها الملونتين ، ولن يمضي وقت طويل
حتى يعود بعد ان يبني السعادة في احد اركان الارض .

٤

استعدت اربعة مراكب لنقل بضائع التعاونية من شارجوي
الى نوكوس . ولم يستخدم شاغاتايف حقه في الایفاد ،
لان هذا الحق لا يحظى بالاعتراف عادة ، فاشتغل معاونا
لملاح نهري . واشترط ان يصل حتى واحة حيوى ثم ينزل
الى الشاطئ هناك .

وحلت ايام الملاحة الطويلة . في الصباح والمساء
يتحول النهر الى سيل ذهبي بسبب شعاع الشمس المائل
الذي يخترق الماء عبر الغرين الحى الجاري . كانت هذه
التربة الصفراء المتجولة في النهر تبشر بالقمح والزهور والقطن ،

وتشبه بدن الانسان . وفي بعض الاحيان يجثم على قمة
قصب طير مجهول زاهي الالوان يتلفت بدافع من الانفعال
ويلمع ريشه في اشعة الشمس المتراقصة ويغرد بصوت رفيع
سياب وكأن عهد النعيم قد حل لكل الكائنات . وذكر
الطير نزار بالمرأة الصغيرة ذات العينين الملونتين ، كسينيا
التي قد تفكر فيه الآن .

بعد اسبوعين ترك شاغاتايف المركب ونزل على ضفة
واحة حيوى بعد ان استلم اجرتة مع تشكرات الملاح الاقدم .
امضى نزار عدة ايام في حيوى ثم توجه الى موطنه ،
وادي القصب ، بطريق الطفولة . ظل يتذكر هذا الطريق
حسب المعالم المنطفئة : الكثبان الرملية بدت الآن او طأ
مما كانت عليه ، والقناة اضحل ، والدرب الى اقرب بئر
اقصر . الشمس توزع اشعتها مثلما كانت ، لكنها الآن
على ارتفاع اقل مما في ذلك الزمان ، زمان طفولة نزار .
اكواخ الطوف والخيام الدائرية والحمير والجمال التي صادفها
والاشجار على جانبي السواقي والحشرات المحلقة بقيت على
حالتها دون تغيير ، لكنها لا تعبر بالا لنزار وكأنما اصابها
العمى بغيابه . سار مستاء مغتاظا وكأنه يجوب عالما غريبا
عليه ويحدق بكل ما يحيط به ويتعرف على ما طواه النسيان ،
لكنه نفسه ظل مجهولا هناك . فكل كائن صغير او جماد
او نبات ، كما اتضح له ، ظل اكثر من الانسان أنفة
وتحررا من روابط الود القديمة .

وعندما بلغ نزار شاغاتايف نهر كونياداريا الجاف رأى
جملا مقعيا كالانسان وقد استند بقائمتيه الاماميتين الى كومة
رمل . الجمل هزيل انخسف سناماه ، وراح ينظر وجلا

بعينه السوداءين كانسان ذكي حزين . اقترب منه نزار ،
لكن الجمل لم يعره اهتماما . كان يراقب حركة الاعشاب
الميتة التي تطاردها الريح وينتظر هل تقترب منه ام تمضي
في سبيلها بعيدا عنه . تدحرج عود على الرمل واقترب حتى
لامس خطم الجمل فمضغه وابتلعه . وعلى مسافة ابعد
تدحرجت كومة كروية من اشواك ابراهيم ، وظل الجمل
يتابع هذه النبتة الحية الكبيرة بعينين غمرهما الامل بالطيبة ،
لكن الاشواك المتدحرجة مرت به مر الكرام ، فاغمض
الجمل عينيه لانه لا يعرف كيف يبكي .

تطلع نزار الى الجمل من كل الجوانب . كان قد
اصابه الهزال من زمان بسبب الجوع والمرض ، وتساقط
وبره بالكامل تقريبا ولم تبق منه الا نتف قليلة ، ولذا
كان يرتجف من القشعريرة وعدم التعود على العري . ولعل
قافلة مرت بهذه البقعة فخلصته من احماله وتركته هنا لضعفه ،
او ان صاحبه مات فظل الجمل ينتظره حتى استنفد كل
ما لديه من احتياطات الحياة . وعندما فقد القدرة على
الحركة ركز البقية الباقية من قواه في قائمتيه الاماميتين واستند
اليهما ونهض قليلا ليرى عيدان الاعشاب التي تقذفها الريح
صوبه فيقتات عليها . وعندما تهدأ الريح يغمض عينيه
كيلا ينفق بصره عبثا ويتأبه النعاس ، لكنه لا يريد ان
يربض على الارض ، لانه لن يتمكن من النهوض ثانية .
ولذا ظل جالسا على الدوام يقظا تارة وناعسا تارة اخرى
حتى يرغمه الموت على الرقاد او يجهز عليه اي وحش نافه
من وحوش البادية بضربة واحدة من خفه الصغير .
امضى نزار وقتا طويلا وهو جالس قرب الجمل يراقبه

ويتفهمه . ثم حمل له من بعيد حزما من اشواك ابراهيم
واعطاه اياها ليأكلها . لكنه لم يستطع ان يسقيه ماء ،
فلم يكن لديه غير زمزميتين من الماء ، الا انه يعرف
بوجود بحيرات عذبة وآبار صغيرة في مسافة ابعد على امتداد
مجرى كونياداريا الجاف . ولكن من الصعب على المرء
ان يحمل جملا على الرمال .

حل المساء . ظل نزار يطعم الجمل ويجلب له الاعشاب
من اقرب الاطراف ، حتى وضع الجمل رأسه على الارض
وغط في نوم وادع لحياة جديدة . وبحلول الليل برد الجو .
اكل نزار رغيفا من كيسه ثم التصق بجسم الجمل كي يتدفأ
وراوده النعاس . ابتسم لان كل شيء بدا له غريبا في هذا العالم
الذي كأنما قد أعد من اجل لعبة ضاحكة قصيرة . الا
ان هذه اللعبة المتعمدة استطالت وامتدت الى الابد ، ولم
يعد هناك من يرغب في الضحك ، ولا من يقوى على
الضحك . ارض البادية الياب والجمال وحتى الاعشاب
التافهة المتدحرجة يجب ان تتحل بالجدية والعظمة وروح
النصر ، ففي دخيلة الكائنات المسكينة يفور احساس
برسالتها الاخرى ، رسالتها السعيدة الضرورية التي لا بد
منها ، فلماذا ، يا ترى ، تتعذب وتنتظر شيئا ما ؟ تكور
شاغاتايف قرب بطن الجمل وغفا مندهشا للواقع العجيب .

٥

بعد ستة ايام من السير في مجرى كونياداريا وصل
شاغاتايف الى وادي القصب . وكان كل هذا الوقت يقتاد

الجمل الذي عادت اليه الحياة وصار يقوى على المشي ،
لكنه لا يستطيع ان يحمل الانسان .

جلس نزار على اطراف الرمال حيث تنتهي الصحراء
وتبدأ الارض بالنزول الى المنخفض باتجاه جبل اوست اورت
البعيد . الارض هناك واطئة قاتمة ، ولم ير نزار دخانا
او خياما في اي مكان . ومن بعيد تلمع البحيرة الصغيرة ،
ولا شيء غيرها . اخذ نزار حفنة من الرمل . لم
يكن قد تغير فيه شيء . فالريح كل تلك السنوات
كانت تتلاعب به وتنقله الى الامام تارة والى الوراء تارة
اخرى ، فشاب الرمل من مكوثه الابدي في مكان
واحد .

ذات مرة اقتادته امه الى هنا وامرته بان يذهب ويعيش
وحيدا . وها هو الآن يعود . واصل سيره مع الجمل الى
منتصف ارض موطنه . الشجيرات البرية تقف كعجائز صغيرات ،
فلم تنم ولم ترتفع منذ ان كان نزار طفلا صغيرا . ولعلها
الكائنات الوحيدة هنا التي لم تنس شاغاتايف ،
لان منظرها لا يستميل الانسان أبدا ، فهو يشبه الخنوع ،
وليس بوسع المرء ان يصدق بان هذا المنظر الخانع يمكن
ان ينطوي على اللامبالاة او النسيان . فهذه الكائنات المعدمة
البشعة لا بد وان تعيش على الذكريات وحدها او على حياة
الغير ، وليس هناك ما يمكن ان تعيش عليه سوى ذلك .
امضى نزار عدة ايام وهو يجول في موطن الطفولة
هذا بحثا عن الناس . وكان الجمل يقتفى اثره من تلقاء
ذاته خوفا من الوحشة . وكان احيانا يتطلع الى
الانسان امدا طويلا باعصاب متوترة متنبهة ، وهو يكاد

يبكي او يتسم ، ويتألم من عجزه عن البكاء او الابتسام .

كان نزار ينام الليل في العراء ويأكل آخر ما تبقى لديه من طعام ، ولا يفكر مع ذلك في راحتته وسلامته .

توجه الى اعماق المنخفض المقفر ، عبر قاع البحر القديم ، قلقا مستعجلا . ووقد مرة واحدة في طريق النهار والتصق بالارض . شعر بألم مفاجئ في القلب فنقد صبره ولم تسغه قواه لمقاومته . واشتد به الحنين الى كسينيا فبكى خجلا من عواطفه منكرا لها . رآها الآن قريبة منه بالتصور وبالدكريات . ابتسمت له ابتسامة تبعث على الشفقة ، ابتسامة امرأة صغيرة لا تستطيع ان تحب الا روحيا وتمانع في المعانقة وتخشى القبل خشية المرء من كسر عظامه . وكانت فيرا جالسة على مسافة منها تخطط ثياب الطفل وكأنها تقلص المسافة بينها وبين زوجها وتكاد لا تبالي به اطلاقا لان في احشائها يتحرك ويتعذب انسان آخر اشد ضعفا وهي تحبه اكثر . انها تنتظره وتتوق الى رؤية وجهه وتخشى مفارقه . لكن ما يهدئ من روعها انها ستتمكن سنين طويلة من تقبيله ومعانقته متى تشاء حتى يكبر ويقول لها : «كفاية ، يا ماما ، لا تثقل على ، مللت منك !»

رفع شاغاتايف رأسه . وكان الجمل بمضغ عشب رقيقة عجفاء ، وتتطلع سلحفاة صغيرة بعينين سوداوين رقيقتين متعبتين الى الانسان الراقد على الارض . فما الذي يدور في ذهنها الآن ؟ ربما خطرت على بالها فكرة سحرية مدفوعة بحب الاستطلاع تجاه هذا البشرى المجهول

الهائل ، وربما كآبة العقل الغافي . وقال شاغاتايف للسلحفاة :

— لن نتركك لوحدا !

كان يهتم بالاحياء اهتمامه بقدس الاقداس ، ويحرص على عدم تبديد قلبه ، فليس بوسع ان يتجاهل شيئا يمكن ان يعزى النفس .

واصل سيره مع الجمل صوب جبل اوست-اورت الذي يقيم على سفحه شيخ منسي . كان ينام الليل في كوخ مطموور على منحدر الهضبة اليابس وبقتات على صغار الحيوانات وجذور النباتات التي يجدها في شقوق السطح الجبلي . كان طاعنا في السن ومعدما لدرجة جعلته لا يشبه البشر تقريبا . استهلك حياته البشرية من زمان ، واشبع كل مشاعره ، ودرس وحفظ كل تفاصيل الطبيعة المحلية بالدقة التي تلازم الحقيقة الكاملة . حتى النجوم ، آلاف عديدة من النجوم ، يحفظها عن ظهر قلب بحكم العادة ، وقد مل حتى من النجوم . اسمه سفيان . كان يرتدي معطفا عسكريا عتيقا من معاطف الجنود الروس من عهد حرب حيوى ، ويعتمر طاقية ويلف قدميه بخرق بدلا من الحذاء .

عندما رأى نزار خرج للقائه من كوخه المطموور وراح يحدق في الفضاء بعينين خاويتين .

كان الانسان والجمل يقتربان منه . عرف سفيان القادم رأسا وشعر في دخيلته بالاسف لانه لم يبق في العالم مجهول لا يعرفه .

— انا اعرفك — قال سفيان — كنت صبيا واسمك

نزار .

— لكنني لا اعرفك — اجاب نزار .
 — انت لا تعرفني . انت تعيش مثلما تأكل ، ما يدخل فيك يخرج منك . اما انا فكل شيء يبقى في داخلي .
 انكمش وجه الشيخ ليتذكر ابتسامة الترحيب ، لكن وجهه ، حتى وهو هادئ ، يشبه الجلد الخالي لثعبان ميت بابس . دهش شاغاثايف ولمس يد سفيان وجبهته . فلا احد يهتم بالحياة والاحياء ، لكن عهدا آخر قد حل . . .
 وقال نزار للشيخ انه جاء من بعيد من اجل امه وشعبه ، افلا يزال موجودا ام انه انقرض من زمان ؟
 ظل الشيخ صامتا . ثم سأل :
 — هل قابلت اباك في مكان ما ؟
 — كلا . وهل تعرف انت لينين ؟
 — كلا ، — اجاب سفيان . — سمعت هذه الكلمة مرة من عابر سبيل قال ان معناها جيد . لكنني لا اعتقد بذلك . لو كان معناها جيدا فلتأت الى وادي القصب . كانت جهنم هنا ، وانا اعيش هنا اسوأ من اي انسان .
 — ولذا جئت اليك — قال شاغاثايف .
 وانكمش وجه العجوز من جديد في ابتسامة مرتابة .
 — ستركني قريبا ، وسأموت هنا وحيدا . انت شاب ، ونبضات قلبك ثقيلة ، وستشعر بالضجر .
 اقترب نزار من الشيخ وقبله بشدة وتلهف كما قبل فيرا في السابق . ومن الغريب ان طعم شفتي العجوز طعم بشري كشفتني تلك المرأة الشابة البعيدة .
 — ستموت هنا من الاسف والذكريات ، فقد كانت

هنا ، كما يقول الفرس ، جهنم للارض كلها . . .
 ودخلا الكوخ الذي يقيم فيه سفيان على تكية من القصب . قدم الشيخ لضيفه رغيفا مخبوزا من جذور اعشاب السفح . ومن كوة المدخل لاحت ظلال المساء المنسحبة على منخفض وادي القصب الذي كانت فيه جهنم في غابر الزمان . كان نزار قد سمع في الطفولة بهذه الاسطورة الشفوية ، وفهم الآن معناها الكامل . في خراسان البعيدة من هنا ، وراء جبال كويتداغ ، وسط البساتين والمزارع يقيم أرمزد الطاهر اله السعادة والثمار والنساء ، وحامي الزراعة وتناسل البشر ومحب الهدوء في ايران . والى الشمال من ايران وراء سفوح الجبال تنبسط بادية رملية خالية وتمتد الى الظلمات حيث لا تنمو الا الاعشاب النادرة ، وحتى تلك الاعشاب تقتلعها الرياح وتحملها بعيدا الى الاماكن المظلمة في طوران حيث تتألم روح الانسان ليل نهار . ومن هناك كان اناس جهلة يفرون الى ايران بعد ان يعجزوا عن تحمل اليأس والموت جوعا . كانوا يقتحمون خمائل البساتين ومخادع النساء والمدن العريقة ليأكلوا على عجل ويمتعو انظارهم وينسوا انفسهم حتى يبادوا ويتعرض من يبقى منهم على قيد الحياة للملاحقة حتى اعماق البادية . وعند ذاك كانوا يخبثون في اطراف الصحراء ، في وادي القصب ، ويقبعون هناك امدا طويلا حتى تستنهضهم الحاجة وذكرى ربات بساتين ايران الشفافة . . . ومن جديد يظهر فرسان طوران السوداء في خراسان وفيما وراء اترك وفي أسترآباد لينهبوا ممتلكات الحضر البداء البغيضين ويبيدوهم بالملذات . . .
 ربما كان احد السكان القدامى في وادي القصب يدعى

اريمان ، اي الشيطان ، وربما احتاج هذا المسكين بعد المعاناة والاحزان . لم يكن شريرا أكثر من غيره ، لكنه كان انعكس الجميع ، وكان طوال حياته يطرق ابواب ايران ويعبر الجبال الى جنة أرمزد ليأكل ويتلذذ ، حتى حتى رأسه ودموعه تنساقط على الارض العقيمة في وادي القصب فوافته المنية .

دعا سفيان نزار لينام الليل عنده . ظل صاحبنا يتألم قبيل المنام : تمر الايام والليالي عبثا ، ويجب الاستعجال لبناء السعادة في قاع جهنم بوادي القصب . اعاقه نفاق الصبر عن النوم . وراح يحسب سير الزمن امدا طويلا . النجوم في السماء تلمع كبصيص الضمير والجمل يشخر خارج الكوخ ، والعشب الخائر الذي اقتلعت ريح النهار يחדش الرمال حذرا وكأنه يحاول ان يعتمد على نفسه ويسير على سيقانه النحيلة .

وفي اليوم التالي غادر شاغاثايف وسفيان المكان ليبحثا عن الضائعين . ولحق بهما الجمل ايضا فهو يخشى الوحدة مثلما يخشاها المحب المفترق عن محبوبه .

في طرف وادي القصب تذكر نزار مكانا معروفا . فهنا كان ينمو عشب اشيب لم ينم منذ ان كان نزار طفلا . وهنا قالت له امه ذات مرة : «لا تخف يا صبي ، فنحن ذاهبون لنموت» ، وامسكت بيده وقربت منها . واجتمع حولهما كل من كان هناك آنذاك فتكون منهم حشد كبير ، ربما من الف شخص ، مع الامهات والاطفال . عم الشعب الصخب والفرح ، فقد عزم على الذهاب الى حيوى ليقتلوه هناك بأجمعه ، بالكامل ، ولن يعيش بعد ذلك .

كان امير حيوى يضطهد هذا الشعب المستضعف المستعبد من زمان . كان في البداية يرسل في حالات نادرة رجالا من فرسان قصره الى وادي القصب ، وفيما بعد صار يرسلهم أكثر ، وكانوا يأخذون من ابناء الوادي كل مرة عدة اشخاص بعدمونهم في حيوى بعد فترة او يزجون بهم في السجون دون رجعة . كان الامير يبحث عن اللصوص والمجرمين والكفرة ، الا ان العثور عليهم كان صعبا ، ولذا يأمر بالقبض على كل المجهولين والذين يعيشون خفية لكي يرى اهالي حيوى تعذيبهم واعدامهم فترتعد فرائصهم من الرعب . في البداية كان ابناء الجان يخافون حيوى ، وكان الكثيرون يشعرون بالخور والهلع مسبقا ، فلا يعودون يهتمون بعوائلهم وانفسهم ويرقدون على ظهورهم في ضعف متواصل . ثم صار الجميع يشعرون بالخوف ، فيحدقون في الصحراء القفراء متوقعين وصول اعدائهم الفرسان . كانوا يتحجرون في اماكنهم من هبة الريح التي تكنس الرمل على قمة الكتيب متصورين ان الفرسان قادمون . وعندما اقتيد ثلث ابناء الوادي او أكثر الى حيوى دون رجعة تعود الشعب على انتظار هلاكه ، وفهم ان الحياة ليست ثمينة كما كانت تبدو لابنائهم في افئدتهم وفي امانهم ، حتى صار كل من بقي سالما يشعر بالضجر لان الفرسان لم يأخذوه الى حيوى . الا ان الفتى يعقوبجانوف وصديقه اوراز باباجان ما كانا يريدان ان يذهبا الى حيوى عبثا ، اذا كان بالامكان الموت بحرية . هجما بالسكاكين على اربعة من حراس الامير واردياهم صرعى وجرماهم في الحال من الامجاد والحياة . اما نزار الصغير فقد هرع الى امه ، عندما رأى المسلحين ، ليأخذ الحديدية

الحادة التي خبأها من اجل اللعب لكنه عاد بعد فوات
الاولان ، فالحرس ماتوا بدون حديدته . واختفى اواز
ويعقوبجانوف بعد ذلك ، فقد امتطيا حصانين من حصن
الجنود القتلى ، اما باقي الناس فقد توجهوا بحشد كبير
الى حيوى سعداء وادعين ، كانوا مستعدين آنذاك بنفس
القدر لتدمير الامارة او لمفارقة الحياة هناك بلا اسف ، لان
البقاء على قيد الحياة لم يكن بالنسبة لاي منهم فرحة او
ميزة ، ولان الميت لا يشعر بالالم . سار في المقدمة المنشد
يرتل اغنيته وسار جنبه سفيان الذي كان شيخا حتى في ذلك
الحين . تطلع نزار الى امه ودهش لانها مرحلة هذه المرة
مع انها متوجهة الى الموت ، وكان الباكون يسرون برغبة
ايضا . وبعد عشرة او خمسة عشر يوما شاهد ابناء الوادي
برج حيوى . كان الطريق الى حيوى بطيئا محفوقا بالصعاب ،
الا ان صعوبات وعوز الحياة الجامدة تتطلب ايضا قلبا
يتحمل ، ولذا لم يشعر السائرون بالانفعال من التعب والارهاق .
وعلى مقربة من حيوى طوقت مجموعة صغيرة من خيالة
الامير الشعب القادم ، لكن ابناء الوادي عندما رأوا الخيالة
انشدوا الاغاني مرحين مبتهجين . غنى الجميع حتى اكثرهم
صمتا واقلهم مهارة ، ورقص الاوزبيكون والكازاخيون في
المقدمة ، ونفخ شيخ روسي تعبس عازفا الحانا على الهارمونكا ،
ورفعت ام نزار يديها وكأنها تستعد لرقصة خفية ، وكان نزار
نفسه ينتظر باهتمام كيف سيقتلهم الجنود جميعا وسيقتلونه
معهم الآن . وامام القصر وقف حراس بدناء شجعان يحمون
الامير من الجميع . كانوا يتطلعون بدهشة الى الشعب السائر
امامهم برؤوس مرفوعة دون ان يخشى الرصاص والحديد وكأنه

شعب كريم سعيد . وكان على حراس القصر مع الفرسان
السابقين ان يطوقوا بالتدريج شعب وادي القصب ويقتادوه
الى اقباء السجون ، لكن من الصعب معاينة المبتهجين
لانهم لا يفهمون الشر .

اقرب احد اعوان الامير من شيوخ وادي القصب
وسألهم عما يريدون وعما يثير فرحتهم .

فاجابه احدهم ، ربما هو سفيان او شيخ آخر :

— عودتنا امدا طويلا على الموت فتعودنا وجئنا الآن

جميعا ، فاعطنا الموت بسرعة طالما لا نزال متعودين عليه
وطالما الشعب يبتهج !

انصرف معاون الامير ولم يعد . وظل الخيالة والجنود

المشاة حول القصر دون ان يمسوا ابناء الوادي ، فهم لا
يقتلون الا من يخاف الموت ، وطالما الشعب كله اقدم
على الموت قريبهم بمرح وسرور فالامير وكبار جنده لا يعرفون
كيف يفهمون ذلك وماذا عليهم ان يفعلوا . فلم يفعلوا
شيئا وواصل القادمون من الوادي سيرهم وسرعان ما رأوا
السوق . كان الباعة يعرضون اطعمتهم ، وشمس المساء
التي تلمع في السماء تنير البصل الاخضر والشمام والبطيخ
الاحمر والعنب في السلال والقمح الاصفر والجمير الشائخة
الناعسة من التعب واللامبالاة .

وسأل نزار امه آنذاك :

— متى يأتي الموت ؟ اريده !

لكن الام نفسها لا تدري ما الذي سيحدث الآن .

كانت ترى ان الجميع احياء وتخشى العودة ثانية الى وادي
القصب والعيش فيه من جديد الى الابد . في سوق حيوى

اخذ ابناء الوادي مختلف الثمار وأكلوا حتى الشبع بلا نقود ،
بينما وقف الباعة صامتين دون ان يضربوا هؤلاء الناس
المتوحشين . اكل نزار ببطة وكان يتطلع حواله منتظرا القتل ،
ويمكن من التهام شمامة واحدة فقط . وبعد الاكل اكتب
ابناء الوادي لان ابتهاجهم تبدد والموت لم يأت . واقتادت
جولشتاي ابنها الى الصحراء وعاد الجميع الى مكان اقامتهم
القديم .

عاد نزار وامه الى وادي القصب ، الى الاعشاب الخشنة
الشيء التي يقف نزار الآن مع سفيان بينها . وأنداك جلس
مع امه ليأخذ قسطا من الراحة فقالت له :

— تعال نعيش من جديد ، فنحن لم نمت !
— نعم ، انا وانت سالمان — وافقها نزار — اسمعي
يا ماما ، سنعيش ولا نفكر بشيء وكأننا غير موجودين .
— الذي يموت في بطن امه افضل حالا — قالت
جولشتاي .

— في بطنك ؟ — سألتها نزار — فلماذا لم تتركيني
هناك ؟ كنت سأموت اذن ولا يبقى لى وجود ، وتعيشين
انت وتأكلين وتفكرين بى وكأنى حي .
تطلعت جولشتاي الى ولدها آنذاك ، وانعكس في
وجهها ظل السعادة والشفقة .

لمس نزار الآن تلك الاعشاب العتيقة التي ظلت
تعيش دون تغيير لانها ماتت قبل ميلاده ، لكنها لا تزال
متماسكة ، كما لو كانت حية ، بجذورها العميقة المبتة .
وكان سفيان يفهم ان انفعالات الحياة تعمل في نفس
شاغاتاي الآن ، لكنه لم يبد اهتماما بذلك . فهو يعلم

ان الانسان يجب ان يملأ روحه بشيء ما ، واذا لم يكن
هناك ما يملؤها به فالقلب يجتر دمه بنهم شديد .
بعد اربعة ايام شعر سفيان ونزار بجوع شديد جعلهما
يريان احلام المنام وهما سائران على الاقدام في وضوح
النهار . ولم يتركهما الجمل ، لكنه كان يسير بعيدا عنهما
حيث يصادف في طريقه ما يقتات عليه من اعشاب .
وكان سفيان ينظر الى احلامه السابحة دون امل ، بينما
يتسم لها نزار تارة ويتألم تارة اخرى . وعندما بلغا رافد
دارياليك قرب مانغيرشاردار توقفا لقضاء الليل ، وخلط سفيان
ماء الضفة ليكون اكثر تركيزا وتعكرا واوفر غذاء وبعد ان
شرب الرجلان رقدا في كهف صغير لينسى البدن انه حي
وينقضى الليل على نحو اسرع . وعندما استيقظ نزار في
الصباح رأى الجمل ميتا . كان مسجى على مسافة قريبة
بعينين متحجرتين وقد تخثر الدم على حز فى رقبته . كان
سفيان ينبش فى احشائه ، وكأنها كيس مملوء بالطيبات ،
وينتقى منها قطعاً نيئة بدم نظيف ويأكلها ليسد بها
رمقه . وزحف شاغاتاي نحو الجمل ، وكانت رائحة الدفء
والشبع تفوح من جسمه المشقوق ، وكان الدم لا يزال
يقطر ويسيل في الشعاب البعيدة لبدنه ، فالحياة تموت
ببطء . وبعد ان شبع نزار وسفيان ناما من جديد راضيين
ولم يستيقظا الا بعد وقت طويل .

ثم واصلا سيرهما نحو الاهوار ، الى مصب اموداريا .
اخذا احتياطيا من لحم الجمل ، لكن نزار كان يأكله على
مضض ، فمن الصعب عليه ان يقتات على لحم الحيوان
الكثيب الذي يتصوره هو ايضا من افراد المجتمع البشري .

انتشر اهالي وادي القصب بين الشجيرات والبردي والقصب على امتداد مصب اموداريا . قبل زهاء عشرة اعوام وصل شعب الجان الى هذا المكان وتوزع للسكنى بين النباتات البليلة . في بادئ الامر كان البعوض ينهش الناس فيجعلهم يحكون جلودهم حتى يبلغوا العظام ، لكن دمهم تعود بمر الزمن على سم البعوض وصار يفرز مضادا له يجعل البعوض يتهاوى خائرا على الارض . ولذا فالبعوض الآن يخشى هؤلاء البشر ولا يقترب منهم ابدا .

بعض ابناء الشعب اقاموا على انفراد ، شخصا شخصا كيلا يتعذبوا من اجل الآخرين عندما لا يجدون ما يؤكل وكيلا ييكونا عندما يموت الاقرباء . وفي حالات نادرة كان البعض يعيشون في عوائل . وفي هذه الحالة لا يمتلكون شيئا سوى حب بعضهم البعض ، فهم لا يمتلكون طعاما جيدا ولا املا في المستقبل ولا اي نوع من الفرحة التي تسعد البشر ، فضعت قلوبهم حتى لم يبق فيها مكان الا للحب والتعلق بالزوج او الزوجة ، تلك العاطفة الابدية التي هي اكثر العواطف عجزا وبؤسا .

قضى سفيان ونزار يومين وهما يخوضان في الارض البليلة بين القصب المعتم ، حتى شاهدا كوخا من الاعشاب . وكان يقيم فيه الملا الضرير شيركيزوف وتسهر عليه وتطعمه ابنته ايديم التي هي في حوالى العاشرة من العمر . عرف الملا سفيان من صوته ، ولكن ما كان لديهما موضوع للحديث . جلسا قبالة بعضهما البعض على تكية القصب

وشربا الشاي المعمول من جذور القصب نفسه بعد فرمها وتجنيفها ، ثم ودعا بعضهما البعض ، فسأل سفيان : — اية اخبار ؟

— لا اخبار عندنا . الحياة تجري على وتيرة واحدة — اجاب الملا شيركيزوف — زوجتى العزيزة جيون غرقت في النهر وماتت .

— لماذا غرقت زوجتك الكريمة جيون ؟ — عافت نفسها الحياة . خذ ابنتى ايديم واعطنى بدلها حمارة مثابة اضاجعها في الليل كيلا يبقى مجال للافكار والأرق .

— انا معدم ، وليس عندي حمارة — اجاب سفيان . — بادل ابنتك بعجوز وضاجعها ، فكله سواء بالنسبة لك . — سواء . فعلا . — وافقه الملا شيركيزوف . — لكن العجائز سرعان ما يمتن ولن يكفين الرجل .

— هل سمعت ؟ وصلنا نزار من موسكو . امره بان يساعدنا لكي نعيش حياتنا بشكل جيد .

— جاءنا اربعة اشخاص قبل نزار — قال شيركيزوف . — لسعهم البعوض فارتحلوا . انا ضرير ، مصيري هو الظلام ، ولن تتحسن حالى .

وتدخل نزار فقال :

— انت ترتاح حتى للحمارة والعجوز . سعادتك كالتعاسة . فاجابه الملا شيركيزوف :

— يمر الوقت مع الزوجة دون ان تشعر به . كانت الصبية ايديم جالسة على الارض بساقين متباعدتين تسحق جذور القصب بحجر صغير على حجر كبير . فهى

ربة البيت هنا ، وهي تعد الطعام . وبالإضافة الى جذور القصب كانت قرب الصبية عدة حزم من اعشاب المستنقعات والصحراء وعظم معروق نظيف لحمار او جمل عثرت عليه في مكان ما تحت الرمال البعيدة وتنوي طبخه ليعطي طعاما للحساء . القدر المغسول يستقر بين قدمي ايديم ، وهي تلقى فيه بين حين وآخر ما تعده يداها ويصلح لطبخ حساء الغداء . لم تبد الصبية اهتماما بالضيفين ، فعيناهما مشغولتان بافكارها ، ولعلها كانت تعيش على حلم خفي خاص ، اما العمل المتزلي فتؤديه دون وعي تقريبا ، وقد تجرد فؤادها المتركز على ذاته ، عن كل ما يحيط بها . وطلب نزار من صاحب البيت :

— اسمح لابتك بالذهاب معي !

— لا تزال صغيرة ، فماذا تفعل بها ؟ — قال الملا شيركيزوف .

— سأحضر لك اخرى ، عجوزا .

— احضرها بسرعة — وافق شيركيزوف .

اخذ شاغاتايف يد ايديم فتطلعت اليه بعينين سوداوين ينبعث منهما بريق يبهر الابصار وكأنها لا ترى شيئا . تطلعت اليه مرتبة لا تفهم ما يريد . وقال لها نزار : — تعالى معي .

مسحت ايديم يديها بالارض لتنظفهما ونهضت ومضت تاركة كل اشغالها لا تلوى على شيء وكأنها عاشت هنا دقيقة واحدة وليس لها اب حي تتركه وحيدا . والتفت نزار الى سفيان العجوز : — بالنسبة لك سواء : تذهب معي ام لا ، اليس كذلك ؟

— سواء . — اجاب سفيان . طلب منه نزار ان يبقى مع الضرير ليساعده في اعداد الطعام والعيش حتى يعود اليهما . ومضى نزار مع الصبية في درب ضيق شقه الناس وسط احراش القصب . كان يريد ان يرى كل سكان هذا البلد المعشوشب ، كل الشعب الذي اختبأ هنا هربا من نوائب الدهر . ولم يسأل نزار من سفيان عن امه ولا مرة . كان يأمل ان يجدها على قيد الحياة ويقابلها فجأة ويرى انها تتذكره ، اما الموضع الذي نثرت عظامها فيه فالوقت يكفي للعثور عليه .

سارت ايديم طائعة وراء نزار على طول الطريق البعيد . كانت احراش القصب تنتهي في بعض الاحيان . وعندها يمشي نزار والصبية على ترسبات الرمل والغرين الخالية ويصادفان بحيرات ضحلة ويتحاشيان الشجيرات العتيقة الشائكة ويصلان من جديد الى احراش القصب فيجدان الممر . كانت ايديم صامئة ، وعندما اخذ التعب منها مأخذه حملها نزار على كتفيه ممسكا بركبتيها ، بينما عانقت هي رأسه . وبعد ذلك توقفوا ليرتاحا ويشربا الماء من غدير رملي صاف . وكانت الصبية تلقى على نزار نظرات بشرية غريبة وعادية حاول هو ، من جانبه ، ان يفهمها . ربما تعنى تلك النظرات : خذني اليك ، وربما : لا تخدعني ولا تعذبني ، فانا احبك واخشاك . او ان تلك الفكرة الطفولية في العينين السوداوين البراقتين كانت تجسيدا للحيرة : ما سبب هذا العذاب ، وانا بحاجة الى السعادة ؟ ! اجلس نزار الصبية في حضنه واخذ يمسد شعرها .

وسرعان ما غفت على ذراعيه مطمئنة تستثير الشفقة ، فقد ولدت من اجل السعادة والرعاية .
 حل المساء . وحال الظلام دون مواصلة السير . حش نزار اعشابا عمل منها فراشا لينا دافئا يحمي الصبية من برد الليل ، ووضع البنت عليه ورقد جنب هذا الانسان الصغير يغطيه ويدفئه . الحياة ممكنة دوما والسعادة يسيرة المنال في الحال .
 رقد شاغاتاياف دون ان يغمض له جفن . فلو غفا لتكشف جسد ايديم العارى ولتجمدت من البرد . ملأ الليل البهيم الطويل كل ما في السماء والارض — من اصول الاعشاب حتى نهاية العالم . اختفت الشمس وحدها ، لكن كل النجوم تفتحت ولاح درب التبانة مهشما متمللا وكأن حملة ما مرت به دون رجعة قبل حين .

٧

انار ضوء الفجر ايديم ونزار النائمين على العشب . كان نزار قد دس يده تحت رأس الصبية كي تنام برفق دون ان تبتل ، وحجب عينيه بيده الاخرى تخلصا من الصباح . جلست عجوز مجهولة قرب النائمين وراحت تتطلع اليهما مذهولة . لمست بالكاد شعر نزار وفمه ويديه وتشممت ثيابه وتلفتت حوالها خشية ان يشوش عليها احد . ثم سحبت يد نزار بحذر من تحت رأس الصبية كيلا يهتم باحد ولا يحب احدا الآن فيبقى معها وحدها . احلودب ظهرها من زمان والى الابد ، وعندما كانت تفحص شيئا يكاد وجهها يلامس الارض

وكانها عمياء تبحث عما فقدته . تفحصت كل ما يرتديه نزار وتلمست يديها السيور والاشرطة على البنطال والجزمة ودعكت في راحتها قماش قمصته وبللت اصبعها بلعابها ومسحت الغبار عن حاجبيه الاسودين . ثم هدأ روعها فرقدت ورأسها عند قدميه سعيدة منهوكة وكانها عاشت حتى آخر العمر ولم يبق لديها ما تفعله ، وكأنما وجدت سلوتها الاخيرة في هذه الجزمة المتهثرة من الداخل بسبب العرق والملوثة بغبار الصحراء واقدار المستنقعات . غفت العجوز غفوة خفيفة او لعلها غطت في نوم عميق ، لكنها سرعان ما نهضت من جديد . وكان نزار وايديم لا يزالان نائمين . فالاطفال ينامون طويلا ، وحتى الشمس والقراشات والاطيار لا توقظهم .

— صح النوم . عجل ! — قالت العجوز وهي تحتضن نزار بكلتا يديها .

فتح عينيه . فانهاالت العجوز بالقبل على رقبته وصدره من خلال الثياب و على يده ، ووجهها يزحف على بدنه ويتفحص كل شاردة وواردة فيه ، وكأنها تريد ان تتأكد مما اذا كانت كل اجزائه سليمة وما اذا مرض جزء منها وفقد اثناء الفراق .

— لا داعي لذلك ، فأنت امي . — قال نزار .
 نهض امامها ، لكنها كانت محدودة الظهر لدرجة حالت دون رؤية وجهه ، فسحبته الى اسفل من يديه فانحنى وجلس قبالتها . كانت جولشتاي ترتعش من الشيوخوخة او من حبها لابنها ، لكنها لم تستطع ان تقول له شيئا . كانت تتلمس بدنه بيديها وتتحسس سعادتها مرتعبة متشككة تخشى عليها ان تتبدد .

وتطلع نزار في عيني امه ، فهما الآن باهتان غير

متعودتين عليه ، ولا نومض فيهما قوتها القاتمة للراحة السابقة . وقد غدا وجهها النحيل الصغير متوحشا حقودا من الحزن المتواصل ، او من جهد الحفاظ على الحياة عندما تنتفى ضرورة الحياة ويتنفى هدفها وعندما يتوجب عليها هي ان تتذكر قلبها كي ينبض وترغمه على العمل . والا فهى تتعرض للموت كل لحظة غير منتبهة لواقع حياتها وناسية بانها تعيش وان عليها ان تسعى لاشتهاء شىء ما ولا تقرأ على نفسها السلام .

عانق نزار امه . وقد غدت خفيفة شفاقة كبنت صغيرة . ينبغي لها ان تعيش الحياة من البداية كالطفل ، لانها انفقت كل قواها على الصبر ومكافحة العذاب الدائم ، ولم تكن لديها ابداء بقية من القلب خالية من المصائب لكي تشعر بنعمة وجودها ، ولم يتسن لها الوقت كي تتفهم نفسها وتتعود عليها ، فقد داهمتها الشيخوخة والنهاية .

— اين تقيمين ؟ — سألها نزار .
— هناك — اشارت جولشتاي بيدها .

رافقته عبر اعشاب قصيرة ، عبر قصب متباعد ، حتى بلغا قرية صغيرة في فسحة بين احراش القصب . ورأى شاغانايف اكواخ القصب وعدة صرائف وسقائف مضمورة من شرائح القصب ايضا . كان عدد المنازل عشرين او يزيد . ولم ير نزار في هذه القرية كلبا او حمارا او جملا وحتى الدواجن لا تسير طليقة على الاعشاب .

قرب الصريفة التي في الطرف جلس رجل عار يتدلى جلده غصونا وطيأت كتياب بالية متعبة . وفي حوضه قصبات يقلبها ويختار منها ما يصلح لصنع الادوات المتزلية او الحلبي .

لم يدهش الرجل لمجىء شاغانايف ولم يرد حتى على التحية . كان يتمتع مع نفسه ويتصور ما لا يراه الآخرون ويلهى فؤاده بسلوى ذاتية خفية .
وسأل نزار امه :

— كل شعبنا يقيم هنا ام يوجد آخرون ؟
— نسيت يا نزار ، لا ادري — اجابته جولشتاي وهي تجر جر قدميها خلفه بجهد ورأسها يتدلى كعبء ثقیل . — كان هناك اشخاص آخرون ، عشرة اشخاص يعيشون بين القصب القريب من ساحل البحر ، كانوا يعيشون في السابق وقد حان الوقت لوفاتهم ، لعلهم ماتوا ، فلا احد يأتي الينا .
وانتهت الصرائف والاكواخ . وبدأ القصب من ورائها .
توقف نزار . فهنا تجمع كل شىء : الام والموطن والطفولة والمستقبل . اضواء الضحى تنير هذا المكان : القصب اخضر باهت والصرائف رمادية بنية بالية في فسحة مكسوة باعشاب قصيرة متباعدة والسماء من فوق مغمورة بنور الشمس ومشبعة بابخرة المستنقعات الندية وبغبار الواحات الجافة الاصفر وهي تضطرب لرياح عالية لا يسمع لها دوى . انها سماء عكرة معذبة حتى لكأن الطبيعة ، هي ايضا ، مجرد قوة كثيفة بائسة .

تلقت نزار حواليه وابتمس لكل اطراف الطبيعة المملة دون ان يعرف ماذا يفعل . وفوق مجاهل القصب ، في الافق القضي لاح سراب منجمد لعله بحر او بحيرة تعوم فيها السفن ، ولاحت اعمدة لماعة بيضاء لمدينة بعيدة على الشاطئ .
وقفت الام صامتة قرب ابنها ويدنها منحني الى اسفل .
كانت تعيش في صريفة على الطين بلا زوج ولا اقرباء .

على الارض داخل منزلها حصيرتان من القصب ، تنام على احدهما وتلتحف بالآخرى . ولديها ايضا قدر من الحديد الزهر للطعام وابريق من الفخار . وعلى العارضة يتدلى حجاب فتوتها والخرقه التي لفت بها نزار عندما كان رضيعا . توفي كوشمات قبل ستة اعوام تقريبا ولم يخلف غير نصف سروال (فالنصف الثاني استهلكته جولشتاي في ترقيع تنورتها) وليفة كان كوشمات يمسح بها العرق والافذار من بدنه عندما يذهب احيانا الى الواحات للعمل هناك .

كانت ام نزار تعيش هنا وحيدة ، وقد دهشت لان نزار لا يزال حيا ، لكنها لم تدهش لعودته . وهي لا تعرف بوجود حياة اخرى في هذا العالم غير حياتها ، وتعتبر كل ما على وجه البسيطة متماثلا متشابها .

ذهب نزار لاحضار الصبية ايديم . يقظها من النوم وجاء بها الى صريفة امه . ومضت جولشتاي لتتزع جذور الاعشاب وتضطاد السميكات بسلة من القصب في الغدران وتبحث عن اعشاش الطيور بين الحشائش لتجمع البيض او القراخ لاعداد الطعام ، وعلى العموم كانت قد توجهت لتستجدي من الطبيعة ما يصلح لادامة الوجود . عادت قبيل المساء وطفقت تعد الغداء من الاعشاب وجذور القصب والسميكات . لم تعد تهتم بوجود ابنها قربها ولم تتطلع اليه اطلاقا ولم تتلفظ بآية كلمة ، وكأن مداركها ومشاعرها غارقة في تأملات عميقة متواصلة تستنفد كل قواها . لقد تلاشى الاحساس البشري القصير بالفرحة لابنها الحي الذي كبر ، وربما لم يكن ذلك الاحساس موجودا على العموم ، وكل ما كان هو الاستغراب من هذا اللقاء النادر .

ولم تسأل جولشتاي من نزار حتى عما اذا كان جائعا ام لا ، ولم تسأله عما ينوي القيام به في موطنه ، في قرية القصب .

تطلع اليها نزار ورأى كيف تتحرك في عملها المعتاد ، وخيل اليه انها نائمة في الحقيقة وتتحرك في احلامها وليس في واقع الحال . كان لون عينيها شاحبا خائرا حتى لم تبق فيهما قوة للبصر ، وليس فيهما اي تعبير كما في عيني نزاريتين صامتين . وتدل قدماهما الكبيرتان المتحشفتان على انها عاشت كل هذه المدة حافية ، وثوبها مجرد تنورة قائمة تمتد حتى الرقبة بشكل زبون ومربعة بمختلف الخرق بل وحتى قطع اللباد التي خيطت الى اذيالها . لمس نزار ثوب امه . كانت ترتديه على عريها ، بلا قميص . ولم تعد من زمان تشعر بالبرد في الليل او في الشتاء ، كما لا تعاني من الحر ، لقد تعودت على كل شيء .

نادى نزار امه ، فانتبهت اليه وفهمته . واخذ يساعدها في اشعال النار في الوجاق الذي حفر بشكل كهف صغير تحت جدار القصب المائل . وكانت ايديم تنظر الى الغريبين بعينين سوداوين طاهرتين محتفظتين بالقوة البراقة لطفولتها ووجلها الذي هو الكآبة ، لانها طفلة تنشد السعادة وليس الجلوس في عتمة الصريفة والتفكير فيما اذا كانوا سيعطونها طعاما ام لا . وتذكر نزار اين رأى مثل هاتين العينين ، ولكن بقدر اكبر من الحيوية والمرح والحب . كلا ، ليس في هذه الانحاء ، وتلك المرأة لم تكن تركمانية او قرغيزية . لقد نسيته من زمان ، وهو ايضا لا يتذكر اسمها ، ولا يمكنها ان تتصور مكان وجود شاعاتايف وماذا يفعل الان : موسكو بعيدة ،

وهو هنا وحيد تقريبا يحيط به القصب والاهوار واكواخ واهية
من اعشاب ميتة . شعر بالحنين الى موسكو وإلى الكثير من
الرفاق ، الى فيرا وكسينيا ، واراد ان يستقل حافلة الترام في
المساء ليحل ضيفا على بعض الاصدقاء . لكن شاغاتايف
فهم حاله بسرعة . وقال بصوت مسموع : « كلا ، موسكو
موجودة هنا ايضا ! » ، وابتمس وهو يتطلع في عيني ايديم .
فشعرت بالخجل ولم تعد تنظر اليه .

طبخت الام لنفسها طعاما خفيفا في القدر الحديدي
واكلته عن آخره ثم مسحت القدر باصابعها من الداخل ولحستها
كي تشبع . تابعتها ايديم باهتمام ، تابعتها كيف تأكل وكيف
يسر الطعام الى الداخل قرب عروق حنجرتها الهزيلة ، لكنها
كانت تتطلع اليها بدون فهم او حسد ، كانت تتطلع بالدهشة
وحدها وبشعور من العطف على العجوز التي تلتهم الاعشاب
مع الماء الساخن . غفت جولشتاي بعد الطعام على تكية
قصب مخسوفة ، وفي تلك الاثناء حل المساء وتبعه الليل .

٨

انقضى اليوم الاول من حياة نزار شاغاتايف في موطنه .
في البداية اشرقت الشمس وكان يمكن الامل في شيء ، اما
الآن فقد احلولكت السماء وظهرت في البعيد نجمة باهتة
ضئيلة .

وصار الجو رطبا كالحا . ولاذ الشعب بالصمت في
بلد القصب ، فلم يسمع شاغاتايف له صوتا . جمع
اعشابا في اقرب فسحة وعمل منها فراشا في صريفة امه

وضع ايديم في مكان دافئ لئلا ينام هي الاخرى .
ثم خرج لوحده ، وصل الى رافد خال لا يكاد الماء
يجرى فيه من روافد اموداريا ثم عاد . خيم ظلام الليل العميق
على هذا البلد وكانت نباتات القصب القصيرة الفتية تتململ في
اسفل النباتات الشائخة ، كما يتململ الاطفال اثناء النوم .
تتصور البشرية ان الصحراء خالية قفراء ، لا شيء غير الراعي
الحزين يراوده النعاس في ظلام البقاع الوحشية المملة ، وامامه
يربض وادي القصب القذر الذي قامت فيه ذات مرة كارثة
بشرية ، لكن تلك الكارثة انتهت وانقرض المعذبون . ان
الحقيقة غير ذلك . فهنا ، في اموداريا وفي وادي القصب ،
عالم عسير كامل مشغول بمصيره .

انصت شاغاتايف . كان احدهم يتكلم عن قرب بلهجة
سريعة ساخرة ، ولكن دون جواب . اقترب نزار من صريفة
قصب . فتهدأت الى مسامعه انفاس اناس نيام يتقلبون في
مضاجعهم مضطربين .

وجاء صوت شيخ ناعس :

— ارفع الوبر من الارض وضعه في عبي ، اجمعه
بسرعة ما دامت الجمال تبدل وبرها . . .

مال شاغاتايف على جدار القصب . كان الشيخ يهذي
هامسا فلا تسمع كلماته بوضوح . لقد رأى في المنام حياة
ما ونشاطا ابديا ، واخذ هذيانه يخفت وكأنه يتعد .

— دوردي يا دوردي ! — تعالى صوت امرأة . تتململت
فانبعث صرير من الحصيرة تحتها . — دوردي ، لا تهرب
مني ، فقد تعبت ولن الحق بك . . . قف ، لا تعذبني ،
سكينى حادة ، سأذبحك بسرعة فلا تمناع .

وخيم الصمت من جديد فناموا وادعين .
— دوردي ! — قال شاغاتايف بصوت خافت من خارج
الصريفة .
— ماذا ؟ — اجاب من الداخل صوت الشيخ الذي
كان يهذي .
— هل انت نائم ؟ — سأل شاغاتايف .

— نعم — اجاب دوردي .
تذكر نزار دوردي هذا في غمرة طفولته . كان هناك
في ذلك الزمان رجل نحيل من قبيلة الايوموديين يترحل مع
زوجته وريقتات على السلاحف . ويردد على وادي القصب
حين يتتابه الملل ، فكان يجلس صامتا بين الناس يستمع
الى احاديثهم ويبتسم مرتاحا لفرحة خفية تكتنفه من تلك
اللقاءات . ثم يذهب من جديد الى البادية ليصيد السلاحف
ويشغل باله بالتأمل والتفكير . وكانت المرأة الوحيدة (خيل
لنزار آنذاك انها عجوز ايضا) تسير في اثر زوجها وتحمل على
ظهرها كل ممتلكات الاسرة . وكان نزار الصغير يرافقهما حتى
البادية ويشيعهما بنظراته امدا طويلا حتى يختفيا في الضوء
اللامع ويتحولوا الى رأسين سابحين بلا بدنين ، ثم الى زورق ،
وطير ، فسراب .

وعلى مقربة من تلك صريفة اخرى من القصب بشكل
خيمة دائرية . وأقعى جنبها كلب صغير . دهش نزار عندما
رأى الكلب لانه لم يشهد اية حيوانات أليفة هنا . تطلع
الكلب الاسود الى نزار وفتح فمه واغلقه مرارا لينبث منه نباح
غاضب ، ولكن دون جدوى فنباحه بلا صوت . وكان في
الوقت ذاته يرفع قائمته الامامية اليمنى تارة واليسرى تارة اخرى

ليستثير في نفسه الهياج ويهجم على الغريب ، لكنه لا
يستطيع . انحنى شاغاتايف على الكلب فاخطف هذا الاخير
يده بفكيه ، ودعكها بلثتيه الخاليتين ، فليس فيهما ولا ناب
واحد . لمس نزار الكلب من اضلاعه فوجد قلبه الضئيل
القاسي ينبض بشدة ، ولمعت في عيني الكلب دموع اليأس
والقنوط .

وفي الصريفة الدائرية كان شخص يضحك بصوت وادع
مطمئن . رفع نزار الستارة المعلقة بجريد ودخل الصريفة .
الجو هادئ خائق ، ولا شيء يرى هناك . انحنى نزار وزحف
الى الامام باحثا عن يقيم في هذا المكان . ارقه الهواء
الساخن الثقيل فراح يبحث بيدين واهنتين عن الشخص المجهول
الى ان وقعت يده على وجه انكمش وتقلص في الحال من
لمس اصابع نزار ، وانبعث من فم المجهول سيل دافئ
من الكلمات ، كل كلمة منها مفهومة على حدة ، لكن
العبارات المركبة منها ليس لها معنى اطلاقا . استمع نزار الى
هذا الانسان مندهشاً وهو يمسك وجهه بين يديه ويحاول ان
يفهم ما يقول ، ولكن دون جدوى . كف الجالس في
الصريفة الدائرية عن الكلام واطلق ضحكات قصيرة كأنسان
عاقل ثم عاد الى الكلام من جديد . وخيل لنزار انه يضحك
من كلامه ومن عقله الذي يفكر الآن بشيء ، لكن ما يفكر
به ليس له اي معنى . ثم ادرك نزار حقيقة الامر وابتسم هو
ايضا ، فالكلمات غدت غير مفهومة لانه لم يكن فيها الا
الاصوات ، فهي لا تحتوي على اهتمامات او مشاعر او
حماسة وكأن هذا الانسان شبح بلا قلب يبعث نامة تدل عليه .
— خذ تعال اذهب الى اوست — اورت وارفع شيئا

واحمله لى ساضعه فى صدري — قال الرجل ثم قهقه من جديد .

كان عقله لا يزال حيا ، ولعله يضحك فى دماغه مرتعا لا يفهم ان القلب ينبض والانفاس تتردد ، ولكن ليست هناك رغبة فى شىء ولا اهتمام بشىء ، حتى الوحدة المطبقة وظلام الليل فى الصريفة والشخص الغريب — كل ذلك لا يحرك ساكنا فيه ولا يستثير الخوف او الفضول عنده . تلمس شاغاتايف هذا الانسان من وجهه ويده وبدنه وكان يوسعه حتى ان يقتله لكن ذاك ظل كالسابق يتلفظ الكلمات ولا يفعل او يضطرب ، وكأنه غريب على نفسه وحياته .

وفى الخارج كان نفس الليل . عندما انصرف شاغاتايف اراد ان يعود ويأخذ معه ذلك الشخص المتمتم ، ولكن الى اين يأخذه اذا كان قد تعذب حتى صار بحاجة الى النسيان وليس الى العون ؟ التفت فرأى الكلب الاخرس يسير خلفه . وفى صرائف القصب غط الناس فى النوم والاحلام . والريح الخفيفة تبعث الرجفة احيانا فى قمم القصب وتنداح تلك الرجفة من هنا حتى بحيرة آرال . وفى الصريفة القريبة من الصريفة التى تنام فيها ام نزار وايديم كان شخص ما يتكلم بصوت خافت . دخل الكلب الصريفة وخرج منها ، ثم ركض عائدا الى ملجأه خشية ان يضيع او ينسى صاحبه ومنزله . عاد نزار الى امه ووقد جنب ايديم دون ان يخلع ثيابه . كانت الصبية تنفس فى النوم ببطء وعلى نحو غير ملحوظ تقريبا ، حتى خاف ان تنسى التقاط النفس فتموت . وقد شاغاتايف على الارض مباشرة وسمع من خلال النوم متممة شعبه الناعسة تنساب فى قاع الارض الصامت ، وفرقة الاعشاب

الحمضية والقلوية التى تهضمها المعد بعسر شديد . وفى كوخ عشى مجاور كان زوج يتحدث مع زوجته . كان يريد طفلا ، وربما سيفلح الآن فى التلقيح .

لكن الزوجة تجيبه :
— كلا ، نقطة ضعف واحدة فينا نحن الاثنين . منذ عشر سنوات نحاول دون جدوى ، وانا خاوية دوما كالميتة . . .
و صمت الزوج ثم قال :
— طيب ، فلنفعل شيئا ما معا ، ليس عندنا ما يفرح القلب .

— ما العمل ؟ — اجابته الزوجة — ليس عندى ما البسه ، وانت ايضا ، فكيف سنقضى الشتاء ؟ !
— عندما ننام نتدفا — اجابها الزوج — فما الذى نفعله فى فقرنا ؟ لم يبق غيرك ، وانا انظر اليك عفويا واحبك ! . .
— لم يبق شىء — وافقته المرأة . — ليست عندنا اية حاجيات . وقد فكرت واطلت التفكير وفهمت بانى احبك .
— وانا احبك ايضا — قال الزوج — والا فلا يمكن العيش . . .

— لا ارنخص من الزوجة — اجابته المرأة . — اى ملك لديك ، ونحن فى هذا الفقر ، سوى جسدى ؟
— نعم ، لا ملك لدى — وافقها الزوج — الحمد لله ان الزوجة تولد وتكبر بنفسها ولا احد يصنعها خصيصا : عندك نهدان وبطن وشفتان ، وعيناك تريان . وهذا كثير . انا افكر فيك وانت تفكرين فى ، والوقت ينقضى . . .
ولاذا بالصمت . نظف شاغاتايف اذنيه مما تجمع فيهما واخذ ينصت متوقعا ان تبلغه كلمات اخرى من مضجع الزوجين .

وقالت الزوجة :

— انا وانت حاجيات رديئة . فانت نجيل ضعيف ،
وانا جف نهداى وعظامى تؤلمنى من الداخل . . .
— سأحب بقاياك — اجابها الزوج .
ولاذا بالصمت نهائيا . ربما تعانقا ليمسكا بايديهما
سعادتهما الوحيدة .
تمتم شاغاتايف وابتم ثم غفا راضيا لان السعادة موجودة
لدى اثنين من ابناء وطنه وان كانت شحيحة .

٩

فى الصباح لم تلتفت جولشتاى الى ابنها ولا الى الصبية
التي احضرها معه . فقد استنفدت قوى فؤادها الذكريات التي
انهالت عليها حينما رآته وهو نائم على العشب قرب الدرب ومعه
ايديم . اما الآن فهي تعيش حياتها لا غير . وليس فسى
الصريفة ما يمكن ان تشغل به ، ومع ذلك انهمكت امداء
طويلا فى تعديل عيدان القصب على الجدران المائلة ،
وجمعت القش من الارض قشة قشة ، ونظفت القدر من
الداخل ونفضت الحصىرة وطوتها . فعلت ذلك كله بمتتهى
الحرص والعناية كى تحافظ على ما فى صريفتها من حاجيات ،
لأنها صلتها الوحيدة بالحياة وبالآخرين . وعدا ذلك لا
بد للانسان من ان يفكر بشيء ما طوال الوقت . وهى ايضا
تصورت شيئا ، على ما يبدو ، عندما كانت منهمكة بمشاغلها
الضئيلة التي لا نفع منها تقريبا . وهى لا تجيد التفكير دون
عمل . فالحاجيات والصريفة ، عندما رتبتهما ، منحتهما الذكريات

وملأت قلبها الضعيف الخاوي باحاساس الحياة .
طلبت من ابنها ان يعطيها شيئا . طلبت بوجل ، بدون
امل ولا جشع ، طلبت لمجرد ان تكثر حاجياتها ويزداد
انشغالها اليومي بها ، فالعمر عندئذ يمضى بصورة افضل .
وفهم نزار امه بالشكل الصحيح فاعطاها مشمعه وقراب المسدس
بعد ان دس المسدس نفسه فى جيب بنطاله ، واعطاها
دفتره واربعين روبلا وطلب منها بالمناسبة ان تطعم ايديم .
الا ان الصبية سبقتهم ومضت بنفسها لتجمع الاعشاب طعاما ،
وظلت جولشتاى فى الصريفة . وسألها نزار :

— هل تعرفين الملا شيركيزوف ؟

— انا اعرف الجميع — قالت الام .

— اذهى اليه وعيشى عنده ، فهذا افضل لك . فهو
ضربير وسيحرص عليك الى ان يموت .

اطرقت العجوز المحدودة الظهر ، فهي لا تدري ما
حاجة الملا اليها ، اذا كان قلبها من زمان ينبض بحكم العادة
وليس بدافع من العواطف ، واذا كانت الحياة بالنسبة لها
تكاد تمحى . لكنها ذهبت دون ان تأخذ معها شيئا من
مأواها ، ما عدا الحاجيات التي استلمتها من ابنها ، وحتى
هذه الحاجيات اخذتها لمجرد انها كانت بين يديها . واتضح
انها لا تحب حاجياتها المنزلية ايضا ، لان قواها البشرية
الروحية لم تكن كافية للجشع .

وظل شاغاتايف يعيش مع ايديم ، فهو يريد لقلب
امه ان يتدفأ فى حياة عائلية مع الملا شيركيزوف . وبدأت
ايديم فى الحال تمارس شؤون المنزل وتجمع الاعشاب وتطبخها
وتصيد السمك وتعد طعام الغداء . ذات مرة مضت بعيدا عبر

الروافد والاهوار حتى بلغت حرش الساكساول واحضرت خطبا لفصل الشتاء . ثم مضى نزار بنفسه الى ذلك الحرش البعيد وجلب الحطب ومنع الصبية من الذهاب الى هناك منعاً باتاً وسمح لها فقط باشعال نار خفيفة في الوجاق واعداد الحساء مرة واحدة في اليوم . ولكن سرعان ما تعين عليه ان يمارس كل الشؤون المنزلية لوحده ، فقد مرضت ايديهم واشتدت عليها الحمى وتصبب العرق منها . غطاها نزار بالعشب ليقبها من القشعريرة ومسح عينيها المحتقتتين وسقاها حساء عشيباً مخففاً ، لكن الصبية لم تكن تقاوم المرض . اشتد هزالها واستسلمت للوصم وتيممت صوب الموت . كانت عيناها تنظران الى نزار بلا وعى ، وما كانت تستطيع التفكير بشيء يخفف حالتها . جلس نزار قربها اياماً طويلة خالية يحنو عليها ويحميها من الأمسى والرعب .

وفي الاكواخ والصرائف الاخرى رقد مرضى آخرون هزالي خاثرون . احصى شاغاتايف ابناء شعب الجان فوجدهم سبعة واربعين شخصاً ، والمرضى منهم عشرون . كانت بين ابناء الشعب احدى عشرة امرأة وثلاثة اطفال لا يتجاوزون الثانية عشرة من العمر ، ومنهم ايديم . كان الموت يختطف النساء قبل غيرهن ، فهن يكدحن اكثر من الجميع ، واللواتي يبقين على قيد الحياة نادراً ما يلدن . كن راغبات في الاطفال ، رغم توتر البقية الباقية من قواهن الخائرة كن راغبات فيهم اكثر من رغبة الامهات في البلدان الغنية البعيدة ، وعندما يولد الاطفال احياناً يتلقون تركة والديهم من بصيلات القصب والعيش المرير في العراء .

اثناء مرض ايديم جاء الى نزار ممثل اللجنة التنفيذية في

الناحية نورمحمد . اخبره نزار بانه موفد الى هنا لمساعدة شعبه الذي يجب ان يتمتع بالسعادة ويتقدم الى الامام ويتكاثر . واجاب نور محمد ان قلب الشعب تكلس في الفاقة وذهنه تبلد ، ولم يبق لديه ما يتذوق به سعادته . الافضل ان يترك هذا الشعب وشأنه ، وينساه الى الابد او يقوده الى البادية او السهوب او الجبال ليهيم ويضيع هناك ، فيعتبر شعباً لا وجود له .

تطلع نزار الى نورمحمد شيئاً فشيئاً . كان شائخاً طويلاً القامة ، عيناه تبصان من جفون متلاصقة وكأنهما تشقان ستار الم دائم . كان في رداء اوزبكي وعلى رأسه طاقية مربعة ، ويتعل شنبها من اللباد . انه الشخص الوحيد الذي حافظ على هذا اللباس بين ابناء الشعب . والسبب في ذلك ان نورمحمد لم يكن من ابناء الجان ، فقد اوفد اليهم قبل ستة اشهر وظل ينظر الى الناس بعينين غريبتين .

— ماذا فعلت هنا في نصف عام ؟ — سألته نزار .
— لا شيء — اجابه نورمحمد . — فانا لا احب الموتى .
— فماذا تنتظر اذن ؟ ما نفع بقائك هنا ؟
— عندما جئت كان عددهم مائة وعشرة اشخاص . وهم الآن اقل . انا احفر القبور للموتى ، فلا يجوز تركهم في المستنقعات لان ذلك ينشر العدوى ، ولذا انقل الموتى الى الرمال البعيدة . ساظل ادفنهم حتى يموت آخرهم ، وعند ذاك سأذهب واقول اننى اديت واجبى . . .
— الشعب نفسه سيدفن اقرباءه ، ولا حاجة به اليك .
— كلا ، لن يدفنهم ، انا اعرف ذلك .
— لماذا ؟

— الموتى يجب ان يدفنوا من قبل الاحياء ، ولا احياء هنا ، كل الموجودين يحتضرون ، ينتظرون ساعتهم فى المنام . ولن تتمكن من منحهم السعادة فهم لا يعرفون الآن حتى مصيبتهم ، ولم يعودوا يشعرون بالعذاب ، لقد تلوعوا حتى تعودوا عليه .

— فما الذى يجب ان نفعله نحن الاثنين ؟ — سأله نزار .

— لا شىء — اجاب نورمحمد — لا يمكن تعذيب الانسان لامد طويل ، بينما كان امراء حيوى يعتقدون بان ذلك ممكن . انه يهلك من العذاب الطويل ، ينبغى تعذيبه قليلا قليلا ومنحه امكانية اللعب ، حتى يمكن تعذيبه من جديد . . .

— لن احضر لهم قبورا — قال نزار — انا لا اعرف من انت : انت غريب ، والافضل ان ترتحل من هنا ، اذهب واتركنا لحالنا .

لمس نورمحمد جبين ايديم النائمة ثم نهض :
— رأيي فى رأسي ورأيك فى رأسك . سأوارى هذه الصبية التراب قريبا . الى اللقاء .

مضى الى كوخه . لف نزار بدن ايديم بالعشب وبالحصيرة ونقلها على عجل الى امه والملا شيركيزوف كي يسقيها بين حين وآخر ويغطيها من برد الليل . ثم توجه فى الحال الى شيمهاى التى تبعد مسافة مائة او مائة وخمسين كيلومترا . سار عبر مجارى الانهار الناشفة ، والروافد والقصب ، عبر مجاهل النباتات المختلطة — سار بقية يومه والليل ويوما آخر . فتدمت قدماه وتهرأت ثيابه فى الطريق وهو يضل سبيله مثقلا باللحاجة

ونفاد الصبر حتى اختلطت عليه الامور فانكب على وجهه فى نعومة الطحالب بمكان ما . ثم استيقظ ورأى انقاضا كبيرة على مسافة قريبة ، فاقترب من الحيطان الطينية المهدمة القديمة . الشمس المرتفعة كدست السخونة تحتها ، وانبعث النعاس والنسيان وجنون الهواء الخائق من اساس تلك الحيطان الطينية الجافة الشائخة . دخل شاغاتايف الحصن من الثغرة التى فتحتها مياه الفيضانات فى الطوف المهدم . الجو هناك خائق لدرجة لا تطاق بسبب السكون المخيم على المكان . فقد تجمع حر السماء فى عرش واحد تحيطه حشائش كثيفة هائلة ذات سيقان دهنية سميقة ، لا احد هنا يقتات عليها فراحت تنمو وتكبر متمتعة بلذة الحياة . القى شاغاتايف نظرة حاقدة على هذه النباتات الدسمة وهو يبحث تحتها عن اعشاب صغيرة تصلح للاكل . عثر على عظام صغيرة مهشمة ، كسروها ليكون الحساء مركزا ، او قطعوها بالسيف مرارا ان كانت عظام انسان . وعلى مسافة ابعد رأى عدة عظام اخرى ونصف هيكل عظمي بشري مع الجمجمة . لقد مات هذا الانسان ووجهه الى الارض وقد تباعدت اضلاعه الى الجانبين وكأنها تنفس بعد الموت ، وانغرز طرف احد الاضلاع فى خوذة مدعوكة من خوذة جنود الجيش الاحمر علاها الصدا ونمت حوالها الآن اعشاب شاحبة . خلص نزار الخوذة من الضلع المغروز فيها ، وكان لا يزال عليها اثر النجمة الخماسية ، وعلى قماش الجبهة من الداخل كتابة بالقلم الكويا : «اراز غولومانوف» . هذا هو اسم الجندى الشهيد . نظف شاغاتايف الخوذة وارتماها ، ووضع طاقيته على جمجمة القتل . وعلى الطوف من داخل الحصن حفرت كلمات : «عاش انتصار الثورة !» ربما بسيف

غولومانوف او بسيف جندى آخر نثرت عظامه على الارض فى مكان ما . وكان السيف قد حفر تلك الكلمات على الطوف بعمق كبير كيلا تمحوها الايام والرياح والامطار ولا تغسل بقايا امل الاموات والاحياء . ولعل فصيلا من افراد الجيش الاحمر رابط هنا فى عام ١٩٣٠ او ١٩٣١ وقاتل ضد عصابات اعداء الثورة وضد قوات اصحاب العبيد فى حيوى وتركمانيا ، ولعل غولومانوف ظل مع رفاقه ، ورفاقه يتفتت هنا بهدوء وكأنه كان واثقا من ان بقية حياته سيعيشها الآخرون بهناء ونعيم مثلما لو عاشها هو . غطى نزار رفات غولومانوف بالعشب والتراب كيلا تبثر عظامه النسور او الوحوش ، ومضى فى سبيله الى شيمهاى . اشترى فى شيمهاى صندوقا للدوية مما يخصص للتعاونيات وحصل ، بمساعدة اللجنة الحزبية فى الناحية على بضع عشرات من جرعات مسحوق الكينين ، لكنه يعرف ان هذه الادوية لن تساعد كثيرا شعبه الذى يحتاج اكثر ما يحتاج الى حياة اخرى غير موجودة بعد ، حياة يمكن للمرء ان يتحملها دون ان يموت . وعرج على مكتب البريد على أمل ان يجد رسالة من موسكو ، فلا ضير فى السؤال هل هناك رسالة ام لا . فى داخل مكتب البريد علقت لافتات عليها رسوم الخطوط الجوية البعيدة ، وعلى الطاولات المنحدرة تحت الزجاج ، نماذج لكتابة العناوين البريدية الصحيحة الى موسكو ولينينغراد وتفليس ، وكان الاهالى المحليين يبعثون رسائلهم الى هذه العناوين فقط ويحنون الى هذه المدن الرائعة وحدها . راجع نزار شباك «حسب الطلب» فسلموه رسالة عادية من موسكو حولها الى هنا من طشقند العاملون الحريصون فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى اوزبكستان . وكانت الرسالة من

كسينيا : «نزار ايفانوفيتش شاغاتايف ! زوجتك ، ماما فيرا ، توفيت فى المستشفى السريرى الثانى بمدينة موسكو اثناء الولادة . الطفلة ولدت ميتة وقد رأيتها . فى المستشفى وضعوا الطفلة فى تابوت واحد مع ماما فيرا زوجتك ، ودفنوهما فى مقبرة فاغانكوفسكويه على مسافة غير بعيدة من قبر الكاتب باتوشكوف . ذهبت الى القبر مرتين ، وقفت هناك بعض الوقت وانصرفت . عندما تعود ساريك مكان القبر . ماما امرتنى بان اتذكرك واحبك ، وانا اتذكرك . مع تحيات المخلصة كسينيا» . اطلت فتاة تركمانية من شباك «حسب الطلب» وقالت : — تمهل ، وصلتك برقية ايضا ، قبل ستة ايام . وسلمته برقية من طشقند : «نعتذر قرأنا رسالة وفاة زوجتك لصعوبة الاتصال بك . نسمح لك بالسفر لمدة شهر الى موسكو والعودة بعد ذلك . مع تحيات اسفيندياروف شعبة التنظيم . تعاد الى المرسل فى طشقند اذا لم تسلم فى عشرين يوما» .

خبأ شاغاتايف الرسالة والبرقية واخذ صندوق الادوية وغادر مكتب البريد . شيمهاى مدينة صغيرة للغاية : الاحواش الصماء ومنازل الطوف لا تكاد ترى وسط فضاء خال فى عالم خواء . اشترى نزار ارغفة خبز الشعير من الخان وبعد خمس دقائق كان خارج المدينة ، سائرا على سبيله ، فى مهب الريح . الشمس مرتفعة تغمر الطريق بنور وفير ، ومع ذلك ما كان يوسع هذا النور ان يدفى فؤاد الانسان حتى يملأه بالسعادة . كف نزار عن التفكير وراح يحرق فى مختلف معالم الطريق — فى سيقان الاعشاب الميتة التى سقطت من عربة ما ، فى روث الحمير ، فى خف روسي بال تركه جوال

مجهول جاء من بعيد . كانت بقايا وآثار حياة ونشاط الغير تصرف شاغاتنايف عن افكاره وهمومه . واخيرا رأى سلحفاة صغيرة ذات رقبة منتفخة ممدودة واطراف مطروحة خائرة ، لم تعد تحمي نفسها تحت درعها : لقد ماتت هنا ، على حافة الطريق . رفعها شاغاتنايف وتفحصها . وتنحى بها جانبا ودفنها في الرمل . غدت هذه السلحفاة اقرب الى المرحومة فيرا منه ، فوقف نزار متحيرا . جلس على الارض بذهن متخدر لا يفهم بانه يعيش ويعمل من اجل هدف معين . كانت ظواهر الطبيعة العادية مضجرة غريبة عليه . لم يعد بحاجة الى اية لذة او تسلية ، فالقى باشمئزاز ارغفة الخبز التي تسخت في يده ، ثم صرخ كما في الطفولة عندما ابعده امه عن وادي القصب ، وراح يبحث بنظرانه ، في هذا المكان المجهول ، عمن يسمعه ويأتى اليه ، وكأن لكل انسان معاونا يجرى وراءه بلا كلل ولا ينتظر الا ساعة اليأس والقنوط لكي يمثل امامه . . . كان شيء ما يدوي باستمرار عن بعد ، في السكون ، كأنه آت من وراء ستار ميت ، في عالم قريب ، لكنه عالم آخر . ولم يكن لتلك الاصوات معنى او تحديد . انصت نزار . تذكر انه سمع هذه الاصوات في السابق ايضا ، لكنه لم يكن يفهمها اطلاقا ولا يعبرها اهتماما . وتكررت الاصوات . كانت تأتي متقطعة بفترات صمت موات تذلل مجالات الفراغ الخاوية وكأن سائلا يتساقط بقطررات متجمدة هائلة ، وكأن صورا يبعث نداءات قصيرة نادرة ويتعد اكثر فاكثر في الغابات الزرقاء او ان زمانا كونيا عميقا يمضي بلا رجعة ويحسب اشلاءه الميتة ، ولعل هذه الاصوات تنبعث من مكان اقرب بكثير—من داخل جسم نزار نفسه ، من

نبض فؤاده البطيء ، فتذكره بالحياة الرئيسية التي نسيها الآن وخنقها الالم في القلب المتقبض . . . نهض نزار واسرع نحو ديار شعبه . وفي المساء ألم به التعب فغفا دون ان يختئ في شق من شقوق الارض الدافئة ، وسمع طوال الليل دويا مبهما ولغطا واضطرابا وتحركا مقلقا للطبيعة الواثقة من افعالها ورسالتها . وفي الليلة التالية بلغ اطراف مجاهل القصب . كان قريبا من اهله وذويه . وفكر بان شعب الجان نائم الآن ، فلينس في النوم على الاقل لوعة الجوع والعذاب ، ولتستمر الليلة طويلا اذا كان عليه في الصباح ان يأخذ ولو فكرة واهية عن الواقع ، فكرة لا تتجاوز احلام النوم ، كيلا يموت . ولذا يخف قلق شاغاتنايف في الليل عادة ، فهو يفهم ان الحياة اسهل على النائم وان امه لا تتذكره الآن ولا تتذكر نفسها ، وان ايديهم الصغيرة راقدة تندفا بذاتها كالسعيدة التي لا تحتاج الى احد . سار الهويني وكأنه يتمشى ليرتاح . واجتاز اجمة واطئة من الساكسول وعبر رافدا ضحلا . وكان القمر الشاحب المتأخر ينير الماء الجاري الذي يكدح على الدوام دون تشجيع من احد . وخيم غبار يومض في ضوء القمر على طريق القوافل القديم الممتد بجوار حيوى الى بلاد الافغان او ابعد . وتعذر على نزار فهم مصدرالغبار . فهذا الطريق مهجور منذ مئات السنين ، وهو يمتد على رمال مضغوطة صلبة ، وفي موضع واحد فقط يمر بطبقة ترابية صفراء لعلها جافة الآن يتطاير منها غبار كثيف في اثر عابري السبيل . فالابل والحمير لا تثير مثل هذا الغبار ، لان غبارها يرتفع الى اعلى ويتكاثف في آخر القافلة . انحرف

نزار عن طريقه واتجه جنوبا عبر الاماكن الوعرة ليرى من الذى يسير هناك حيث لا يحتمل ان يسير احد . خاض طويلا فى اجمة القصب ، وهو يغوص فى الوحل ويزيح بيديه الشجيرات الشوكية النواحة ، حتى وصل الى كتيب ناشف نظيف تتلاعب به الرياح ، وربما ترقد فى قبر تحته مدينة اثرية منسية .

الطريق القديم يلتف حول هذا الكتيب من سفحه ثم يختفى فى عتمة الجنوب الشرقى ، صوب الصين وافغانستان . لم يصل عابرو السبيل المجهولون الى هنا بعد . فهم يسرون ببطء وهدوء ، فلا يسمع لهم صوت . ولعلمهم انحرفوا عن الطريق او عادوا ادراجهم ، او ربما ناموا على الارض . وتوجه شاغاتايف للقائهم . لم يكن يتوقع ان يرى ما يبعث السرور او يثير الدهشة . فهو يعرف ان الغبار فى ضوء القمر يمكن ان تثيره الوحوش التى تفر من المجاعة فى اعماق دلتا اموداريا وتوجه الى الواحات البعيدة ، الى المزارع التعاونية لتشبع هناك من لحوم الخراف .

لكن الذين يسرون صوب نزار بشر . انبطح جنب الطريق فرآهم جميعا . كان ممثل لجنة الناحية نورمحمد يقود الملا شيركيزوف الضربير من يده وخلفهما سارت ام نزار وقربها ايديم تنقل قدميها الصغيرتين . وخلفهم سائر الناس . بينهم الشيخ سفيان ونصير شاكى المتمتم وزوجته التى يحبها لانها الهبة الوحيدة فى حياته ، ثم يأتى دوردى وزوجته . ولا يزيد عددهم عن اربعة عشر شخصا ، وربما ثمانية عشر . اما الباقون فلم يستطيعوا ان يستبقظوا ، على ما يبدو ، او خارت قواهم ولم يعودوا راغبين فى المسير .

كانت جولشتاي تحمل بصيلات القصب ملفوفة فى مشمع ابنها لاجل الطعام . وتجر ايديم على الارض طرف ساق من حزمة اعشاب تصلح للاكل . وعلى رأس نصير شاكى صرة كبيرة من البطانيات . وامسك الملا شيركيزوف بيده اليسرى نورمحمد وراح يبحث بيده اليمنى عن شىء ما فى الهواء . عيون الجميع مغمضة ، كانوا يسرون شبه نائمين ، وبعضهم يهمس او يتمتم مع نفسه ، فقد تعودوا على العيش فى الخيال . نورمحمد هو الشخص الوحيد الذى ينظر بعينين مفتحتين الى الامام متفهما العالم كله بوضوح . كان صامتا يدخن عشبة ملفوفة فى عود يابس من قصب الاهوار . مضى نزار الى نورمحمد وسأله : الى اين تقود هؤلاء الناس ؟

سلم نورمحمد على نزار واجاب :
— اى ناس ؟ لقد تبخرت ارواحهم من زمان ، ولا فرق عندهم ان كانوا يعيشون ام لا .
وواصل سيره . وسار نزار جنبه . وابتسم نورمحمد مع نفسه وتطلع الى جانب : فالطبيعة حتى فى الظلام بدت له بائسة بغیضة ، وخلفه يسير اناس لا وجود لهم تقريبا .
الطريق يطوق الكتيب غير العالى الذى كان عليه نزار قبل قليل . تطلع نزار بخاطرة جديدة الى هذه التلة الترابية التى يرقد تحتها ايضا شعب صغير اختلطت عظامه وفقد اسمه وبدنه كيلا يثير انتباه المستبدین . العمل العبودى والارهاق والاستغلال لا تستولى على القوة البدنية وحدها او الیدين وحدهما ، كلا ، فهى تنخر العقل والقلب ايضا ، والروح هى اول ما يتفتت ، ثم يتفسخ الجسد ، وعند ذلك يخنى

الانسان في الموت ويلتجئ الى باطن الارض كما يلتجئ الى قلعة او مخبأ دون ان يفهم بانه عاش بعروق خاوية منصرفا عن هموم حياته ناسيا اياها ، وبدماغ تعود على الايمان فقط وعلى رؤية الاحلام وتصور الخيال البعيد عن الواقع . فهل يعقل ان شعب الجان سيرقد قريبا في مكان ما وستهيل الريح عليه التراب وتنساه الذاكرة لان الوقت لم يتسن له كي يبنى شيئا من الحجر او الحديد وينتدع الجمال الخالد ، بل اكتفى بحفر الترع ، لكن التيار كان يطمئها من جديد فيحفر الشعب الطمي ثانية ويلقي بالطين خارج الماء العكر ليرسب منه فيما بعد طمي جديد يغطي جهده مرة اخرى دون ان يترك له اثرا ؟

— اين الباقون ؟ نائمون ؟ — سأل شاغاتايف من نورمحمد .

— كلا . تخلفوا ، لكنهم يسرون في اثرا ، سيصلون فيما بعد .

كانت ايديهم تسير على مقربة من السائرين في المقدمة ، فسقطت غافية وظلت على الطريق . سمع نزار وقع سقوطها فالتفت ، ورأى خلفها شخصين نائمين على الارض .

— دعهم ! — قال له نورمحمد . — سينهضون فيما بعد ويلحقون بنا .

لكن نزار حمل ايديهم على يديه وسار بها . كانت نائمة دون ان ترتعش من القشعريرة ، فلربما زابلها المرض . ورغم الطعام العشي والمرض لم يصب جسدها بالهزال . كان يتشرب بكل نافع حتى من شرائح القصب اليابسة ، وكان مكيفا لحياة طويلة سعيدة .

— الى اين تقودهم ؟ — سأل نزار من نورمحمد .
— الى وادي القصب ، موطنهم الذي عاشوا فيه سابقا — اجابه نورمحمد .

— لماذا ؟
— كي يتحركوا . . . انا اقودهم في الطريق الاطول ، حول الاهوار . من يسر تسهل الامور عليه .
— والمرضى ؟ — سأل نزار .

— المرضى يسرون ايضا ، ولكن على مهل . فالمشي يشفيهم . تركنا المستنقعات ، وستتهي الحمى .

لم يصدق نزار بحسن نوايا نورمحمد فهو لا يعرف هل يشعر المرضى بالنقاها اذا كانت عقولهم قد نسيت همومها من زمان وتعودت قلوبهم على الأسى . وللسبب نفسه تحملوا المرض والآلام بصمت وبلا احساس وكأن ذلك لا يعينهم . تخلف شاغاتايف عن نورمحمد ليلقي نظرة على امه . وكانت ايديهم نائمة بهدوء على يديه . فتحت جولشتاي عينيها عندما اقترب منها نزار ، لكنها لم تقل له شيئا . وكان الملا الضرب ممسكا بيدها ، ضعيفا وادعا . ألقت الام نظرة لابالية على ابنها الذي تعرفه ولا تتذكره اذا لم تكن تراه عن قرب . وظل نزار يتطلع الى امه فاشاحت بنظرتها عنه لانها شعرت بالخجل من العيش امامه ضعيفة تعيسة . كانت تتوق الى حبه بقوتها السابقة المنسية ، لكنها الآن لا تستطيع ، قلبها لا يقوى الا على انفاسه ، وهي معجبة بخوذة الجيش الاحمر على رأس ابنها ، وفكرت بان تأخذها منه هدية كي تدفئ بها رأسها في المنام .
فيما بعد صادف الشعب الجوال على طريقه رملا ناشفا

دافئا فرقد عليه وغفا حتى الصباح . لم يكن شاغاثايف راغبا
فى النوم . وضع ايديهم بين امه والملا الضرير ، وظل لوحده
لا يعرف كيف يقضى الليل حتى الصباح . وظل تارة يكتئب
وتارة يتسم وهو يتمتم مع نفسه ليعيش الحياة كشئ لا حاجة
به اليه .

١٠

فى الصباح وصل الذين سقطوا امس على الطريق او
تخلفوا لضعفهم ، وساروا جميعا فى اثر نورمحمد من جديد .
واخذت ايديهم تسير بنفسها بل وكانت تضحك مع نزار .
لمس جبينها فلم يكن ساخنا ، مع انها لا تحتاج الى هبوط
فى درجة الحرارة لاكثر من نصف درجة حتى تعود اليها
حيويتها ونشاطها من جديد . وفى منتصف النهار انتحى سفيان
العجوز بنزار جانبا عن الطريق الناشف . وقال له : قرب
مجرى اموداريا تصادف احيانا نعتجان شائختان او ثلاث تعيش
لوحدها وقد نسبت الانسان ، لكنها عندما تراه تتذكر الرعاية
القدامى فتهرع اليه . وقد بقيت هذه النعاج على قيد الحياة
بالصدقة او ظلت من القطعان البرية الضخمة التى اراد
البابايات ان يقتادوها الى افغانستان لكن الوقت لم يتسع لذلك .
وظلت النعاج تعيش مع كلاب الرعى عدة سنوات ، واخذت
الكلاب تقتات عليها ثم نفقت او فرت هربا من الكآبة ،
فظلت النعاج لوحدها واخذت تموت بالتدريج من الشيخوخة او
تفترسها الوحوش او تفضل السبيل فى الرمال بلا ماء . الا ان
عددا قليلا منها ظل على قيد الحياة ، وهى الآن تهيم على

٨٠

وجوهها مرتعشة قرب بعضها البعض خوفا من الوحدة . كانت
تقوم بمسيرات دائرية كبيرة فى السهب القاحل دون ان تحيد
عن طريقها الدائري ، وفى ذلك حكمتها الحيائية ،
لان سيقان الاعشاب التى تقضها وتلدوسها تثبت من جديد
بعد ان تقطع النعاج باقى طريقها وتعود الى الموضع السابق .
ويعرف سفيان اربع دوائر نباتية جولة من هذا النوع كانت
النعاج المتبقية من القطعان التى توحشت او انقرضت تسير
عليها الى ان ماتت . وتقع احدى تلك الدوائر الجولة ليس
بعيدا ، وتكاد تتقاطع مع الطريق الذى يسير عليه شعب
الجان الآن متوجها الى وادى القصب .

وصل سفيان ونزار الى منخفض صغير رطب بين الرمال
وتوقفا . حفر سفيان الرمل بيديه فوجده رطبا وقال ان النعاج
تنبش الارض بقوائمها الامامية ثم تمضغ الرمل الرطب وترتوى .
فى هذا المكان ينبغي انتظار النعاج ، وهو يعرف الوقت الذى
يستغرقه الطريق الدائري فحسبه واكد ان موعد وصولها الى هنا
قد حان . فى العام الفائت سار على اثر قطع النعاج حتى
بلغ هذا المكان . كان عدد الاغنام فى القطيع آنذاك حوالى
اربعين رأسا اكل منها سفيان ست نعاج وسقطت سبع منها
فى الطريق ، وواصلت الباقيات السير .

اقتاد نورمحمد الشعب الى نفس المكان الذى كان نزار
وسفيان ينتظران فيه الاغنام . ووقد الجميع وغفوا قرب الدرب
الذى كانت النعاج فى العام الفائت تمضغ رمله الرطب . ناموا
جميعا مع ان المساء لا يزال بعيدا ولم يمض على حياة
الصباح وقت طويل . كان نزار يسير وحيدا بين النيام خائفا من
ان احدا لن يستيقظ بعد الآن . شعر بالضجر لكآبة الافكار

٨١

والذكريات التي تعشش في ذهنه . اقترب من ايديهم فوجدوا
ناثمة وجفونها متلاصقة كالعسل وعلى شفثيها ابتسامة الدهول او
الاحلام . لقد استعادت في احاسيس وتصورات المنام الفرحة
التي حرمت منها في الواقع . وخبأ الملا شيركيزوف رأسه في
صدر ام نزار والتصق بها وغفا في الحب والدفء ناسيا عماه .
ورقد نورمحمد على جانب وكان يتململ على الارض ويتمتم .
— بم تفكر ؟ — سأله نزار .

— بقى أكثر من اربعين شخصا . لا يزال العدد كبيرا .
كان يحسب الشعب ، كم ماتوا منه وكم بقوا على قيد
الحياة .

لمس نزار سفيان . لم يكن الشيخ ناثما . كان مغمض
العينين فقط وكأنه يحرص على بصره ولا يريد توزيع روحه على
انطباعات عالم النهار المرثي . وقال له نزار ان زوجته توفيت
في موسكو ، لكن سفيان لم يشاطره مصيبتة ، فقد لاذ
بالصمت برهة ثم طلب من نزار ان يذهب للقاء النعاج ،
فهى قد تجد رملا رطباً في مكان آخر وتتجنب القوم النائمين .
استيقظت جولشتاي . جلست ورأس الملا النائم على
ركبتيه . توجه نزار الى امه ليتكلم معها ، لكنه لم يقل
لها شيئا . فقد ادرك بانه يريد مخاطبة امه والشيخ لسبب
واحد هو ان يسمع منهما كلمات المؤاساة حتى يواصل
العيش . فهل هو موجود من اجل ان يصون نفسه هنا في
الهدوء الروحي وفي مؤاساة الاقرباء ؟ . اسف لانه لم يكتب
بطاقة الى كسينيا من يريد تلك المدينة التي كان فيها لتراجع اللجنة
المركزية اذا ساءت احوالها بدون امها ، في حين انه هو
اباها بعيد وربما لن يعود لنجدتها .

مسد نزار شعر جولشتاي المسترسل ووضع الخوذة العسكرية
على رأسها لان الصداع ربما ألم بامه من شدة حرارة الشمس .
خلعت الام الخوذة وخبأتها تحت ثيابها ، فهي تؤمن بالامتلاكات
وتحرص عليها ، ولذا وضعت في عباها المستفخ ، على جسدها
العاري ، مختلف الحاجيات العائدة لها والتي تدفئ صدرها .
على مقربة من ام نزار رقدت امرأة قرغيزية ووجهها على الرمل .
كانت تصرخ في المنام بصوت طفولى وتنشج احيانا نشيج
الاطفال ثم يعود اليها الهدوء وتتهادى انفاسها برفق . رفع نزار
وجهها من الصدغين فرأى امرأة كهلة لا تنفرج شفثاها عندما
تنساق لصراخ طفولى ترتعد له الفرائص ، حتى لكان طفلا
ينتحب من داخلها ، انسانا آخر لا جريرة له ، وحيدا غريبا
عليها اشد الغربة فلم تستيقظ لصراخه . ولربما كان ذلك
نحيب روحها الطفولية الفعلية التي لم تتغير ولم تذق بعد طعم
الحياة .

وضع شاغاتايف رأس المرأة على الارض ومضى للقاء
النعاج الهائمة . في البداية سار كعادته ، وعندما اخذ الليل
يداهم النهار ركض الى الامام بسرعة كيلا يفوت النعاج في
الظلام . وكان يتوقف في احيان نادرة ليلتقط انفاسه ، ثم
يسرع من جديد . وعندما اظلم الجو تماما ركض نزار محنئ
الظهر ليرى الاعشاب النادرة ويلمس سيقانها بيديه ، فهى تدله
على الوجهة التي يمكن ان تسير فيها الاغنام ، والا سيضل
الطريق ويحيد عنه الى الرمال القاحلة فيفوت النعاج المتجولة .
ركض امدا طويلا على درب النعاج الخالى . وحل
منتصف الليل ، وربما ما بعد منتصف الليل . ومن التعب
واللوعة التي لا يدركها ، لكنها تثقل على فؤاده بنفسها ،

ومن الريح الخفيفة الباردة بعض الشيء غابت ذاكرة نزار وغفا
راكضا فسقط ولم يتمكن من النهوض . غط في نوم عميق
وحيدا في الصحراء ، في السكون المقفر الخالي من كل ما يقوى
على الحركة . كانت سيقان الاعشاب الواطئة السوداء تنتصب متباعدة
كالايتم حول الانسان النائم وكأنها آسفة لانه سينهض وينصرف
وستظل هي وحيدة هناك من جديد .

عند الفجر فتح نزار عينيه وصفا ذهنه قليلا ثم احلوك ،
فغفا من جديد غارقا في الدفء والنسيان . رقدت نعجتان عند
جنى نزار ودفأناه بدفئهما . ووقفت الاغنام الباقية حوله تنتظر
ان يرفع رأسه . كان عددها اربعين رأسا تقريبا ، وقد اشتد
بها الحنين من زمان الى الراعي ، وها هي تجده الآن . كان
خروف عجوز يقترب بين حين وآخر من نزار النائم ويلعق بحذر
رقبته وشعر قفاه ، فهذا الخروف يحب رائحة الانسان وعرقه
المالح ، لكنه لم يجربه من زمان . كان يستدير بجذعه الى
كل الجوانب بحثا عن كلب الراعي ، لكن لا كلب هنا .
لقد تعب من قيادة النعاج والمصالحة بينها اثناء الشراب وحرستها
في الليل من الوحش المنفرد . كان يتذكر الازمان الطيبة السالفة ،
حيث يقوم الراعي وكلايه بكل تلك المهام ، ولا يبقى عليه
هو الا ان يركب النعاج وينام بينها متعبا فاقد العقل . اما
الآن فقد غدا نحिला تعيسا وصار اوفر عقلا ، والنعاج تبغضه
لضعفه ولااباليته ازاءها ، وتذكر هي ايضا الرعاة والكلاب مع
ان الكلاب عندما تحل النظام بينها اثناء الشراب تقتلع من
جلودها احيانا تنف الصوف الذي ينمو بصعوبة على اعشاب
الصحراء . كان الخروف يعيش هضيمًا ، وكان يريد ان يغدو
كلبا ، حتى حاول ان يقتلع صوف النعاج بفمه الأدرد .

استيقظ شاغاتايف واقتاد قطع الغنم الى شعبه فبلغه
قبيل المساء . كان القوم لايزالون نياما ، وايديهم وحدها
تلعب بالرمل وتحفر فيه انهارا وتشق طرقا . ايقظ نزار ابناء
شعبه وامرهم بالذهاب لجمع الاغصان والاعشاب اليابسة لاشعال
نار وطبخ لحم الغنم . وانهمك سفيان في نحر النعاج ، وكان
اول من شرب الدم من عروق الحناجر ثم صبه في قصعة وقدمه
لمن يرغب في شربه . وقفت النعاج الاخرى تنتظر دورها
وتنتطلع باهتمام الى المجزرة . دون ان تهتم بأنفسها وكأنها
لا ترى للحياة قيمة . اما الخروف فكان بعيدا ، بين
نعاج القطيع السليمة ، وقد رفع رأسه ليرى بشكل افضل ما
يفعله سفيان . وعندما ظل على قيد الحياة ثلاثون رأسا فقط ،
واشتعلت النار في اربعة مواقد ، وانبطحت نعاج كثيرة جثا
مسلوخة بافخاذ هزيلة وثقوب في الابدان مليئة بالدم وبنسغ
الموت ، جأ الخروف وادار رأسه صوب السهب الخالي .
كان يعيش من زمان بين النعاج ، وكان زوجا للذبيحات المسجيات
الآن ، خاض في احشائها وتحسس نحافة عظامها ودفء
اجسادها العفيفة الوداعة .

لم يسمح نزار بنحر اكثر من عشرة رؤوس ، اما الباقي
فللتكاثر ولطعام المستقبل . ظل الخروف على قيد الحياة فانتحي
جانبا وورقد بعيدا ، والتحققت به كل النعاج المتبقيات . كانت
هزيلة محنكة بخبرة الحياة البرية ، وقد بدت من بعيد شبيهة
بالكلاب .

اخذوا يشوون الذبائح على المواقد دون ان يقطعوا اوصالها ،
وبعد شي الواحدة منها كانوا يضعونها جانبا على الرمل . ثم
بدأ الاكل . انشأوا يأكلون اللحم بلا جشع ولا تلذذ ، فكانوا

يقتطعون منه قطعاً صغيرة يعالجونها بفكوك ضعيفة لم تعود على المضغ . كان نورمحمد الشخص الوحيد الذى اكل كثيراً وبسرعة . فكان يقتطع لنفسه شرائح من اللحم ويلتهمها ، ثم يقضم العظام حتى تتعري صقيلة ويمتص نخاعها من الداخل . وبعد ذلك لحس اصابعه ورقد على جنبه الايسر ليهضم الطعام . وانزوى المتزوجون ليناموا مع زوجاتهم . ومضى الملا شيركيزوف هو الآخر مع ام نزار بعيداً . اما العزاب واليتامى فبقوا قرب المواقد المنطفئة . فقد هدهم التعب وغطوا فى نوم عميق وكأن الطعام الذى اكلوه ثار لنفسه منهم واكل قواهم من الداخل فسقطوا مقهورين .

فى الليل تفقد نزار الموقف وعدّ النعاج الحية مع الخروف وجمع جلود الذبائح ورؤوسها فى مكان واحد وطفق يحدق فى ظلام الليل : ماذا تفعل كسينيا الآن هناك بعيداً وراء هذا الظلام ، فى ضوء موسكو الكهربائى ؟ واين ترقد فيرا الميتة ؟ ماذا تبقى تحت التراب من جسدها المكتنر الخجول ؟ . مر نزار بالنائمين . كانوا يفترون الرمال بلا اغطية وكأن الموت حصدهم جميعاً فلم يبق منهم دفانون يوارون جثثهم التراب . لكن بعض الأزواج والزوجات يتحركون فى الحب . وكان الملا شيركيزوف هو الآخر راقداً مع جولشناى . رأى نزار ذلك وبكى . فهو لا يعرف ماذا عليه ان يفعل هنا الآن ليعلم هذا الشعب الصغير الاشتراكية . ولم يعد قادراً على تركه يموت وحيداً ، لانه هو نفسه ، عندما تركته امه فى الصحراء ، وجد المأوى عند الراعى وعند السلطة السوفييتية ، واطعمه شخص مجهول وحماه ليعيش ويتزعر .

كان المرضى والضعفاء نائمين فى سخونة الحمى .

وقد غفا اثنان منهم وعظام الغنم فى ايديهما . كانا بمصانها قبيل المنام ليستقيا القوة . مضى نزار الى حفرة رملية رطبة وازاح الرمل فحضر بثر صغيرة ، وعندما تجمع الماء فيها ذهب الى المرضى وابقظهم واعطى كلا منهم جرعة من مسحوق الكينين ، وعاد مراراً الى بثر الرمال وحمل الماء فى كفيه وسقاهم ليتجرعوا الدواء .

كان الوقت متأخراً . فشرع شاغانايف بالبرد ورقد جنب اكثر المرضى سخونة ليتدفأ بيده وغفا . وفى الصباح اختفى الخروف وكل النعاج . وكانت آثار اظلافها تمتد صوب الرمال المكشوفة . لقد عافت الاغنام درب العلف المعتاد .

١١

اجرى سفيان حسابات فى ذهنه وقال ان هذه الاغنام ستعود من كل بد الى درب العلف المعتاد او ستعثر على الدرب الآخر الممتد ابعده عن صحراء قرة قوم باستدارة اكبر . الا ان كلا هذين الدربين ينتهيان عند بحيرات الاوحال فى وادى القصب ليس بعيداً عن موطن شعب الجان ، وستصل الاغنام آجلاً ام عاجلاً الى منخفض الظلال الابدية فى وادى القصب وسترى جبال اوست اورت القاتمة التى عاش الكثيرون من الموجودين هنا الآن حياتهم كلها فيها . ووافق نورمحمد على رأى سفيان ، وقال :

— سنسير فى اثرها ، نشرب دمائها ونأكل لحومها . وبعد سبعة او ثمانية ايام سنصل الى وادى القصب . . . هل توفى احد الليلة ؟ — سأل نورمحمد .

اجابوه بان العجوز القرقلباقية توفيت ، ولم يمت احد غيرها . سجل نورمحمد ملاحظة دقيقة في مفكرته . نزار لا يتذكر هذه العجوز ولم يكن قد رآها . باتت ليلتها وحيدة ، بعيدا عن موقف الآخرين ، وتوفيت هناك بهدوء .

سار القوم في طابور طويل في اعقاب الاغنام الهاربة . المرضى والضعفاء يجرجرون اقدامهم في الخلف وغالبا ما يجلسون ليرتاحوا ويشربوا الماء من القرب الجلدية . وكان نزار يسير خلف الجميع كيلا يضع احد او يموت دون علمه . ولعل الاغنام فرت بسرعة ، فقد ادرك سفيان ذلك من شكل أثار الاظلاف ، وفهمه نزار ايضا . كان يرتقى الكتيان الرملية العالية وينظر الى ابعد الآفاق دون ان يلحظ ادنى اثر لسحابة غبار لا بد ان يثيرها القطيع . فالاغنام ابتعدت كثيرا .

اضرت الشمس بتزار فاعطته العجوز التركمانية التي كانت وصيفة في حيوى خرقه انتزعته من طرف ثوبها ليحمى بها رأسه . وسار الشعب بصبر وتحمل . شفيت ايديهم بالكامل وتفتحت اساريرها ، فهناك الكثير من اسباب انتعاش المشاعر والانطباعات بالنسبة لها ، وهى الصبية التى لا تعرف شيئا .

وعندما يلم بها التعب يحملها نزار بيديه فتغفو على كتفه وتصرخ احيانا وتدمدم فى احلامها المرعبة . ولكن اى احلام تغذى ذهن هذا الشعب الهائم كله اذا كان قد تحمل قدره ومصيره ؟ ما كان بوسعها ان يعيش على الحقيقة . فلو عاش عليها لمات غما وكدرا حالما يعرف حقيقته . بيد ان الناس يعيشون بحكم الميلاد وليس بسبب العقل والحقيقة . وطالما تنبض قلوبهم فهى تهضم وتفتت بأسهم وتفتت بنفسها وتفقد مادتها فى الصبر والعمل .

لم يلحق الشعب بالاغنام حتى الهزيع الاخير من الليل . وفى الصباح سأل نورمحمد من جديد : هل مات احد فى الليل ام ظل الجميع احياء ؟ مات طفل لاحدى الامهات ، فحسم نورمحمد بارتياح روحا ميتة من القائمة فى مفكرته . ولم يبق لدى الشعب سوى طفلين — ايديم وبنت صغيرة ولدت بالصدفة قبل ثلاث سنوات عندما قدم الى الوادى شخص مجهول من البادية واقام زهاء ستة اشهر ثم ارتحل تاركا نطفته فى احشاء جوزيل ارملة احد قطاع الطرق من منطقة اورغينش القديمة .

وفى اليوم التالى صادفوا نعجتين جاثمتين على الدرب . اضعفهما الجرى والمرض وها هما الآن تحتضران . صوفهما الذى تساقط اغلبه متلاصق بعرق الحمى ، وعيونهما غلى البوزين الاعجفين تتطلع بحقد وحشي ، فهما الآن اقرب ما تكونان الى بنات آوى ، ولم يبق فى اليتيما اى سمن . نحروا النعجتين فى الحال ، كيلا يفسد الموت لحمهما ، واكلوهما دون شي على النار ، ووزعوا عظامهما على الجميع واخذوها معهم طعاما للعشاء . وفى اليومين التالين لم يكن لديهم اى طعام سوى الأعشاب النادرة ، اما الماء فقد صادفوه مرتين فى غدران السباخ .

صار الشعب يمشى فى المساء والصباح فقط ، اما فى النهار فيلتحف الرمال وينام من شدة الضعف والحر . وكان نورمحمد يؤشر اسماء الموتى كل يوم ، بينما يتأكد نزار من موتهم فيستمع الى وجيب القلوب ويراقب العيون ، لان سفيان وعجوزا آخر ، هو اوراز بابايف احد عبيد فرغانة ، تظاهرا بالموت ذات مرة . الا ان نزار سمع من خلال عظامهما وجيب

القلب البعيد المكتوم ، فرفعهما على الاقدام وامرهما بان يواصلوا الحياة . وسألها نزار :

— لماذا عزمتما على الموت ؟

— ارواحنا تخدرت من الحياة — اجابه سفيان — جفت عظامنا والتوت . انكمشت عروقنا وارادت ان تتمدد لترطبها الامطار وتجففها الرياح وتنهشها الديدان ، والا فانا اعيقها عن ذلك . . .

وقف اوراز بابايف فاقتدا برشده ينظر الى نزار بعينين خاويتين . كان في بادئ الامر عاجزا عن النطق . ولعله يعتبر نفسه ميتا على اية حال . ثم افاد بصوت مسموع : — لا نستطيع ان نعيش . حاولنا كل يوم ولكن دون جدوى .

— لا بأس ، ستتعلم معا — قال لهما نزار .

— سنصبر قليلا — وافقه سفيان — ثم نموت دفعة واحدة . اقترب من سفيان عجوز روسي اسمه الشيخ فانكا وتفحص حنجرته وقلب جفونه وبص في داخل كلتا عينيه ثم لمس ضلوعه وقال :

— كيف تريد ان تموت وقد بلغت سن الرشد توا ؟ اصبر ، سنعيش ونذل الصعاب حتى نحصل على العسل في البراميل ، ونغمس فيه قطعاً سميكة من الخبز . . .

وابتعد الشيخ الروسي باسم . كان حبل وريده يكاد ينقطع كل يوم تقريبا ، طوال ستين عاما ، لكنه لم ينقطع ولا مرة ، ففقد العجوز ايمانه بقوة الموت وبقوة المصائب مهما كانت ، وراح يعيش بهدوء ولا مبالاة كأنه سعيد خالد . وكان نزار يعرف ان الشيخ فانكا فر الى هنا من الاشغال الشاقة في

سيبيريا في زمن ما — قبل حوالي ثلاثين عاما — وتعايش مع شعب غريب وظل يعيش مع الجميع على قدم المساواة دون ان يتذكر طريق العودة الى روسيا .

في الليل هبت ريح صحراوية قاتمة ، وتحركت الرمال في اثر تلك الريح ومحت بالتدريج آثار الاغنام . وهنا فهم شاغاتايف الحياة . في الصباح الباكر ابتعد عن النيام والناعسين عندما ادرك بانهم ضيعوا القطيع نهائيا ولم يعد للسير في اثره معنى ، وان الشعب الخائر بلغ منتصف الصحراء بلا طعام ولا عون . لن تكفيه قواه ليصل الى وادي القصب ولن يستطيع العودة ثانية الى احوار اموداريا .

هبت ريح الصباح الغربية على وجه شاغاتايف وحومت الرمال عند قدميه وأنت كالعاصفة الثلجية الروسية وراء نافذة الكوخ . ويتعالى نواح الناي تارة ، وتارة اخرى عزف الاكورديون او انغام صور بعيد ، وفي اغلب الاحيان ينساب نشيج ربابة مكبوتة مستكنة . تلك هي اناشيد الرمال التي تعذبها الريح وتجعل الحبة منها تحنك بالحبة الاخرى . لقد نزار على الارض ليفكر بعمله الآتي . فما كان الغرض من ايفاده الى هنا ان يموت بين ابناء شعبه ويدعهم يموتون هم ايضا . . . لمس وجهه يده ، فوجد لحيته قد طالت ، وعشش القمل في شعره ، وتكدر بدنه النحيل القذر وتعذب من شدة الالهال . وفكر شاغاتايف بانه انسان تافه ممل . فمن يتذكره الآن غير كسينيا ؟ وحتى هي ربما اخذت تنساه ، فالشباب الآن متحمسون جدا لمهامهم السعيدة . وغفا نزار على الرمال المتململة ، غفا وحيدا على مسافة بعيدة نسبيا عن سائر النائمين . كل شيء فيه همد لامتد طويل وانزوى عميقا داخل

بدنه وفارق الحياة مؤقتا كيلا يفارقها الى الابد . استيقظ في الظلام والرمال تكاد تغطيه . والريح لا تزال تهب . كان الوقت ليلا ، فقد طوى النهار كله في النوم . ومضى نزار الى الموقف فلم يجد القوم هناك . كان الجميع قد استيقظوا من زمان وواصلوا سيرهم هاربين من الموت . ولم يبق راقدا هناك الا نصير شاكر . كان ميتا . فمه مفتوح ، تتكلم فيه الريح والرمال . وعندما وجد نزار الجثة ظل يتلمسها طويلا ليتأكد من واقع الوفاة ثم غطى هذا الآدمي بالرمال كيلا يراه احد . سار شاغاتايف طول الليل ، وكان ينحنى احيانا فيرى آثار الشعب الزاحف ، وعندما تمحو الريح الاثار كان يسير على الحدس .

وفي الصباح لاحظ نزار دلائل ماء في هذا المكان ، وعثر على بثر مطمورة بالرمال . ازاح الرمال بيديه حتى بلغ الاعماق الرطبة واخذ يعلك الرمل ، لكنه صار يبصق اكثر مما يمتص ، وعندذاك راح يتلع الرمل الندي حتى زابله آلام العطش . وفي الايام الاربعة التالية حاول نزار ان يسير الى الامام في عرض الصحراء ، لكنه ، بسبب ضعفه ، لم يتقدم كثيرا وعاد من جديد الى الرمال البليلة كيلا يموت من العطش بعد ان هذه الجوع . وفي اليوم الخامس ظل في مكانه ليستجمع قواه في النوم والنسيان ، ثم يلحق بشعبه . التهم جرعتى مسحوق الكنين الباقيتين لديه وما وجدته في جيوبه من فئات فتحسنت حاله . كان يعرف ان شعبه غير بعيد ، فهو ايضا لا يقوى على الابتعاد عنه ، لكن ما لا يعرفه هو وجهة المسير . وتصور نزار مدى الارتياح الخفى الذى شعر به نورمحمد وهو يسجل في المفكرة موته . وابتمس لفكرته القديمة :

لماذا يعول الناس على المصيبة والموت ، فى حين ان السعادة حتمية بنفس القدر وهى فى الغالب ايسر من اليأس والقنوط ؟ . . . التحف شاغاتايف الرمال الندية تفاديا لحرارة الشمس وحاول ان يغط فى النسيان ليرتاح ويقتصد فى الحياة ، لكنه لم يتمكن ، فظل يفكر طول الوقت ويحيا قلبا ويتطلع الى السماء حيث تجرى الريح الساخنة ضبابا خفيفا من الجنوب الشرقى فى خلاء فارغ يجعل المرء يشك بوجود عالم حقيقى صلب .

وبعد الرقاد زحف شاغاتايف صوب كتيب قريب لاحظ عليه شجيرة من اشواك ابراهيم مطمورة بالرمال حتى النصف . بلغ الشجيرة واقتطع منها عدة اغصان يابسة واخذ يعضغها ، ثم اقتلع الشجيرة واطلق سراحها فى الريح . تدرجت الشجيرة وسرعان ما اختفت وراء الكثبان متوجهة الى مكان بعيد من الارض . ثم زحف نزار بضع خطوات فى تلك الانحاء وعثر على عيدان يابسة من اعشاب الربيع مدفونة الاطراف فى اخاديد الرمال غير العميقة ، والتمهها هى ايضا دون تفريق . انزلق من اعلى الكتيب واستقر فى اسفله فغفا ، وفى المنام انهالت على وعيه الخاثر مختلف الذكريات والانطباعات المنسية العرضية وتصورات وجوه مملّة كان قد رآها ذات مرة ، — كل الحياة التى عاشها عادت فجأة وانهالت عليه . وراح شاغاتايف يتابعها بوعيه عاجزا لا يستطيع نسيانها . كان يظن فى السابق ان اغلب الاحداث التافهة وحتى الهامة فى حياته طواها النسيان الى الابد وحجبته الوقائع الكبرى التى اعقبته ، اما الآن فقد ادرك ان كل شىء ظل باقيا ، محفوظا فيه ابديا كالأحجار الكريمة ، كحاجيات متسول جشع يحتفظ بما لا

نفع فيه مما يرميه الآخرون . ها هو الشيخ المعدم باق في
الذاكرة ، لا يزال يتمتع سائلا او متشكيا ، ولعله قد مات
من زمان في الواقع . وها هي صديقة فيرا التي رآها عرضا
ذات مرة تنحنى عليه ولا تفارقه ، وهي تثقل على هذا الانسان
النائم في الصحراء حتى مل منها ، ووراءها على سباج الطوف ،
تراقص ظلال غصن فضي كان ينمو في وقت ما في اشعة
الشمس ، ربما في شارجوى او في مكان آخر . والكثير الكثير من
الاشياء الازلية التافهة الشائكة بشكل شجرة عفنة ودائرة بريد في القرية
وجبل مقفر يش في شمس الضحى وازيز الريح الضائعة وعناق
فيرا الرقيق . كل ذلك اقتحم نفس شاغاتايف دفعة واحدة
وعاش فيها بجمود واصرار ، مع ان تلك كانت في الماضي
وقائع عابرة تختفي سريعا في حقيقة الامر . اما الآن فهي
تعيش في دخليته بهياج وحدة ولجاجة اكثر بكثير مما في
حقيقة الامر . كانت هذه الاشياء في الواقع تعيش خاضعة
وادعة لا تكشف عن اهميتها ولا تؤلم ضمير الانسان ومشاعره .
لكنها الآن تكلمت محشورة في دماغ شاغاتايف ، واذا كان
بامكانه التخلص منها في الحياة الحقيقية لان الوقت يمر على
كل حال ، فالاحداث هنا ليست عابرة ابدا ، بل هي مستمرة
تفتت وتسحق بفعلها المتكرر عظام جمجمة شاغاتايف . اراد
ان يصرخ ، لكن قواه خائته . هم بان يتحب ، لكنه يخشى
ان يضيع رطوبة بدنه ولا يريد ان يمضغ الرمل الندى الصلب .
انصت ليسترق السمع : هل تنهادى من بعيد الاصوات
المدوية المتقطعة كقطرات المطر وراء الافق الميت الاسود ،
من ذلك الليل البهيم الطليق الذي يبتلع آخر ضوء للشمس دون
ان يخلف منه بقية كما تبتلع رمال الصحراء نهرا يصب فيها .

كان يسمع احيانا اصوات الطبيعة البعيدة تلك دون ان يعرف
اسبابها ومعزاها .

نهض نزار لينفض النعاس عنه ويتخلص من كل العالم
المتراحم في دماغه كالعاقول . زايله النعاس ، لكن تحاشك
الذكريات والافكار المرعب ظل في البقطة ايضا . ولمح شيئا
ما على الكتيب المجاور ، لعله حيوان او خيمة ، وخر ثانية
من شدة ضعفه ، دون ان يتسنى له ان يعرف ماذا على
الكتيب . واقتحم ذهنه حالا ما كان على الكتيب من حيوان
او خيمة او سيارة ، وراح يثقل عليه بلجأته مع انه لم يفهمه
وليس له حتى مجرد اسم . ولحقت هذه الظاهرة الجديدة
بسابقاتها واجهزت على صحة نزار ، فوقع في غيبوبة لينقذ
روحه .

افاق في ساعة مبكرة من اليوم التالي . اختفت الريح
دون ان تخلف بقية ، وخيم سكون خجول في كل مكان .
كان سكونا خاويا هشا يمكن للعاصفة ان تفتحه في اية
لحظة . تراجع ظل الليل منسجبا الى عنان السماء وخيم فوق
العالم من هناك ، اعلى من ضوء النهار . واستعاد نزار صحته
وصفا ذهنه واخذ يفكر بواجباته من جديد . ظلت قواه ضعيفة ،
لكن هذا الضعف لم يعد يعذبه . خطر على باله انه يحتمل
ان يموت هنا وان شعبه ايضا سيضيع في الصحراء جثة جثة .
لم يكن نزار يأسف على نفسه . فالشعب الكبير حي ، وسوف
يؤمن على اية حال السعادة عموما للنعساء ، لكن المؤسف
ان شعب الجان الذي هو اكثر شعوب الاتحاد السوفيتي حاجة
الى الحياة والسعادة سيهلك .
— لن يهلك — تتمم نزار .

همّ بالنهوض والقي بكل ثقل قلبه على يديه المرتعشتين المغروزتين في الرمال ، لكنه سقط على ظهره من جديد . وكان خلفه من جهة القفا ، كائن ما . فقد سمع نزار خطواته السريعة المتراجعة .

اغمض نزار عينيه وامسك بمقبض المسدس في جيبه . كل ما يخشاه الآن هو ان لا يقوى على رفع سلاحه الثقيل ، فلم يبق في يده سوى قوة طفل . ظل لامد طويل راقدا بلا حراك متظاهرا بالموت . كان يعرف الكثير من الوحوش والكواسر التي تأكل جثث الموتى في السهب . ولعل الوحوش المفترسة تتعقب شعبه صامته طوال الوقت على بعد كبير وتلتهم الجثث المتساقطة . فالاغنام والبشر والوحوش مسيرة ثلاثية تتحرك في طابور واحد في الصحراء . لكن الاغنام التي ضيعت درب الاعشاب تسير احيانا خلف اشواك ابراهيم الهائمة التي تطاردها الريح ، ولذا فالريح هي القوة الموجهة للجميع : من الاشواك حتى الانسان . ولعل من الحكمة السير مع الريح للحاق بالاغنام ، لكن نورمحمد لا يعرف شيئا ، وسفيان ملّ من الحياة ولم يعد يفكر .

اراد نزار ان يقفز رأسا ويطلق النار على الوحش ويقتله ويأكله ، لكنه يخشى ان يخطيء الهدف بسبب ضعفه ويخيف الوحوش فلن تقترب منه ابدا . ولذا صمم على ترك الوحش يقترب حتى يكاد يلامس بدنه وعند ذاك يطلق النار عليه مباشرة .

كانت الخطوات الخفيفة الحذرة تنهاى من وراء قفا نزار طول الوقت مقتربة تارة ومبتعدة تارة اخرى . حبس نزار انفاسه وظل ينتظر متى يهجم عليه هذا الكائن المتلصص الذي لم

يكن واثقا بعد من موته . وكان يقلقه ان يأخذ الوحش بخناقه رأسا او يصاب بجرح فيفر بعيدا . واقتربت الخطوات من الرأس . واخرج نزار المسدس من جيبه قليلا وشعر بقوة لا بأس بها استجمعها من كل بقايا حياته . الا ان الخطوات مرت قربة وابتعدت . فتح نزار عينيه ، ورأى طيرين كبيرين يسيران ببطء مبتعدين من جهة قدميه صوب الكثيب المقابل . لم ير نزار مثل هذين الطيرين من قبل ابدا ، كانا يشبهان في وقت معا نسور البادية والتم البري الاسود . المنقار كمناقير النسور لكن الرقبة السميقة الغليظة اطول من رقابها ، اما القائمتان المتيّتان فتحملان عاليا جذعا رقيقا خفيفا كجذوع التم . جناحا احد الطيرين ملفوفان قاتمان بلون رمادي داكن ، وجناحا الطير الآخر بريش احمر وازرق ورمادي . وربما تلك انثى . وبطن كلا الطيرين مكسو بزغب ناصع البياض . لمح نزار حتى النقط السوداء الصغيرة على جنب الانثى . فهي براغيث انشبت خراطيمها في بطنها من خلال الزغب . وكلا الطيرين يشبهان بعض الشيء فرخين هائلين حذرين لم يتعودا بعد على العيش في بدنيهما .

اشتدت حرارة النهار فغدا اكثر كآبة ، وتصاددت على الرمال اعاصير حلزونية خفيفة ، وكان المساء لا يزال يوشى السماء العالية فوق الدفء والنور . تسلق الطيران الكثيب قبالة نزار والتفتا صوبه دفعة واحدة بعيون ذكية بعيدة النظر . راقب نزار الطيرين من جفونه المنفرجة بالكاد وشاهد حتى اللون الرمادي النادر في عيونهما التي تتطلع اليه بفطنة وانتباه . حكمت الانثى منقارها بمخالب رجلها وبصقت بقية قديمة من طعام ، ربما هي مخلفات من لحم نضير شاكر . وحلق الذكر ، بينما

ظلت الانثى على الكتيب . حلق الطير الهائل على ارتفاع منخفض الى جانب ، ثم ارتفع بعدة طبقات من جناحيه الى اعالي الجو ، وبعد ذلك اخذ يحط من هناك رأسا . شعر نزار بريح تصفع وجهه قبل ان يبلغه الطير . ورأى فوق وجهه صدر الطير التنظيف الالبيض وعينيه الرماديتين الصافيتين . كانتا تشعان فطنة وتفكيراً وليس حقدا وشرا ، فقد لاحظ الطير ان الانسان حى يراه . سحب نزار المسدس ورفع به بكلتا يديه واطلق رصاصة على الطير الذى هجم على رأسه . ونبتعت بقعة قاتمة وسط الزغب الالبيض على صدر الطير المنتفخ من سرعة التحليق الهابط ، وعلى اثر ذلك انتزعت الريح الخاطفة الزغب من الصدر ونثرته نتفا حول نقطة الاصابة السوداء . وللحظة تلكأ جسم النسر فى الجو دون حراك .

اغمض الطير عينيه الرماديتين ، ثم انفتح جفناهما تلقائيا ، لكن العينين لم تعودا تريان شيئا . كان الطير ميتا . رقد على جسم نزار بنفس الوضعية التى هوى فيها ، صدره على صدره ورأسه على رأسه ، فانغرز منقاره فى شعره الكث ، وتباعد جناحاه الاسودان الخائثران العريضان على الجانبين ، وتساقط ريشه المتطاير وزغبه المتتوف على نزار الذى اغمى عليه من ثقل سقوط النسر ، لكنه لم يصب بجراح . فقد صعق من الضربة الا ان سرعة سقوط الطير الخطرة قد خفت بسبب الرصاصة التى اخترقت صدره . . . قفز نزار وجلس فورا من شدة الالم . فأنشئ النسر نهشت بمنقارها رجله اليمنى واقتطعت من لحمه قطعة وحلقت فى الحال . اطلق عليها نزار النار مرتين من مسدسه الذى امسكه بكلتا يديه ، لكنه اخطأ التنشين ، فاختنفى الطير الهائل وراء الكتيبان ، ثم شاهده نزار

يخلق على ارتفاع كبير . ولم يعد النسر القليل ممدا على جسم شاغاتايف ، فقد كان مطروحا على الرمل عند قدميه . ولعل الانثى سحبتة لتأكد من انه قضى نحيبه فتودعه .

زحف نزار الى الطير القليل واخذ يتف الرش من رقبته ويأكل حنجرتيه . وكانت انثى النسر لا تزال مريئة ، لكنها بلغت ذروة فى السماء يلغمها حتى فى وضوح النهار ظل الليل وغسق المغيب وشفق الفجر ، فخيّل لنزار انها لن تعود من هناك ، من بلد الطيور السماوى السعيد .

اكل نزار قليلا وشد رجل النسر بطرف حزامه ودس الطرف الثانى داخل بنطاله ليحس اذا حاول وحش ما ان يسرق الطير . ثم عالج بلعابه الجرح الممزق على قدمه وغطاه بقماش ورقد على عجل ليستعيد قواه .

١٢

لم تأسف جولشتاى على ابنها . فقد نسيته . سارت محنية الظهر خلف الآخرين وكانت تلمس الرمل عندما يخيل اليها ان عليه شيئا ما . وامسك الملا شيركيزوف بثوب جولشتاى محاولا دوما ان يتذكر بانه على قيد الحياة . واستولى القنوط على نورمحمد فحمل ايديهم بيديه . كان يؤمل فى تربية هذه الصبية واطعامها ليتمتع بها كامرأة ثم يبيعها لغيره . كان يتعذب لقلّة النساء فى شعب الجان ، وحتى اللواتى لازلن على قيد الحياة شخن وهرمن ، ولا امل الا فى ايديهم ، فهى لا تزال صغيرة . للنساء قيمة اكبر من الرجال ، فهن يصلحن للعمل وللسلوى فى وقت معا ، لكن الرجال ايضا يمكن ان يباعوا بثمان جيد

إذا لم يقضوا نحبهم جميعا فى الطريق الطويل .
فى ذلك الصباح ، عندما افتقدوا شاغاتايف فى الموقف
ابتسم نورمحمد وسجل فى المفكرة ملاحظة دقيقة عن اختفائه ،
وهو يجمع ، تحوطا للطوارئ ، معلومات لكتابة تقرير عن مهمته .
وتصور ان شاغاتايف فر بجلده وحيدا لينقذ نفسه شأن اى
كائن حي ضعيف النفس . وصارت حال نورمحمد افضل
بدونه . فالتاس لم يعودوا يسألونه عما اذا كانوا سيصلون قريبا
الى وادى القصب ام لا ، ولا يتذكرون الطعام أبدا . كان
نورمحمد يمكن ان يسقط هو الآخر من شدة الضعف ، لكنه
لا يزال يعتمد على الاحتياطي القديم فى بدنه ، لانه اكل
الكثير من الرز واللحوم والفواكه عندما عاش فى الواحات وكان
يتسلل الى افغانستان ويذهب الى الامير جونايد الذى فر الى
هناك من زمان .

فى ذلك اليوم سار سفيان مع الريح صوب الجهة التى
تدحرج اليها اشواك ابراهيم وتنداح الاعشاب الداوية المنتزعة
من تربتها . فهو يعرف ان الاغنام تسير الآن فى هذا الاتجاه
طالما طمست الريح نهائيا درب العلف الذى تنمو فيه اعشاب
ثابتة على مسافات متباعدة ، كالواحات . اراد الباقون ان
يتبعوا سفيان ، لكن نورمحمد امرهم بالسير فى الجهة المعاكسة ،
ضد الريح ، نحو الجنوب الشرقى . والتصق بايديهم ليتحسس
بواكير نهديها ، لكنه لم يلمس سوى اضلاعها الرقيقة .

التفت نورمحمد الى الجميع . كانوا يتمايلون من شدة
الريح . وتعصف الرمال بارجلهم وترطم بهم الاعشاب الميتة
وقد اجتشتها الريح من الجذور على امتداد الرحاب الرملية الفقراء
التي اجتاحتها . سقط البعض من شدة الريح وصار آخرون

عبر النعاس فهاموا فى جهات متفرقة وضيعوا بعضهم البعض
فى عتمة الرمال الزاحفة .
وتوقف نورمحمد .

كانت الريح تهب من الجنوب الشرقى بشدة رتيبة مرهقة
وكأنها تنبعث من مكنة . تفرق الشعب فى الريح ولم يعد
يسمع صوت نورمحمد او لا يعترف بهذا الصوت الذى نادى
كل واحد منهم باسمه وطلب منه ان يسير الى الامام خلفه .
وكان نورمحمد نفسه يتنفس بعسر من الصبر والعطش والجوع ،
وانسدل على عقله السليم ظل اللامبالاة بمصيره . كان يتصور
سابقا انه سيقود هذا الشعب التافه الخائر الى افغانستان ويبيعه
عبيدا الى الامراء السابقين ، ويعيش باقى حياته فى بحبوحة
وسعادة فى منزل يعج بالخيرات على ضفة نهر فى احد
الوديان الافغانية ، وعندذاك لا يطأطئ رأسه للنقابة والتعاونية ،
ولا يرغم قلبه المستشار المفحم على السكوت . اما الآن فقد
رأى نورمحمد الذى تضرب الرمال والريح رجله ان شعب الجان
يتساقط او يتفرق فاقتدا رشده . فقد غدا جسم كل شخص
خاويا وقلبه يموت بالتدريج . لن يصلوا الى افغانستان ، واذا
وصلوا لن يتمكنوا من القيام بأبسط عمل ، لانه لم يبق لديهم
الحد الأدنى من الاهتمام بالعيش الذى يحتاج اليه العبد ليكون
عبدا .

ظل نورمحمد واقفا امدا طويلا حتى توزع الشعب فى
عتمة الريح وتهوى راقدا هناك فى الموت او النوم . قبع
ايديهم قرب حنجرته وراحت تتنفس فى غيبوبة هادئة . حملها
نورمحمد بحذر ، وظل ينظر الى الشعب الهالك ويراقبه بتلذذ
وارتياح ناسيا العطش والجوع . وجلس سفيان على الرمل محنى

الظهر . وكانت جولشتاي المحدودة راقدة على الارض من زمان ، واستعد زوجها الضربير شيركيزوف للرقاد خلفها على الجهة المحمية من الريح وكأنه يبحث عن اسباب الراحة في مخدع الزوجية . وخلع القره قلباقي النجيف ، وهو كهل اسمه تاغان ، سرواله ورداءه ورماهما الى الريح وغاص في الرمل عاريا وظل هناك لا يكاد يرى من تحت الرمل . وشعر نورمحمد بالارتياح لان عدد سكان الاتحاد السوفيتي نقص بمقدار شعب كامل . ومع ان احدا لا يعرف هذا الشعب ، فان منفعة الدولة تقلصت ، والعمال الذين كانوا في زمن ما قد حفروا انهارا كاملة من اجل البايات لن يحفروا شيئا بعد الآن ، لن يحفروا حتى القبور لجثثهم .

شعر نورمحمد بالارتياح وباكثر من الارتياح ، فقد بدأ يتمايل قليلا في رقصة ما وهو يتصور الناس في نومهم الاخير على الرمال . صار يقيم نفسه بشمن اغلى ومترلة اعلى ، ستتكاثر حصته من خيرات الصحراء وثروات الارض كلها لان عدد الاحياء يتناقص . وليس معروفا هل كان سيحصل ، لو باع هذا الشعب كله عبيدا ، على لذة اكبر من لذته الآن عندما فقدته فانسعت الطبيعة واغلقت دفعة واحدة افواه اكثر الفقراء نهما . استقر رأى نورمحمد على الذهاب الى افغانستان نهائيا وعزم ان يأخذ معه ايديم لبييعها هناك فيعوض ولو قليلا عن خسائر عمله في الاتحاد السوفيتي .

خفت الريح فجأة وغدا الجو اكثر صفاء . التصق نورمحمد بالصبيبة ففتحت عينيها . ومضى الى شعب زملي مريح ليلاطفها هناك بعد ان اشتد تلهفه الى التمتع بالجسد الانثوي . فلا الجوع ولا المصيبة المتواصلة ما كان

يوسعهما ان يبيدا فيه الحب الرجولي الذي يعيش بين جوانحه بنهم لا يشبع ويشق طريقه بنفسه عبر كل المصائب القاسية ولا يعطى صاحبه من قوته شيئا ليعوض به عن ضعفه . كان بإمكانه ان يعانق المرأة ويلقحها فتحمل منه وهو مريض او مخبول او محتضر .

وجد نورمحمد مكانا متزويا فوضع الصبيبة ووقد قربها . وغطت ايديم من جديد في نوم عميق . خلع ثيابها البالية الوسخة ورأى جسدا طفوليا عاريا لم يعود عليه فلم يتمكن في البداية من اشباع شهوته . ايديم صغيرة كطفلة في الخامسة من العمر ، وعظامها ملبسة بغشاء ازرق فاتح ليس هناك ما يحشوه ليتحول الى بشرة حقيقية . الا ان النهدين الانثويين نبثا من خلال هذا الغشاء ، من الهيكل العظمي تقريبا ، واخذت تنتفخ مواضع الامومة المرتقبة دون ان تلتفت الى فقر سائر اجزاء الجسم . ولعل ايديم قد بلغت الثانية عشرة او الثالثة عشرة من العمر ، ولعل بالامكان تزوجها لو تناولت طعاما .

مر طيران كبيران باجنحة قاتمة على ارتفاع قليل فوق نورمحمد وايديم . شيعهما نورمحمد بنظراته ، ثم عانق ايديم لان الوقت ضيق وليس لديه من القوى ما يكفيه للصبر على حبه . استيقظت ايديم من الألم . كانت قد رأت مرارا كيف ينام الكبار ويحبون بعضهم بعضا . وهي تعرف هذه الامور معرفة دقيقة . وعندما حزرت الآن بما يجري اخذت تكرر افعال الكبار كامرأة محنكة ، مما ادهش نورمحمد بعض الشيء . تطلعت اليه ايديم بصمت وبعينين فضوليتين مغرورقتين بالدموع من الألم والتحمل . كانت كأنما تنتظر شيئا سيجري لها

الآن ، شيئا مجهولا او طيبا ، ولكن لم يحدث ما كانت
تنتظره ، فلم تعد تبدى اهتماما .
— اذهب . الافضل ان ابقى لوحدي — قالت ايديم
لنورمحمد لانها لم تتذوق فى الحب اى طعم لحياة جديدة .
لكن نورمحمد لم يتركها حتى اشبع غريزته ، فبدون ذلك
ما كان يستطيع العيش .

خيم الليل على الصحراء ، وانقضى فى الظلام . بعض
الاشخاص الذين سقطوا امس على الرمال بسبب الريح نهضوا
فى الصباح وراحوا يتلفتون فى الضوء الصافى فى سكون نهار
جديد . على مقربة من المكان ، وراء كثيب اصم ، دوت
طلقة . استيقظ سفيان وجلس يتنصت . وهرعت اليه ايديم
من نورمحمد الذى يغط فى النوم بعيدا .

كان الشعب كله حيا ، لكن الحياة فيه لم تعد تتوقف
على ارادته ، وهو عاجز تقريبا عن تحملها . كانوا ينظرون
الى الامام مع انهم لا يدركون بوضوح كيف ينبغي لهم ان
يستفيدوا من وجودهم . وحتى العيون السوداء غدت فاتحة اللون
من اللامبالاة ولم يعد فيها ما يدل على الانتباه او حتى على
وميض البصر ، وكأنها عمياء او مستهلكة عن اخرها . ايديم وحدها
تريد ان تظل حية ، فلم تبدد طفولتها بعد ولم تستنفد احتياطي
الطاقة الذى وهبتها اياه أمها . وهى تتطلع الى الرمل بعينين
لا تزالان براقتين .

دوت اطلاقتان اخريان وراء الكثيب . فمضت ايديم الى
هناك لترى ما حدث ، لكنها لم تجد فى الحال مكان اطلاق
النار . ولم يتوجه الى هناك احد غيرها من الناس ، فهم لا
يخشون عدوا ولا ينتظرون صديقا او معينا .

تجاوزت ايديم الكثيب الرابع فوق بصرها على شخص
ناثم او ميت فى اسفله قرب طير قاتم اللون . هبطت الصبية
من المنحدر الرملى فرأت نزار شاغاتايف . لمست وجهه بيديها ،
فكان دافئا ، وانفاسه تتصاعد من الفم .
— نم — همست ايديم واغلقت باصابعها جفون نزار التى
انفجرت فى المنام .

ثم فكت ايديم الطير القليل من سير الحزام وسحبته من
رجله على الرمال الى قومها .

تحشد الجميع حول الطير وراحوا يتطلعون اليه بلا نهم ،
فقد نسوا الامل فى الطعام . وعندذاك اخذت ايديم سكينها
من سروال تاغان الملقى على الارض وراحت تنتف ريش
الطير وتقطعه قطعاً صغيرة . وقدمت لكل من يستطيع الاكل
شيئا من لحم الطير ، وكانت تمتص دم كل قطعة وعصيرها
قبل ان تسلمها . والتهم الناس تلك القطع ونهشوا العظام عن
آخرها وامتصوا الريش المتوف لكنهم لم يشبعوا ، بل ثارت
شهيتهم ، وكان الافضل ان لا يأكلوا شيئا ولا يبددوا آخر
قواهم على المضغ والهضم .

وذهبت ايديم الى نزار ثانية . وتبعها الناس ظانين ان
هناك المزيد من الطيور القليلة السمينة . لكنهم ساروا هذه
المرّة ببطء شديد ، وكان البعض يزحفون دافعين اجسادهم
بايديهم . وكانت ام نزار تزحف هى الاخرى وتساعد الملا
شبركينزوف على الزحف . وظل البعض فى مكانهم لانهم لم
يعودوا قادرين على حمل هياكلهم العظمية . وكانت ايديم
تسير قليلا ثم تنتظر طويلا الناس الذين يجرجرون اقدامهم او
يزحفون خلفها . ولم يصل الشعب الى الكثيب الرملى الذى

يرقد وراءه نزار الا في المساء . وكانت ايديهم طول الوقت الذي يتحرك فيه الناس تسمع احتكاك العظام وصريرها داخل اجسادهم ، يبدو ان الدهون في مفاصلهم جفت نهائيا وصارت العظام تعاني العذاب .

شاهد نور محمد تحرك الشعب من بعيد ، لكنه لم يهتم به . كان يريد في البداية ان يبحث حواله عن مصدر للماء وان كان مالحا ، والا فلن يصل الى واحة حيوى . وقد عزم على العودة الى ايديهم بعد ان يجد الماء ليسقيها ثم يغادر هذه البقاع معها نهائيا الى افغانستان .

١٣

بكى شاغاثايف من الألم في المنام واستيقظ متصورا ان الألم مجرد حلم سيبتدد . ابتعد عنه طيران قاتمان — الانثى السابقة وذكر جديد . نفرا بدنه ثلاث مرات بمنقارين مصاصين ومزقا لحمه حتى العظام على الصدر والكتف والركبة . ابتعد الطيران قليلا وتوقفا ولويا رقبتيهما وتطلعا اليه بعين واحدة لكل منهما . اخرج نزار مسدسه وعجل ليطلق النار على الطيرين قبل ان تنترف جراحه دما غزيرا وقبل ان تتبدد القوى التي استجمعتها في النوم . حلق الطيران ، وتمكن نزار من اطلاق رصاصتين ، فخفض احد الطيرين جناحيه وحط وعقف رجله تحتة في الحال ، ثم وضع رأسه على الرمل ومد رقبته بكاملها وكأن التعب ألم به حتى مل منه . وسال الدم من حنجرة الطير وغمر الريش والرمل القريب . وانسجبت اللامبالاة على عيني الطير فغطتهما غشاوة رمادية . وحلق الطير الآخر

الى عنان السماء ونعق من هناك نعيقا مدويا قصيرا يشبه دوى كهف خال واختفى في ضباب اشعة الشمس .

ولاحت ايديهم من وراء الكثيب . مضت الى الطير القليل وسحبته من رجله قرب نزار .

— ايديهم — ناداها نزار .

اقتربت الصبية منه فقال لها :

— اعطيني لأشرب .

قربت ايديهم الطير الميت وجثت على ركبتيها ووضعت حنجرتهم على شفتي نزار واخذت تضغط على الرقبة الناقعة ليصب الدم في فمه . وقالت له ايديهم :

— ابقى هادئا وتظاهر بأنك ميت وستحط عليك الطيور وتأتيك بنات آوى ، اقلها وستقتات عليها . . .

— اين الآخرون ؟ — سألتها نزار .

— قادمون ، هناك — اشارت ايديهم صوبهم .

طلب منها نزار ان تحضر له ماء ، اذا كان عندهم ماء ، وتغسل جراحه . تفحصت ايديهم الجراح واستخرجت منها صوف الثياب ، ثم لعقتها بلسانها لعلمها بان اللعاب يداوى الابدان . وقالت له :

— لا بأس ، لن تموت ، فالجراح صغيرة . لا تتحرك ، والا فلن تأتى الطيور .

سحبت ايديهم النسر الى ما وراء الهضبة الرملية حيث توقف قومها في سكون فج عميق . اكلوا الطير في الحال . واذا كان الناس البعيدون الذين يتناولون الطعام يوميا لا يمكن ان يشعروا باى تخفيف من الجوع اذا اكلوا قطعة صغيرة من لحم الطير المتوف كالتى قدمتها ايديهم لكل واحد من الحاضرين

فالانسان الجائع حقا هنا يكاد يشبع من هذا الطعام التزر ،
وعلى اية حال ، فان بدنه حصل على الامل والسلوى .
وخيم الظلام من جديد . حفر سفيان الرمل بيديه حتى
بلغ طبقة ندية واخذ يمضغه من شدة العطش . رأى البعض
ما يفعله سفيان فاقربوا منه وشاطروه عشاء الرمل والماء . خشى
نورمحمد البرد فجاء الى الناس ليقضى الليل محشورا بينهم
حتى يتدفأ .

وفي الصباح الباكر ايقظ نورمحمد ايديم وحملها على
يديه ومضى صوب افغانستان نهائيا .

ظل شاغاتايف راقدا ينتظر قدوم الطيور . حسب الخراطيش
المتبقية لديه فوجدها سبعا . كان يعرف بالتأكد ان الطيور
ستأتى من جديد . فقد قتل الذكر بينما طارت الانثى ذات
الجناحين الملونين ، وستعود مع غيرها لتجهز على الانسان
الذى قتل زوجها الاول الذى ربما تحبه اكثر من سائر الخلق .
تملصت ايديم من يدي نورمحمد وهرعت الى نزار لتودعه .
قبلها ولاطف وجهها بيده النحيفة وابتمس . كانت اثار الظلام
لا تزال باقية ، وظل نورمحمد ينتظر الصبية من بعيد . وقال
لها نزار :

— لا تذهى يا ايديم الى اى مكان . سنحصل قريبا
على سعادتنا .

— اعرف ذلك — قالت ايديم — لكنه يأمرنى . . .

— اذهبه الي — قال نزار .

فاقتادت ايديم نورمحمد الكبير من يده .

— تحضر ؟ — سأل نورمحمد من نزار — ظننت ان
النسر اكلتك من زمان .

— لماذا تأخذ الصبية معك ؟ — سأل نزار .
— طالما آخذها معى فذلك ضرورى — اجاب نورمحمد .
— فلتبق معنا — قال نزار .
وجلست ايديم قرب نزار على الرمل . وقالت :
— سأتبقى . انا صغيرة ، وسأتعب من المشى . لا
أريد .

استند شاغاتايف الى مرفقه وجذب الصبية اليه . كان
الندى قد تساقط ، ولاحت قطرات منه على رأس ايديم
فلعقها نزار بلسانه خلصة . وقال لنورمحمد :
— اذهب لوحذك .

— حان الوقت للموتى كي يصمتوا — قال نورمحمد —
ادر وجهك الى الارض ونم ! — ورفس وجه نزار بجزمته
المشعة .

سقط نزار على ظهره ، ولاحظ ان نورمحمد يحمل فى
عبه حتى الآن حقيبة مستخدم متوسط المرتبة . لعل نورمحمد
يعتبر حياته كلها مجرد ايفاد مؤقت الى الاماكن النائية ، وان
المتعة الوحيدة لوجوده هى ترك المكان الذى كان فيه والذهاب
الى جهة اخرى ، وليهلك الباقون فى ذاك المكان !

نهض نزار فى الحال دون سابق تفكير . كان هذه
المرة خاليا خفيفا ، جسمه طليق يتأرجح كأنما لا وزن له .
وغرزت ايديم يديها فى بطنه لتسنده كيلا يقع . لكن
نورمحمد حمل ايديم من منتصف بدنهما ومضى بها . وهرع
نزار فى اثرهما ، لكنه هوى على الارض ، ونهض ثانية
ليركز قواه . اختلطت الامور عليه من شدة الضعف ، فصار
العالم يلوح له ولا يلوح . سار نورمحمد على مهل فى الامام ،

فهو لا يخشى من شبح يحضر .

— الى اين انت ؟ — صاح نزار بكل ما يستطيع .

وانتجت ايديم في يدي نورمحمد :

— خذني يا نزار شاغاتايف . . . لا اريد الذهاب الى

افغانستان ، فهناك يعيش البرجوازيون . . .

من اين تعرف بالبرجوازيين ؟ . . لم يسقط شاغاتايف

ثانية . فقد عادت اليه فكرة الحياة الظاهرة . رفع المسدس

بيد غدت متصلة وامر نورمحمد بان يتوقف . وعندما رأى نورمحمد

المسدس اطلق ساقيه للريح . ولمحت ايديم دملا على رقبة

نورمحمد فانشبت اظافرها الطويلة فيه . واطلق نورمحمد صرخة

مرعبة وصفع الصبية على وجهها ، لكن الصفعة جاءت ضعيفة

لانه لا مجال له كي يرفع يده ، فلم تتألم ايديم كثيرا ولم

ترفع يديها عن الدم ، بل تعلقت على رقبة نورمحمد ،

وعند ذاك افلتتها لكي يضربها بشدة . وقالت له ايديم :

— انظر ما اشد الالم . قالوا لك لا تسرقني ، لكنك

سرقنتي . فانت من الاعداء . خذ ، اذن ، تحمل !

وسال دم ثخين من دمل نورمحمد ، فقد انتزعت ايديم

قشرته اليابسة .

أن نورمحمد وتخلص من الصبية بصعوبة . التفت الى

نزار وحمل ايديم من جديد وركض بها . فهو لا يحب العمل

مجانا . لم يستطع نزار ان يرديه قتيلا خوفا من اصابة ايديم

التي احتضنها نورمحمد هذه المرة الى صدره . فاطلق النار

على ساقيه . واصابه . واقتلع نورمحمد من الارض كغرس

غريب لا نفع فيه . وهوى على الرمل وانغرزت كتفه فيه ،

وكان يحتمل ان يكسر عظام ايديم ، لكنها انقذت السى

جانب قبل ان يسقط نورمحمد ، ونهضت فورا وركضت صوب

نزار الذى هم باطلاق النار ثانية كي يجهز على نورمحمد ،

لكنه عدل عن ذلك فالخراطيش قليلة وينبغي حفظها للصيد

الذى يطعم شعبه . رقد نورمحمد على الرمل بضع ثوان ثم انطلق هاربا

وقفز الى سفح الكثيب الشديد الانحدار وكأنه رجل سليم قوى .

كان يصرخ من الالم راكضا ، فالجري يمعن في تمزيق

جرحه ، لكنه ما كان يسمع صراخه . واختفى وراء الكثيب

الرملى وانتهى صوته بالنسبة لنزار الى الابد . اما ايديم فكانت

واقفة صعقتها الدهشة وهى تنظر فى اثر نورمحمد الذى اختفى .

وكانت تفكر : هل يموت قريبا ام لا ؟

ومضت مع شاغاتايف . وقالت له :

— اذهب بسرعة وارقد فى مكانك على الرمال حتى

تأتى الطيور ، والا فليس عندنا ما نأكله .

بلغ شاغاتايف مكانه وهو يزداد ضعفا وهوى عليه .

وتوجهت ايديم صوب موقف الشعب . كان النهار فى بدايته ،

لكن الناس رقدوا جميعا للاقتصاد فى الحياة اثناء النوم او

الهذيان الفارغ ملتحفين بقايا الاسمال .

ظل شاغاتايف لوحده وراء الكثيب الرملى . حاول ان

لا يفكر الا بما هو ضرورى جدا لانقاذ حياة الجميع . مضت

انثى النسر محلقة تعيسة من جديد . اذا كان قد صرع ذكرها

فى المرة الاولى فمن قتل فى المرة الثانية يا ترى ؟ ربما قتل

ذكرها الثانى . . . كلا ، ليس ذاك من عادات الطيور .

يعنى انه قتل رفيقها او احد اقارب ذكرها ، ربما اخاه الذى

دعته لمعاونتها فى الانتقام لزوجها . لكنه قتل ايضا ، فمع

من ستأتى هذه المرة ؟ اذا لم تجد هناك ، وراء الافق ،

او فى السموات البعيدة ، احدا يعيها فى القتال فستأتى
لوحدها على اية حال . شاغاتها فى ذلك ، فهو
يعرف مشاعر الجزع الفؤاد عند الحيوانات والطير البرية . فهي
لا تعرف البكاء لتواسى نفسها بالدموع وهزال القلب وتصفح
عن العدو . انها تهاجم لتتق آلامها فى الكفاح ، داخل
بدن العدو الميت او فى هلاكها شخصيا .

خيل لشاغاتها وهو يقضى حياته الثانية فى البادية انه
يمضى ويبعد طوال الوقت . وقد اخذ ينسى معالم مدينة
موسكو ، واحتفظت ذاكرته بوجه كسينيا بالسلامح
العامة الخالية من الحياة ، وهو يأسف لذلك ويجهد ذهنه
ليراها احيانا ويتخيل صورتها ، ويلاحظ دوما ان شفيتها
تهمسان له بشيء ، لكنه لا يفهم صوتها ولا يسمعه لبعد
المسافة . عيناها الملونتان تنظران اليه باستغراب ، وربما بحزن
لطول غيابه . الا ان ذلك مجرد شعور مهدى . فان كسينيا
فى الواقع ربما نسيته كليا ، فهي ما زالت صبية صغيرة ،
تردح بصدرها الحياة الرائعة التى تستهويها ، ولا يبقى فيه
مكان لحفظ كل الانطباعات المنقرضة .

مر النهار فارغا دون ان يأتى بالخلاص . ونزار يعرف
ان من المستحيل اطعام القوم بطير قتيل اخر او طيرين ،
لكنه لم يكن من الرجال العظام ولم يتمكن من ابتداء شيء
انجع يقوم به الآن . ومع ان صيد النسر امر تافه ، فهو
الشئ الوحيد الذى يستطيع القيام به حتى يزيله الضعف
والخور . ولو كان على قوته السابقة لتفقد الصحراء كله على
مسافة عشرات الكيلومترات حوله ولعثر على الاغنام البرية
واقنادها الى هنا . ولو كان بوسع احد ان يسير خمسين او

مائة كيلومتر الى اقرب تلغراف لطلب النجدة من طشقند .
يا ليت طائرة تلوح فى الجو . كلا ، من المستبعد ان تظهر
الطائرات هنا ، فلم تكتشف فى هذه الارض بعد كنز تستحق استخدام
الطائرة الباهظة التكاليف . ولذا كان العمل التافه القليل النفع
الذى يتلخص فى الصبر والتظاهر بالموت يبعث السلوى فى
نفس نزار ، لكنه عزم على الذهاب غدا مع الشعب الى
موطنه ، الى وادى القصب ، مهما كانت الملابس .

وغدا نزار . ومر شريط العالم امامه من جديد متعشا
وضاء صاخبا تارة ، مبتعدا فى غيبوبة معتمة تارة اخرى ،
ثم يعود من هناك ويتسرب الى وعى نزار عبر عظام رأسه
المريضة .

وفى المساء تناهت اليه اصوات مبهمة . واستعد لها بان
دس يده اليمنى تحت ظهره حيث يستقر المسدس . لكنه
اخطأ الظن . فلم يكن ذلك حفيف نسور محلقة . كانت
تلك هى امه . اقتربت منه تحمل رأسها متهدلا ولمست بدنه
بيديها وتطلعت بعينين تجولان فى الرمال وفى البقاع القريبة .
ما كانت تريد ان تتأكد هل ابنها حي ام ميت ، كانت
تبحث عن الطير القتيلة بعينين جف ماؤهما من هول المصيبة .
كان صرير غريب ينبعث من بدن امه . فعظامها اليابسة تحتك
ببعضها البعض بعسر والم . وابتعدت جولشتاى ببطء وهى تريح
الرمل بيديها الى الوراء لتسهيل تقدمها الى الامام .

وسرعان ما سمع نزار من جديد اصوات الكثير من الهياكل
العظمية التى تحتك اجزاؤها ببعضها البعض . اخذ يصارع
وعيه الناعس الغائر حتى ركز انتباهه . وكان شئ ما يتحرك
وراء الكثيب الرمل . كان الشيخ فانكا يتطلع اليه

من هناك ، ونهض قربه سفيان الذى جاء ، على ما يبدو ، من تحت ، من الجانب الثانى للكثيب ، ثم لاح وجه آخر لا يرى بوضوح ، وكانت هناك ايديهم وحتى الملا شيركيزوف رغم انه لا يرى النور . واخذت الوجوه البشرية تزداد بالتدرج ، وكلها تنظر صوب نزار ، وراح هو ينظر اليها ايضا . ولم يعد يسمع اصوات احتكاك العظام المحتضرة . كانت عيون كثيرة تراقب الرجل الراقد ، عيون بلا هوية ، عيون خالية من الجشع والرجاء . وما عدا ايديهم كانت عيون الجميع تنظر وكأنها عمياء مثل عيني الملا شيركيزوف . لم تبق فى قلوبهم قوة تجعل عيونهم قادرة على التحرك والتعبير عن افكار ما . كل ما جاء بهم الى هنا هو الشعور بالطعام ، لكن هذا الشعور لم يكن مهتاجا او قاسيا كما عند الانسان العادى ، بل كان غفيفا يمكنه ان يبقى دون اشباع ، لانه لم يعد مدعوما من جانب العقل . فماذا ينتظرون من شاغاتايف ؟ وهل يكفيهم طير او اثنان ؟ كلا . لكن احزانهم يمكن ان تتحول الى فرحة لو استلم كل منهم قطعة من لحم الطير المتوف ، ليس من اجل الشبع ، بل من اجل الالتقاء بالحياة المشتركة وبيعهم البعض . وتشحيم هياكلهم العظمية الجافة المحتكة ، مما يمنحهم الاحساس بالواقع ويجعلهم يتذكرون وجودهم . فالطعام هنا يغذى الروح ويعيد فى الوقت ذاته بريق العيون الوادعة الخالية حتى ترى ضوء الشمس الموزع على الارض .

وخيل لنزار ان البشرية كلها ، لو مثلت الآن امامه ، ستنظر اليه بنفس تلك النظرة المفعمة بالامل والمستعدة لتحمل خيبة الامل والعودة من جديد لممارسة الحياة المتنوعة التى لا مفر منها .

وابتسم شاغاتايف . فهو يعرف ان المصائب والالام مجرد وهم واحلام ، ويمكن حتى لايديهم ان تبددها بقواها الطفولية . ففى القلب وفى العالم تنبض ، كما فى القفص ، سعادة مقيدة لم يجربها احد بعد . وكل انسان يشعر بقوتها ، لكنه يشعر بها كآلم لا غير ، لان فعل السعادة مضغوط ، مشوه ، مخنوق كقلب فى هيكل عظمى . سيغير نزار مصير شعبه فى القريب العاجل . ولوح بيده للناس الذين يتطلعون اليه . وفهمته ايديهم وامرت الجميع بان ينصرفوا كيلا يشوشوا الصيد عليه .

فى مستهل الليل ، عندما غرقوا جميعا فى بحر النسيان ، ذهبت ايديهم وحيدة لتبحث عن الاغنام البرية فى الصحراء . وطلبت من سفيان والشيخ فانكا ان يحفرا الرمل بايديهما فى واد ضيق بين الكثبان الطويلة . فقد وجدت هناك تحت الرمال طينا يتجمع فيه الماء ، وشربت قطرات من احدى الحفر . وهى تدرك ان الماء طعام عندما لا يوجد طعام .

الليل يسرى فى الرمال . ونزار راقد على جنبه الايمن يسبح فى الرؤى والاحلام التى ازاحت العطش والجوع والخوف وكل الآلام . كان يرقص فى الحديقة المنارة بالمصاييح الكهربائية مع كسينيا التى ترعرعت وكبرت ، فى ليلة صيف تفوح بشذى التربة والطفولة ، قبيل الفجر الذى يوشح قمم الحور كصوت بعيد لم يبلغ المسامع بعد . وتشعر كسينيا بارهاق لذيذ وعيناها مغمضتان ، كما لو كانت نائمة ، وهو يحتضنها

بحذر . وتهب من الشرق ، من جهة الفجر ، ريح تهب
الاشجار وتداعب فساتين النساء الراقصات . وتنساب الموسيقى ،
وينسكب نور الفجر والريح على الوجوه الصامتة السعيدة . ثم
صمتت الموسيقى وغمر ضوء الصباح المكان ، وحمل نزار كسينيا
النائمة على يديه . وفجأة رأى ظلاما بدلا من النور وشعر بألم
في رأسه وسقط ، واستدار على ظهره ، اثناء السقوط ، كيلا
تصاب كسينيا التي يحملها امامه كطفلة صغيرة ، استدار لتسقط
عليه ولا تصاب باذى . وامسك بها بكلتا يديه ، بمزيد من
القوة والشدة ، لكنها لم تعد معه . وصرخ وقفز ، فى الظلمة ،
من الارض واعادته اليها ضربتان شديدتان أخريان على الرأس
والصدر .

كانت طيور كبيرة تقع عليه وترتفع الى الجو من جديد
بعد ان تنهشه بمناقيرها وتمزق ثيابه وجسده بمخالبها . حاول
ان ينهض ، لكنه ما كان يستطيع بسرعة ، فتخوّر قواه من
الالم ومن الضربات الجديدة التى انهالت بها عليه الطيور
الثقيلة . كان يتقلب ويزيح الرمال بيديه فى يأس مستميت
ملفعا بظلام الليل الخالى ، نازفا البقية الباقية من دمه .
اراد ان يصرخ ليستثير الهياج فى نفسه من الاعماق ، من
بقايا الحياة المضمحلة . الا ان الضربات القارصة من مناقير
النسور ومخالبها التى تمزق العروق قد قطعت صراخه قبل ان
يتمكن الشهيق من دخول الرئتين . وكانت ريح اجنحة النسور
تعصف به فلم يتمكن من التنفس فى هذه العاصفة التى
جعلته يغص بالزغب والريش المتطايرين . وادرك نزار انه تلقى
الضربتين الاوليين بمنقارين على رأسه ، قرب القفا ، والدم
يسيل منهما الآن على رقبته ، ثم ان احدى حلمتى الصدر

قد انتزعت على ما يبدو ، فالجرح فى هذا الموضع يشير الى
واخزا صارخا .

واخيرا تمكن نزار من النهوض للحظة . نشر يديه استعدادا
لخطف اول نسر يداهم حتى يخنقه خنقا . وكانت النسور فى
الجو وقد قطعت شوطا للهجوم عليه . داس على مسدسه
وانحنى بسرعة ليلتقطه ، لكن النسور عاجلته وهجمت على
ظهره ، الا انه تنبه هذه المرة واستطاع ان يحسب عدد
النسور من عدد جراحه الجديدة بالمناقير . كانت النسور ثلاثة .
امتشق المسدس وانقلب على ظهره ليقدف او يسحق النسور
التي انشبت مناقيرها ومخالبها فيه . الا ان قواه كادت تخونه
فهوى كيفما اتفق ، على جنبه ، فانسحبت النسور جانبا
بتحليق واطى . حاول نزار ان ينهض ليهدف بشكل افضل ،
فصرت كل اجزاء هيكله العظمى المعروق كما تصر عظام
سائر ابناء شعبه . انصت الى الصرير وشعر بالاسف على بدنه
وعظامه ، فقد جمعتها له امه ذات مرة من نطفتها البائسة
ليس بسبب الحب والمتعة واللذة ، بل بسبب الضرورة المعيشية .
وتصور نفسه حاجة للغير ، اخر املاك المعوزين لكنه يتعرض
الآن للتبذير جزافا ، فاشتد هياجه وفى الحال جلس على
الرمل بثبات ، وانطلقت النسور تهاجمه من جديد وقد تلاصقت
اجنحتها دون ان تشفق عاليا فى السماء . جعلها نزار تقترب
اكثر ثم ضغط على الزناد . رآها الان بوضوح وكانت ثلاثة
بالفعل ، واطلق النار بتشنين دقيق وبيروود ، محافظا على نفسه
كشخص اخر غيره ، كصديق عاجز عزيز عليه . اطلق خمس
عيارات على النسور المنطلقة التى تكاد تنطحه . ومقرت فوقه
على ارتفاع واطى والهواء يثر من انطلاقتها التى لم تتمكن من

ايقافها لانها كانت اما ميتة واما مصابة بجروح مميتة . وهوت على رمل الليل القاتم على بعد بضعة امتار عن شاغاتايف . كان نزار يرتعش من الذعر والتعب . حفر لنفسه كهفا في الرمل وورقه متكوراً مقرصاً ليتدفأ ويغفو دون ان يعبأ بالدم الذي سترفه جراحه الممزقة اثناء النوم ودون ان يهتم بصحته وحياته المقبلة .

قطعت ايديم شوطا كبيرا وابتعدت كثيرا في تلك الليلة حتى هدها التعب فرقدت وغفت دون ان تسمع عيارات نزار . لكنها سرعان ما افاقت قلقة ، فهي تعلم انه لا يجوز لها ان تنام طويلا ، وواصلت سيرها . ارتفع القمر الباهت في منتصف الليل من وراء الارض البعيدة وانا الرمال بضوء واطى . وتطلعت ايديم حولها بعينين ثاقبتين . فهي تعرف بان من المستحيل ان تخلو الارض تماما الآن . واذا سار الانسان على الرمال يوما كاملا لا بد من ان يصادف شيئا ما او يعثر على شيء . لا بد ان يصادف ماء او اغناما او يرى طيوراً متنوعة او يعثر على حمار ضال او تتراكم قربه مختلف الحيوانات . قال لها المسنون ان في الصحراء خيرات بقدر ما في الارض البعيدة ، لكن عدد الناس فيها قليل ، ولذا يظنون انها خالية تماما . الا ان ايديم لا تعرف ارضا اغني وافضل من الرمال او من احراش القصب في احوار اموداريا .

وقفت ايديم على اعلى كتيب . جلب انتباهها ضوء القمر الذي يومض خافتا في اتجاه واحد ، ففى باقى الارض ينساب نوره بهدوء ، بينما يشوش عليه شيء ما في ذاك الاتجاه . ذهبت الى هناك وسرعان ما رأت نعجة صغيرة فتية

تنبش باظلافها الرمل على قمة تلة غير عالية وتشره على نحو بدا من بعيد ، في الظلام المخلخل ، فوق اشباح وخيالات الصحراء المتموجة ، وكأنه حدث هام ملفع بالالغاز . النعجة لا تزال فتية عفيفة . لعلها كانت تقتلع اعشاب الربيع المدفونة تحت الرمال وتقتات عليها . ارتقت ايديم التلة خلسة وامسكت بالنعجة فلم تبد مقاومة لانها لا تعرف شيئا عن الانسان . طرحتها ايديم وارادت ان تغرز اسنانها في نحرها الضعيف لترتوى من دمها وتشبع . لكنها رأت في تلك اللحظة على سفح الكتيب جمعا من الاغنام تلهث كالبحر وتحفر الرمل باظلافها لتبلغ الماء الكامن في اعماقه . تركت ايديم النعجة الفتية وركضت من اعلى الكتيب الى قطع الاغنام . وقبل ان تبلغ اقرب نعجة اليها قفز صوبها خروف وتوقف امامها محنى الرأس استعدادا للهجوم . جلست ايديم امامه برهة وراحت تفكر بذهنها الصغير : ما العمل ؟ عدت الاغنام في القطيع فكانت اربعة وعشرين رأسا مع النعجة الفتية وجديين وجدا لهما مرتعا هنا . زحمت بهدوء الى اقرب نعجة تحفر الرمال ، ومضى الخروف في اثرها منتظرا . جربت ايديم بيدها الرمل في الحفرة التي حفرتها النعجة فكان جافا لا اثر للماء فيه . وتجمع على شفاة النعاج المحيطة بها زبد الازهاق ، فكانت تلتهم الرمل بافواهها بين الحين والآخر وتبصقه مع آخر قطرات اللعاب . لم يكن الرمل يرويها ، بل كان يرتوى من نسغها . اقتربت ايديم من الخروف . لم يكن نجلا جدا . كان يلهث بعسر من شدة العطش ومن التوتر الذي تسببه له مهمات حياته كرائد للنعاج . امسكت ايديم بقرن الخروف واقتاده وراءها . طاوعها رأسا ، ثم توقف ليعود الى رشده ، لكن

ايديهم سحبته ، فسار خلفها . رفعت بعض النعاج رؤوسها وكفت عن الحفر وسارت في اثر الصبية والخروف . وفيما بعد لحق الجديان وباقي النعاج بالخروف .

راحت ايديهم تجر الخروف على عجل ، وهى تتذكر المكان جيدا ، لكنها لم تبلغ الوادى العميق الا بعد افول القمر فى الفجر . وهناك حفرت الرمل وشربت ماء . تركت القطيع فى الوادى فانهمكت النعاج من جديد بنش الرمال باظلافها ، بينما مضت ايديهم الى موقف مبيت شعبها . وزعلت عندما لم تجد فى الوادى ولا بشرا واحدة . فان الشيخ فانكا وسفيان ماتا او تكاسلا ، وربما ارتويا لوحدهما دون ان يفكرا بحياة الآخرين .

لمست ايديهم كل النائمين وفاقدى الوعي فى الموقف . لقد تعودوا على العيش . وكانوا يتنفسون ولم يمت احد منهم . ايقظت الصبية سفيان والشيخ فانكا وامرتهما بان يذهبا لرعى قطع الاغنام وحراسته ، بينما مضت هى الى شاغاتايف لتحضره كى يتناول الطعام .

ايقظت ايديهم نزار طويلا ، فلم يفق فى الحال . كان يحتضر ببطء لان الدم ظل يتزف منه ببطء اثناء النوم ، وكان واضحا كيف ينبجس من الجروح بدفعات متباعدة ويستقر فى الرمال . وفهمت ايديهم كل شىء . عادت مسرعة الى القوم لكنها لم تجد احدا ، فقد تحركوا جميعا صوب القطيع : هذا يزحف وهذا يجرجر قدميه وذاك يتعكز على غيره . وجالت ايديهم ببصرها بينهم بحثا عن ثياب لينة غير ممزقة ، لكنها لم تعثر على ضالتها . فلم يبق من ثياب الجميع الا اسمال بالية لا تصلح لشىء . وكان الملا شيركيزوف

فى سروال خفيف ، لكنه غير نظيف بسبب عماه . خلعت ايديهم قميصها وتفحصته : لا بأس ، فهى لا تزال صغيرة ولم تتجمع فيها العدوى والامراض كما عند الشيوخ . تفوح من القميص رائحة العرق وجسد ايديهم ، لكنه نظيف ، فالصحراء كلها نظيفة . عادت ايديهم الى نزار ومزقت قميصها وضمدت كل الجروح التى ينبع منها الدم على بدنه ورأسه .

كان شاغاتايف قد افاق وراح ينقلب من جانب لآخر كى يسهل مهمة الصبية . فتح عينيه ورأى ايديهم والنسور الميتة والرمال عبر غشاوة كثيفة رغم شمس الصباح المعتادة . حملق فى النسور وعرف الانثى التى هى اكبرها حجما ، اما النسران الاخران فأصغر منها كثيرا ، انهما طفلاها . لقد جاءت الى هنا مع اخلص اصدقاء زوجها ، مع طفليه .

١٥

ظل شعب الجان يأكل ويدارى مصائبه وويلاته طوال اربعة ايام . وكانت ايديهم تراقب الجميع كيلا يفرط احد فى الاكل ، فتوقف من يلتهم الكثير او تضربه على عينه ، والا فما من موضع آخر يشعر بالالام . ونشأت قشرة على جراح تشاغاتايف واخذت تلتئم . سلم ثيابه الداخلية لايديهم فخاطت منها تنورة وبلوزة بعد ان كانت عارية . وقد تعود سفيان ان يحمل طول العمر كل الادوات المعيشية الضرورية من ثقاب وابرة وخيوط ومخرز وهوية شخصية عتيقة وسكين وسواها . وطلب من ايديهم ان ترتق ثيابه . فرتقت كل الثقوب الكبيرة فى رداء العجوز ، ثم رتقت ، بالمناسبة ، كل الاسمال التى يرتديها الشعب وتلوح من خروقها

الاجساد . واضطرت الى تقصير ثياب الكثيرين لتحصل على خرق ترتق بها ثياب آخرين . وخاطت من هذه الخرق سرولا وقمصا لتأغان ، فقد ظل عاريا منذ ان رمى ثوبه على الرمل متصورا ان الوقت حان لوضع حد للحياة .

وصرفت ايديهم في هذا العمل اربعة ايام اخرى . ولم يساعدها في الرق والخياطة الا الشيخ فانيا ونزار . زد على ذلك انها كانت تراقب النظام العام في حياة الشعب ، ترتب توزيع الطعام وتسهر على النائمين وتحرص على باقى الاغنام كي يكون هناك من يرعاها ويسقيها لئلا يصيبها الهزال ولا تستهلك ابدانها جزافا . وفي الليل تربط ايديهم كل نعجة بانسان ، وتترك الخروف ينام قربها وتربط رقبته ربطا محكما بحبل متين وتلف طرف الحبل على بطنها وتعقده . وبفضل هذه التحوطات لم تهرب ولا نعجة واحدة مع ان الاغنام ترقد طوال الليل دون ان تتناول علفا ودون ان يزداد وزنها .

وفي صباح اليوم التاسع من عثور ايديهم على القطيع شد الشعب الرحال وواصل سيره صوب موطنه . وظلت لديه عشر نعاج بالاضافة الى الخروف ، بعد ان التهم ثلاثة عشر رأسا وثلاثة نسور . كانوا يسبرون هذه المرة على ما يرام ويشعرون بانهم موجودون دون ان يرهقوا ذاكرتهم بالتفكير في انفسهم .

واتضح ان وادي القصب يبعد مسيرة ثلاثة ايام بلياليها في خطو متوسط السرعة . لكن السائرين شاهدوا منذ اليوم الثانى تضاريس اوست اورث المستوية الرمادية اللون والعتمة عند سفح الجبل ، عتمة الوهدة المقفرة ذات المنابع المرة النادرة . فرح الجميع وغلوا السير وكأن السعادة مضمونة هناك ، والمنازل المؤنثة تنتصب مشرعة الابواب في انتظار اصحابها . كان نزار

يسير مسندا امه من يدها ويبتسم كما لو كان يقف من جديد ، كما فى الطفولة ، على عتبة الحياة العظيمة المرتقبة ، وهو على استعداد للعمل الصبور المضني وفؤاده يتحسس ، باستحياء وغموض ، النصر المؤكد .

وفي مساء اليوم الثالث اجتازوا آخر الرمال الفاتحة اللون على طرف الصحراء واخذوا ينحدرون الى ظل الوهدة . تطلع شاغاتايف الى تلك الاراضى ، الى السباخ الباهتة والتربة الطينية الرملية والرفات الداكن المعذب البالى الذى ربما تفتت فيه عظام اهريمان المسكين بعد ان اخفق فى بلوغ مترلة ارمزد الرفيعة ولم يتتصر . فلماذا اخفق فى بلوغ السعادة ؟ ربما لان مصير ارمزد وغيره من اهالى الاقطار النائية المليئة بالجنائن والبساتين بشع غريب عليه ، لا يبعث السلوى فى قلبه ولا يستهويه . والا لاستطاع ، وهو الهمام الصبور ، ان يبنى فى وادي القصب ما بنى فى خراسان او ان يغزو خراسان . . .

شاغاتايف يحب التأمل فيما اخفق الناس سابقا فى بلوغه ، لان ذلك بالذات ما يلزم ان يحققه .

وبعد يومين آخرين اجتازوا الوهدة واقتربوا من سفح اوست - اورث . عشر نزار هنا على غدير من الماء العذب يغذيه سيل ربيعى من منحدرات السفح ، فتوقفوا قربـه للاستجمام ولاختيار مكان للاقامة الدائمة . ولم يبق عندهم سوى ثلاث نعاج ورابعها خروفها . لكن ذلك بحد ذاته لم يكن بعد شيئا مرعبا لشعب مثل شعب الجان الذى استطاع ان ينتفع من خيرات الطبيعة فى اسوأ مواضعها . وفى نفس اليوم عثرت ايديهم على عدة شعاب مسدودة مليئة باشواك ابراهيم . وقد حملت الريح الجنوبية الشرقية تلك الشجيرات

الى هنا من الصحراء . اما الشجيرات النادرة التي لم تقع في
الشعاب المينة فقد حملتها الرياح الى اعالي المرتفعات المستوية
واستمرت تندرج عليها صوب السهوب .
ذهب سفيان الى المغارة التي كان يقيم فيها قبل مجيء
شاغانايف ، ونصح بان يستقر الشعب كله في المنطقة المجاورة
لمغارته ، فهناك واد عريض فسيح تنمو فيه اعشاب سهبية
ويجري في وسطه جدول ضحل ينبع من اوست — اورت ولا
يجف حتى منتصف الصيف . ومضى الشعب الى ذلك الوادي ،
وفي الطريق عثر على آثار مواقفه السابقة منذ عهد الامراء .
لم تبق هناك اية اشياء ملحوظة ، كل ما تبقى هو فسحة
عادية وحفلات من الفحم وكتل الطين وانتصب وتد خيمة
نسيه الجميع ونهشه القبط والرياح فبات ميتا ، ومن التربة لاح
طرف طاوية طفل عتيقة ، نظفتها ايديم وارثتها .
الوادي الذي نصح به سفيان صالح للحياة . ففيه كساء
عشى على امتداد طويل ، وحتى الآن ، في اواخر الصيف ،
لم تهلك كل الاعشاب . فلا تزال بين السيقان المصفرة
سيقان حية خضراء . مجرى الجدول فارغ . ولكن في اعماق
وادي القصب ، على بعد كيلومتر او كيلومترين ، تلوح مرآة
مائية هي البحيرة التي يصب فيها الجدول الجبلي في الربيع
وفي بداية الصيف . وهذا يكفي للوجود . وعندما دخلوا ثغر
الوادي تراكضت سلاحف كثيرة من بين ارجلهم وابتعدت ولوت
رقابها ببطء وراحت تتطلع الى القادمين ، كل سلاحفة تنظر
بعين واحدة سوداء ثابتة ورفيقة . وفرح شاغانايف للسلاحف .
وكان قد ارتاح واستعاد قواه . فقد غدا كل شيء في الحياة
ممكنا كالسابق ، ويمكن على الفور تحقيق مصير افضل .

مضى نزار مع ايديم الى اعماق اوست — اورت ، الى
بطاحه العالية المستوية الموات . كان يبحث هناك عن اشجار
او ، على الاقل ، عن احراش الساكساول التي تنمو احيانا
في المنخفضات . فهو بحاجة الى الاخشاب ليصنع منها
مختلف الادوات واللوازم المعيشية . وفي الطريق حمل نزار
ايديم كيلا تتعب ، وقبل خديها وعينيها وشعرها . وروح ذلك
عنه . كان يحب تحسس حياة الغير وتلمس الاجساد ، ويخيل
اليه ان فيها شيئا جوهريا اكثر سحرا وروعة مما في نفسه .
وغالبا ما تتحسن صحته ويصفو ذهنه لمجرد توفر الفرصة للمس
يد شخص ما ، مثلما كان يلمس يد فيرا في حينه او يد
امراة اخرى قبل ذلك ، يد طالبة في معهد الاقتصاد كانت
تحبه لكنها ماتت من المرض في ريعان الشباب . وطوقت
ايديم هي الاخرى رأس نزار ومسدت باصابعها بقعتين خاليتين
في شعره هما من اثر جراح النسر . فلم تنس انها أكلت
آنذاك فرخ النسر كله دفعة واحدة .

لم يكن لدى نزار سوى سكين صغيرة ، ولذا اضطر
للعمل طويلا كي يسقط شجيرة من ذات الاخشاب اللينة
كانت تنمو وحيدة وسط شعب صخري لا ينمو فيه اى شيء ،
وكان طيرا افلت حبتها من الجو ذات مرة .

وطوال عدة ايام عمل في وادي اوست — اورت الذي
اختير مكانا للاقامة شخصان فقط هما شاغانايف وايديم .
اما الباقيون فكانوا ينامون في الكهوف التي حفروها على منحدرات
الوادي ليقضوا الليل فيها ويقبضون على السلاحف ويطبخون
الطعام منها لانفسهم ، لكنهم كانوا يأكلون قليلا ، بدون
شهية تقريبا ، ويذهبون الى البحيرة مرة في اليوم ليشربوا الماء .

ولم يسمح لهم شاعاتايف بنحر النعاج الثلاث والخروف ،
فقد تركها من باب الاحتياط لاسوأ الاحوال . حسب نزار
ابناء الوادى : من قضى نجه ومن ظل على قيد الحياة ،
وافتقد طفلة فى الثالثة من العمر . لم يتمكن احد ، لا
ابوها ولا امها ولا غيرهما ، من اخباره اين اختفت وكيف
ماتت هذه البنت الصغيرة ، هذا الانسان الصغير ، دون ان
يلحظ موتها احد . وما من شخص يتذكر متى اختطفها الريح
والرمال فى الصحراء وابتعدت بها عن الآخرين . . .

واخذ نزار وايديم بحملان الطين لبناء اول منزل ، لكن
احدا لم يساعدهما فى عملهما . وعندما استدعى نزار سفيان
والشيخ فانكا ، وهما افضل الجميع من حيث الصحة ، حملا
الطين مرتين ثم كفا عن العمل . جلسا على الارض واخذا
يتأملان ، مع انه كان لديهما بسبب طول العمر وقت كاف
للتفكير بكل شيء والتوصل الى الحقيقة .

وعندذاك جمع نزار كل ابناء الوادى وسألهم : هل ينوون
العيش ؟ ولم يجبه اى منهم . . .

تطلعت عيون شاحبة كثيرة الى نزار بتوتر كيلا تغمض
من العجز واللامبالاة . وحز الالم فى قلب نزار لان شعبه
ليس بحاجة الى الشيوعية ، انه بحاجة الى الغيوبة والنسيان
حتى تثلج الريح بدنه وتفتته فى القضاء تدريجيا . واشاح نزار
بوجهه عن الجميع فان افعاله وآماله لا معنى لها . ينبغي
له ان يحمل ايديهم ويمضى من هنا الى الابد . انتحى جانبا
ورقد هناك ووجهه الى الارض . فهو يعرف بانه سيعود الى هنا
مهما كانت الجهة التى يذهب اليها . فشعبه اكثر الشعوب
املاقا على وجه البسيطة . لقد انفق بدنه كله على اشغال

الحشر الموسمية وفى بؤس الصحراء ، ونسي هدف الحياة وحرم
من ادراك مصلحته ايضا ، لان رغباته لم تتحقق ابدا باى
قدر كان . عاش هذا الشعب بفضل عفوية قوته اليومي الشحيح
من لحم السلاحف وبيوضها والاسماك الصغيرة التى بدأ يصطادها
من البحيرة التى يشرب ماءها . فهل بقيت فى هذا الشعب
روح ، وان صغيرة ، حتى يمكن العمل معها لتحقيق السعادة
للجميع ؟ ام ان كل شيء هناك جف وانتهى ، حتى التصورات
التي هى عقل البؤساء ماتت وانتهت ؟ . . . يعرف نزار من ذاكرته
الطفولية ، ومن تحصيله العلمى فى موسكو ، ان اى استغلال
للانسان يبدأ من تشويه روحه وتكييفها للموت من اجل السيطرة ،
والا فالعبد لن يكون عبدا . وان تشويه الروح بالعنف يستمر
ويشتد باطراد ما لم يتحول عقل العبد الى جنون . ويبدأ
النضال الطبقي من قمع «الروح القدس» القابع فى العبد ،
لا سيما وان التناول على ما يؤمن به السيد—على روحه وربه
— لا يغتفر ابدا ، بينما تنفتحت روح العبد فى الاكاذيب
والعمل الهدام . لا يزال نزار يتذكر ما قاله الشيخ فانكا عن
الطاووس الذى اراد مرة ان يقتله فى باحة مسجد فى حيوى
وبيعه الى تاجر روسى ليخنطه . استعجل الشيخ فانكا ورمى
الطاووس المقدس بحجر دون ان يصيبه . ومن الخمائل
البعيدة ظهر حارس او شخص غريب فاخذ الشيخ فانكا ما
وقعت عليه يده من تحت الشجيرات ورماه على رأس
الطاووس . لكن الطاووس ابتلع فى الحال الشيء الذى رماه
به فانكا ثم زعق بصوته المتقطع الدنىء ، فهاجم عليه الشيخ
فانكا ليخنقه بيديه لكن المسلمين جاءوا وقبضوا على فانكا
وسحبوه الى الشارع وانهالوا عليه بالضرب حتى اقتنعوا بسانه

قضى نحيبه ، ثم القوا به فى ساقية يابسة . وعندما كانوا يضرّبونه غطى وجهه بيديه وفهم من راثتتهما انه رمى الطاووس المقدس فى المرة الثانية بقطعة من البراز الناشف . زحف الشيخ فانكا من الساقية حيا ، لكنه صار يحب رمى كل الطيور المحلقة والجائمة ، وخصوصا الحمام ، بالانجاس ، وظل على هوايته هذه حتى مل منها بعد سنين .

لهث حيوان ما عند رأس نزار فظن انه نعجة . لكن الحيوان اتهم اذنه واخذ يدعكها فى فم ادرد . لقد كان ذلك هو نفس الكلب العاجز الغاضب الذى رآه نزار فى موضع شعبه قرب اموداريا . فهو لم يكن مع الآخرين فى الصحراء . لعله تخلف فى مكان ما او ظل يحرس الموضع المهجور ، ثم دفعه الحنين للعودة فى طريق مستقيم الى وادى القصب الذى عاش فيه ، على ما يبدو ، فى السنين الخوالى . امسك نزار برأس الكلب وحناه الى الارض كى يربض ، فربض طائعا . كان يرتجف من الازهاق شائخا متوحشا عاجزا عن استهلاك حياته المعذبة وانهاؤها ، لكنه لا يزال واثقا من نعمة وجوده لان تلك النعمة كامنة فى صبره ذاته وفى بدنه النحيل المرتعش .

غفا الكلب جنب نزار . وظلت ايديهم تعجن الطين وحدها بقدميهما العاريتين وتحمل الماء فى القربة من مسافة كيلومترين .

عندما افاق شاغاتايف وجد عدة اشخاص جالسين حوله ينتظرون ان يفيق . وقال سفيان الذى هو اكبرهم سنا لنزار ان الشعب ضيع روحه عمدا الآن ولا يعرف ماذا يريد ولا يستهويه الطعام الافضل ، وهو يتدفا باضعف دفء فى قلبه ،

والقلب يتلقى هذا الدفء من الاعشاب والسلاحف والاسماك ومن عظام الانسان نفسه عندما يندم الطعام .

مال سفيان على اذن شاغاتايف وابتعد الكلب عنه . كان الكلب ينظر الى البشر بنهم حزين . وامنيته الدفينة العسيرة هى ان يأكلهم جميعا عندما يموتون . لم يأت الى هنا بطريق منفصل مستقيم ، بل جاء فى اثر الشعب ، على مسافة بعيدة عنه ، وكان يأكل الجثث البشرية على الرمال ويختبئ فى اعماق الرمال نهارا كيلا تراه نسور السهوب وسائر الوحوش . وقال سفيان لنزار :

— انت تسيئ الظن . فالشعب يستطيع ان يعيش ، ولكن لا يجوز له . عندما يريد ان يأكل الرز المحمر ويشرب النبيذ ويمتلك الثياب والخيام سيأتى اليه الغرباء ويقولون : خذ ما تريد من النبيذ والرز والابل ، خذ السعادة فى الحياة . . . — لن يعطيه احد شيئا — اجابه نزار .

— اعطوه فى السابق قليلا — قال سفيان — كنا من زمان نمتلك حفنة رز ورغيف خبز وثيابا عتيقة وانشودة المغنى فى المساء عندما كنا نعمل من اجل البايات . . .

— امرتنى امى ان اطعم نفسى بنفسى عندما كنت طفلا صغيرا — قال نزار — ما كان لدينا قليل ، وكنا نحضر .

— قليل — عقب سفيان — لكننا كنا دوما نريد الكثير : نريد نعاجا وزوجة وماء من الساقية . ففى الروح دوما مكان خال يريد الانسان ان يخفى فيه سعادته . وكنا نعمل من اجل القليل ، من اجل طعام نادر شحيح حتى جفت عظامنا .

— تلك كانت روح غريبة — قال نزار . — لم نر روحا غيرها — اجاب سفيان — اقول لك اذا

كنا قد صرنا كالموتى من العمل والجوع من اجل الطعام الشحيح ، فهل يكفي حتى موتنا نفسه لنكسب السعادة ؟ نهض نزار .

— حياة واحدة تكفى . روحنا الآن فى هذا العالم ، ولا روح غيرها .

— سمعت ، — قال سفيان بلامبالاة — نعرف ان الاغنياء ماتوا جميعا . ولكن اسمع ما اقول — مسد سفيان جزمة نزار الموسكوية العتيقة — شعبك يخشى الحياة ، تعود على عدم وجودها ولم يعد يصدق . وهو يتظاهر بالموت ، والا سيأتى السعداء والاقوياء ويعذبونه من جديد . لقد ترك لنفسه اقل ما يمكن ، ترك لنفسه ما لا حاجة لاحد به ، كيلا يصيب الجشع احدا عندما يراه .

انصرف سفيان مع الاشخاص الذين جاءوا معه . ومضى نزار الى ايديم وظل يعمل معها حتى المساء . وعندذاك رتب لها فراشا فى كهف ناشف لتنام ، واخذ يعمل من جديد فى صنع لبنات من الطين المزوج بالقش لبناء اول منزل . لم يكن احد قربه ، وكان الوادى كله خاليا ، فقد تفرق الجميع ، ربما ذهبوا لاقتناص السلاحف او لصيد الاسماك فى البحيرة . عمل نزار بسرعة متزايدة وبحكمة . وفى ساعة متأخرة من الليل ارتقى المرتفعات ليرى اين ذهب الجميع . كل شيء مرئى فى ضوء القمر الصافى العالى . غمر الضوء اوست — اورت المقفر والقى بظل الجبال على منخفض وادى القصب ثم انسحب من جديد على الصحراء المصاصة الممتدة حتى جبال ايران . كانت النعاج الثلاث والخروف ترعى فى الشعب المجاور غير العميق وتنبش بهسيس فى اكوام اشواك ابراهيم

بحثا عن عيدان حية خضراء . وفى ظلال اوست — اورت السوداء ، حيث يبدأ وادى القصب ، لاح بصيص نار ، وعلى مقربة من ذلك الموقد خيمت سحابة خفيفة من الضباب على البحيرة . هبط نزار من المرتفع ومضى صوب النار . بعد نصف ساعة اقترب منها مسافة معقولة ورأى الشعب كله جالسا حول موقد تشتعل فيه احطاب الساكساوول بهدوء . كانوا ينشدون ولم يروا نزار . انصت الى انشادهم . كان فى الطفولة قد سمع اغاني كثيرة من المنشدين ومن امه ومن شيوخ عديدين — وكانت تلك الاغاني رائعة لكنها تثير الشفقة . اما هذه الاغنية فلها معنى لا يعرفه . فيها مشاعر ليست من صلب شعبه ، لكنها تناسبه اكثر من الحزن . وسمع نزار حتى صوت امه الخافت الخجول . وتقول الاغنية : لن نبكى عندما تأتينا الدموع ولن نبسم من الفرح ، ولن يبلغ احد قلبنا القابع فى الاعماق ، فسيظهر بنفسه للناس ولكل الاحياء ويمد لهم يديه عندما يحين وقته الوضاء ، وهو قريب : فنحن نسمع الروح مسرعة فى قلوبنا تريد ان تخرج لنجدتنا . . . وانتهت الاغنية . وحرك الشيخ فانكا جمر الموقد بعضا واخرج منه السميكات المشوية وجربها واعاد الى النار من جديد السميكات التى لم تنضج بعد .

عاد نزار دون ان يحس به احد . وانهمك بصنع اللبنات من جديد وظل يعمل حتى ذاب القمر فى السماء واشرقت الشمس . وفى الصباح رأى القوم لا يزالون جالسين حول الموقد المنطفى . والشيخ فانكا يتحرك ويهز بدنه ، لعله كان برقص . وصمم نزار على مواصلة عمله ، فالليل انقضى والوقت غير مناسب للنوم . كان يصنع اللبنات فى قوالب الطين ، ويصب

في هذا العمل كل قوى فؤاده . وكانت ايديهم لا تزال نائمة .
ونزار يمضى احيانا الى المغارة التي تنام فيها ويغطيها بالاعشاب
ليحميها من الذباب والحشرات . فليترعرع جسدها في النوم ،
لتكبر من اجل حياة مديدة . وعند الظهر جاء الشيخ فانكا
الى نزار . خلع السروال الذي خاطته له ايديهم من خرق
مختلفة بدلا من سرواله الذي تمزق ، ونزل الى حفرة الطين الممزوج
بالماء وراح يعجنه برجليه النحيفتين المتخشبتين .

١٦

بحلول الخريف كانت قد انشئت في وادي اوست —
اورت اربعة منازل صغيرة من الطين يطوقها سياج واحد
من الطوف . وفي هذه المنازل الخالية من النوافذ لعدم
وجود الزجاج سكن الشعب كله وتخلص لأول مرة بالكامل من
الريح والبرد ومختلف الحشرات اللاسعة . بعض الاشخاص لم
يتعودوا طويلا على النوم والعيش بين الجدران الصماء ، فكانوا
يخرجون بين الحين والآخر ويتشقون الهواء ويمتنعون انظارهم
بالطبيعة ثم يعودون الى مأواهم متأففين .
اقترح عليهم نزار ان يشكلوا مجلسا للشغيلة ، فشكوه
من كل الموجودين ، حتى الصبية النشيطة ايديهم ، وعينوا
سفيان رئيسا له .

صار شعب الجان يعيش دون ان يشعر بموته يوميا ،
واخذ يجد في البحث عن الطعام في الصحراء والبحيرة وفي
جبال اوست — اورت ، كما تعيش في العالم ، عادة ،
اغلبية البشر . وبجهود نزار توفر لهم طعام الغداء كل يوم .

فهو يعرف ان ذلك في متهى الاهمية ، لان الاقلية من البشر
العائشين على وجه البسيطة تتناول طعام الغداء ، اما الاغلبية
فلا . وكانت ايديهم تدبر الشؤون المنزلية جيدا وترغم الجميع
على البحث عن الطعام وجلب الاعشاب والاسماك والسلاحف
والمخلوقات الصغيرة من شعاب الجبال . وكانت تسحن بنفسها ،
مع جولشتاي ، الاعشاب الصالحة للاكل لتحصل منها على
الدقيق ، وقد اشارت على سفيان في الوقت المناسب ان
يحرك الشباك العشبية لاقتناص الطيور التي تحط قرب البحيرة لتشرب الماء .
وعلى مسمع من الجميع كانت تقول للذين ينسون واجبهم في
ان يعيشوا ويأكلوا انها عندما ستكبر قليلا ستنجب اثاسا آخرين
يختلفون تماما عن هؤلاء التافهين الذين تضطر الى اطعامهم
هي الطفلة الصغيرة . فان امهاتهم غرقن في الدماء ، اما هم
فقد ولدوا ويعيشون كأنما يتفضلون على الغير ، وستحفر مع
نزار غدا حفرة كبيرة ، وليرقد فيها كل من لا تعجبهم الحياة
في هذه الدنيا ! وتقول ايديهم لرجل او لآخر :

— لسنا بحاجة الى التعساء . ساقطع احدى عينيك
واعلقها على الحائط وستنظر اليها بعين واحدة يا اعور ! .
لكن شاعاتها لم يكن راضيا بتلك الحياة العادية
الشحيحة التي بدأ شعبه يعيشها . فهو يريد ان يجعل السعادة
الكامنة منذ الميلاد داخل كل تعيس تظهر وتنمو وتغدو قوة
مصبورية فاعلة . فالتوقع العام وعلم الاهتمام بالشئ ذاته ،
ذلك الشئ الضروري الوحيد ، يساعدان الروح المستعجلة النابضة
في قلب الانسان على الخروج الى دنيا الله ، والا ستختنق
هناك الى الابد اذا عدمت العون في التحرر والانطلاق .
وسرعان ما تساقط الثلج . وازدادت الصعاب امام نزار

والآخرين في الحصول على الطعام . اختبأت السلاحف وغطت في السبات ، ومرت اسراب ضخمة من الطيور فوق اوست — اورت قادمة من الشمال متجهة الى الجنوب ولم تحط لتشرب الماء من البحيرة الصغيرة ولم تلاحظ وجود البشرية الصغيرة التي تعيش تحت . وتجمدت جذور الاعشاب الصالحة للاكل وفقدت طعمها ، وانزوت اسماك البحيرة في غياهب السكون قريبا من القاع . وكان نزار يفهم كل تلك الملايسات . وقرر ان يذهب وحيدا الى مستودعات الاغذية في حيوى ليحصل على قرض غذائي لشعبه يكفيه لفصل الشتاء . رتقت له ايديم ثيابه الممزقة البالية واصلح بنفسه حذاءه بمسامير خشبية منزلية الصنع وسيور ضيقة من جلد الغنم . ثم ودع كل فرد من الحاضرين وطلب منهم ان ينتظروا عودته سريعا واخذ يهبط الى وادى القصب . ولم يأخذ معه طعاما بقصد التوفير مؤملا في قطع المسافة كلها بلا طعام في غضون ثلاثة ايام . واختفى شاغاتايف في الضباب البعيد في تلك البقاع الخالية . وجلست ايديم على المنحدر الجبلى تبكى والدموع تنساقط من عينيها السوداءين البراقتين ، ظانة ان نزار لن يعود ابدا . لكن ايديم في الايام التالية لم تبك ولا مرة على شاغاتايف . فقد شغلته الشؤون المنزلية والحاجة والمسؤولية كيلا يموت الناس . كانت تنتهد احيانا كعجوز مسكينة . وكان الشعب لا يزال يعمل بفتور ، فلم يكن واقفا من ان الحياة مزية تستحق التقدير ، لقد انساه تلك الثقة البايات في اشغال الحشر الموسمية ولم يعد يقدّر وجوده ، ولا يفهم اللذة عموما ، حتى لذة الطعام . وبعد ذهاب نزار وقع العبء الاكبر من الاعمال على

ايديم . لكن العمل لم يكن يعذبها ، فقد علمت من شاغاتايف ان الاغنياء انتهوا وانها اكثر الناس فقرا وستحسن احوالها قريبا ، وستحسن اكثر فيما بعد . بعد ثلاثة ايام من غياب نزار تذكرته ايديم وعبست وكادت تبكى مكتئبة ، لكن الوقت مساء وعليها ان تسرع في البحث عن الخروف والنعجات التي ابتعدت الى الفسحات النائية ، ولذا اجلت الحزن على نزار الى ان ترقد للنوم . وعندما اقتادت الاغنام الى الديار اعشى بصرها ضوء مجهول . قرب منازل اللبن انارت اضواء ساطعة لم تشهد لها ايديم مثيلا من قبل . توقفت وارادت ان تعود ادراجها كي تختبئ مع الاغنام في كهف او وحدة نائية مقفرة ، ثم تأتى غدا في النهار لترى ما يجرى هنا . اقتادت الخروف من قرنه وراحت تنظر مبهورة الى الاضواء قرب المنازل ، وبدد الفضول والاستغراب خوفها فاستدارت بالقطيع الصغير نحو الديار . وفكرت بان الاضواء اما وحوش واما بدعة ذكية من البقاع التي يعيش فيها البلاشفة .

ولمحت ايديم نزار يمر قرب الاضواء . وهرعت اليه وتشبث بساقه مرتعشة بجفون متلاصقة . رفعها نزار وحملها الى سرير العشب في المنزل لثنام ، ثم عاد لتفريغ السيارتين . كان قد قابلهما في اليوم الثاني من طريقه عندما خرج من وادى القصب الى الصحراء . وبأمر من طشقند غادرت شاحتان مدينة حيوى قبل اربعة ايام . احدى الشاحتين محملة باللحوم المعلبة والرز والبقسماط والدقيق والادوية والكيروسين والفوانيس والفؤوس والمعاول والثياب والكتب وغيرها من الامتعة ، وفي الشاحنة الثانية راكبان وبراميل البترين والزيت وقطع الغيار .

صدر الامر من طشقند بالبحث عن قبيلة الجان المترحلة
فى منطقة سارى-كاميش (وادی القصب) او بين جبال
اوست-اورت وبحر آرال ومساعدتها بكل الوسائل ، وعدم
عودة السيارتين الا بعد العثور على القبيلة او على دلائل هلاك
جميع افرادها .

وفى منتصف الليل انتهى تفريغ الشاحنة ، وجلس شاغاتايف
يكتب تقريرا الى طشقند عن حالة شعب الجان ، فى حين انشغل
السائقان ومدير البعثة باعداد السيارتين للعودة . ظل نزار يكتب
حتى الفجر ، واقترح فى نهاية رسالته ترك الشعب يلتقط انفاسه
بعد مصائب السنين (فقد توفرت له الفرصة الآن لهذا الغرض
وسيقضى الشتاء ولديه ما يكفى من طعام بفضل المساعدة
التي بعثتها الجمهورية) ، والشئ الاهم هو ان يستعيد كل
شخص بدنه الذى استهلكه حتى العظام الداخلية تقريبا فاصابه
الهزال الشديد وضعفت مشاعره وتفكيره الواعى الآن الى ادنى
مستوى .

سلم شاغاتايف الرسالة لمدير البعثة وتحركت السيارتان
صوب واحة حيوى . كان الجميع لا يزالون نائمين ، فالوقت
مبكر ، والثلج يستقر فى وادی القصب . اخذ نزار فأسا ومعولا
وايقظ الشيخ فانكا وتاغان وذهب معهما لجمع احطاب
السكساول . وعند الظهر عادوا بالاحطاب . سخنت ايديهم
الافران بالحشائش اليابسة واخذت تعد الغداء من الطعام الجديد
الذى لم يجربه احد تقريبا على الاطلاق .

شبع الناس من اللحوم المعلبة والرز فى الحال ، لكن
هذا الطعام اتعبهم وجعلهم ينامون جميعا بعد الغداء . وفى
المساء طلب نزار اعداد غداء ثان ، واخذ يخبز بنفسه ارغفة

من الدقيق الابيض ، ثم اعد شايا وقهوة لكل الاذواق .
وبعد الغداء الثانى غط الشعب فى نوم عميق حتى ظهر اليوم
التالى . شاغاتايف يعرف ان هذا الطعام مضر بعض الشئ ،
لكنه كان مستعجلا لا طعام الناس كي تتقوى عظامهم ويستعيدوا
ولو قليلا من ذلك الشعور الذى تزخر به كل الشعوب ما عداهم ،
شعور الانانية وحفظ الذات .

الغداء الثالث كان من اعداد سفيان . لقد رأى ذات
مرة ما كان يأكله البايات فى خوازيم ، فاعد حسب الذاكرة
اطباقا مماثلة تقريبا .

وكان نزار يراقب بارتياح كبير كيف يأكل شعبه بلا نهم
فيضع اللقمة فى الفم بحذر وبإدراك للضرورة ويتأمل وادع
وأنه يتصور وجوه وارواح الاشخاص الذين جمعوا ذلك الطعام
بشق الانفس وأهدوه اياه .

واصل شاغاتايف حياته بصبر فى انتظار اليوم الذى يبدأ
فيه بتأمين السعادة الحقيقية للحياة العامة التى ليس هناك ما
يستحق ممارسته سواها والقلب يشعر بالمخجل بدونها . كان
يتكلم مع امه فى احيان نادرة ، ولم تعد تطلب منه شيئا ،
بل تكتفى بلمس ساقيه وجسده من خلال الثياب . كان يمسك
برأسها المحنى قرب بطنه ويفكر بما ينبغى له ان يفعله ليكفر
عن ذنبه ويبعث السلوى فى نفس هذا الكائن المحطم الذى
بدأ هو حياته فى احشائه . لم يكن يعرف ان امه ما كانت
تذكره الا عندما تلومها ايديهم ، وكانت تسمح دموعها خفية وهى
تدرك انها يجب ان تحب ابنها حتى اذا كانت لا تجده
ولا تتذكر وجوده فى مشاعرها ، ولذا فهى تلمسه كأى شخص
طيب غريب .

بعد بضعة ايام اشتد البرد كثيرا ودعت الحاجة الى تسخين
الفرن لدرجة عالية فى احد المنازل واعداد غداء وافر فى
الوقت ذاته ، لان الفرن يستخدم للتدفئة والطبخ معا . اما
المنازل الاخرى فليس فيها افران . هبت ريح شديدة من
اعالى اوست — اورت حاملة حبات ثلجية صغيرة متجلدة .
اقتادت ايديم الاغنام الى الحجرة التى تنام فيها هى وتركبتها
هناك لتنام الليل . وجلب نزار ماء من البحيرة بشق الانفس
فى خمس قرب على عربة يدوية . صعد المرتفع فى مواجهة
الريح الجائحة وراح يدفع العربة بجهد كبير . وبسبب هذه
الريح وظلام الشتاء الذى يخيم على العالم كله مبكرا ، وبسبب
وادی الموت المقفر ، وادی القصب الذى كادت الريح تحمل
شاغاتايڤ وتلقى به اليه اقتنع بضرورة وجود حياة اخرى غير
هذه .

فى احد المنازل كان الناس يتحركون والضوء يتسرب اليه
من المدخل المفتوح . تناولوا غداءهم ووقدوا . والاوانى الجديدة
تطلق بين يدي ايديم وهى تنظف مختلف الفئات والاساخ
وتقول للآخرين ان يبقوا الليلة هنا ، فالدفء افضل وان ضاق
المكان .

كان الوقت حوالى السادسة ، لكن الشعب كله رقد
متحاشكا فى حجرة واحدة ونام متلاصقا كما فى النعيم .
تناول نزار طعام الغداء واقفا ، فلا مكان للجلوس . وذهبت
ايديم للنوم فى المنزل الآخر الذى اقتادت اليه الاغنام ،
ولحق بها نزار .

وفى الصباح هبت زوينة ثلجية ، لكن الجو تدفأ بعض
الشيء . لم يبدر من المنزل اى صوت مع ان الوقت صباح .

كانت ايديم نائمة فى دفاء نعجتين . وكانت النعاج نائمة هى
الاخرى ، الا ان الخروف ينظر الى نزار كالمخبول . ما كان
نزار يريد ايقاظ ايديم ، فمضى الى المنزل الدافئ الذى
ينام فيه الآخرون . واشعل الفانوس هناك وتطلع حواله .
كانوا نائمين بنفس وضعية الامس ، وكأن احدا لم
ينقلب على جنبه خلال الليل الطويل . وصارت الابتسامة
الدائمة تملو وجوه الكثيرين . كان الملا شيركيزوف الضريير نائما
بعينين مفتحتين وقد وضع يده اليسرى تحت ظهر جولشتاي
كى يشعر بوجودها دوما ويحرسها . والفارسي العجوز عبد الله
ينظر بنصف عين صافية ، ولم يستطع نزار ان يفهم ما يراه
هذا الانسان ويفكر فيه الآن واية امنية للروح تنطوى عليها
جوانحه : هل هى امنية نزار نفسه ام امنية اخرى تماما ؟
قضى شاغاتايڤ بقية النهار قرب ايديم معجبا بوجهها
وانفاسها يتطلع الى حمرة الفتوة التى تصطبغ بها وجنتاها كلما
طال النوم . اطلق سراح الاغنام الى الثلج كى تنبش فيه
وتنقلب فى نقاوة الشتاء . ثم اخذ يد ايديم مسرورا بصمت
لان البلاشفة يقفون كجدار حديدى دفاعى حول هذا الكائن
الغض المسكين ، وهو نفسه موجود هنا لهذا الغرض وحده .
افاقت ايديم فى العصر . ولامت نزار لانه لم يوقظها
قبل ذلك فضاع عليها النهار . وطلب منها نزار ان تذهب
لتتفقد الباقيين ، فهم ايضا لا يزالون نائمين . عندما سمعت
ايديم بذلك ندت عنها صرخة قاسية وهرعت الى المنزل
المجاور . رفعت ستارة العشب عن المدخل كى يصفعهم البرد
فيفيقوا . الا ان النائمين تحاشكوا وتلاصقوا ببعضهم البعض
وانكمشوا باسمين ، وظلوا يغطون فى نوم عميق .

ومرت ليلة ثانية . في الصباح تفقد نزار النائم مرة أخرى . تغيرت وجوههم أكثر من أمس . احمر وجه الشيخ فانكا من الانتعاش فبدأ الآن في حوالى الأربعين . وحتى سفیان الطاعن في السن راق منظره ولاحث في تعابير وجهه امارات الاهتمام . وكان قره — شورما ، وهو في حوالى الستين ، مورد الخدين منتفخ الوجه ، تنشق الهواء بشهيق عميق وكأنه يرتوي بعد عطش شديد . انحنى نزار على امه فلم ير تغيرا على وجهها . يحتمل ان لا تستيقظ زهرة الجبال جولشتاي ، فقد غارت عيناها واسود خداهما وانسحب عليها ظل الارض . كان بؤبؤا الملا شيركيزوف مفتوحين كالسابق ، ولاح فيهما لمع بعيد كأنه يتسرب من اعماق الدماغ ، وخيل لنزار ان البصر عاد لهذا الضرب .

سخن نزار القرن للتدفئة ومضى يتنزه مع ايديم . فقد سنحت له ساعة من الفراغ لأول مرة خلال شهر عديدة . كانت الزوبعة الثلجية قد توقفت ليلا . ويتساقط الان آخر ثلج خفيف . وفي اعلى طبقات اوست — اورت لمع ضوء الشمس مرحا باهرا يعد بالانتصار الابدي . وكانت ايديم تتراكم على الثلج ضاحكة . كاب تحمى بيما ، وتسقط في الشعاب المليئة بالثلج ، ثم تلقى بنفسها من الخلف على رقبة نزار دون سابق انذار . واخيرا امسك بها وركض معها صوب الوهدة . فكتشفت نواياه وقالت :

— ارمنى ، لن اموت !

في طريق العودة الى المنزل سارت ايديم جنبه معتمدة على نفسها وسألته :

— نزار ، متى يستيقظون ؟

— قريبا ، قريبا . . . ربما استيقظوا الآن .

وفكرت ايديم متألمة .

النار في فرن المنزل تكاد تنطفئ ، فغذاها نزار بالحطب من جديد واعد طعام الغداء مع ايديم للشعب كله على اية حال .

وفي المساء اخذ البعض يستيقظون . كان سفیان اول من صحا من النوم ، ثم افاق الشيخ فانكا والملا شيركيزوف . وفي منتصف الليل صحا الجميع ، ما عدا جولشتاي . فقد قضت نحبها . حملها نزار الى منزل فارغ بارد ووضعها على فراش من الحشائش اليابسة . تحرك الدم في الشعب بعد النوم الطويل فجلس يتناول الطعام في المأوى الطينى الدافئ ، بينما رقد نزار جنب امه وغفا .

قدمت ايديم للشعب طعام الغداء وانهارت عليه بالتقريع لانه طوى في النوم ليلتين متواليتين ، بينما لا يستطيع ان يعيش حياته الوحيدة . وقهقه الشيخ فانكا ساخرا منها وقال :

— سنموت هذه المرة ، فلا تحزنى علينا يا صبية . . .

ذهبت ايديم ، لتنام الليل ، الى المنزل الذى يرقد فيه نزار مع المرحومة امه . رقدت في الركن بهدوء وغفت في الحال . وعند الفجر افاقت ومضت لاداء الشؤون المنزلية . وكان المنزل الدافئ الذى ظل فيه الشعب يقضى الليل خاليا من الناس . ولا احد في المنزلين الآخرين ايضا . تفقدت ايديم وحسبت على وجه التقريب كل الاشياء والامتعة والموجودات العامة وذهبت الى حجرة احتياطي الاغذية التى استلموها من حيوى ، واشتد بها القلق حتى تلمست حيطان المنازل فلم

يسعفها ذلك فى معرفة اى جديد . الاغذية كاملة غير منقوصة .
المعلبات مرتبة مثلما كانت عليه امس عندما اخذت بعضها
لاعداد طعام الغداء . اكياس الرز والدقيق فى مكانها دون ان
يمسها احد . وربما افتقد شيء ، لكنه قليل جدا ، ربما
كمية من التبغ والثقاب اللذين يستهلكان دوما بلا حساب .
ارتقت المرتفعات من الوادى . الشمس الصغيرة تنير الارض
الكبيرة بكاملها ، والضوء يكفى ويزيد . الثلج يلمع فى وادى
القصب وعلى قمم اوست — اورت . هبت ريح خفيفة ، لكن
السما الصافية تبعث دفئا ، والجو رائع فى كل مكان .
ضيق ايديم جفونها وتطلعت حوالها امدا طويلا فلحظت
اربعة اشخاص . كانوا يسرون فرادى على مسافة كبيرة من
بعضهم البعض . مضى احدهم فى وادى القصب صوب
مغيب الشمس ، وسار آخر على المنحدرات السفلى لجبال
اوست — اورت صوب اموداريا ، واختفى اثنان كل على انفراد
فى المرتفعات البعيدة بشقان طريقهما فى الجبال باتجاه الليل .
ايقظت ايديم نزار ، فذهب لوحده وقطع عدة كيلومترات .
صعد الى اعلى طبقة فى السطح يرى منها العالم بعيدا بكل
اطرافه تقريبا . وشاهد من هناك عشرة او اثنى عشر شخصا
يسرون على انفراد فى كل ارجاء الدنيا . بعضهم يسير صوب
بحر قزوين ، وبعضهم متوجه الى تركمانيا وايران ، واثنان منهم
يسيران متباعدين نحو شارجوي واموداريا . ولا اثر للذين توجهوا
عبر اوست — اورت الى الشمال والشرق والذين ابتعدوا كثيرا اثناء
الليل .

تنهد شاغاتايف وابتم : كان يريد ان يبنى هنا لاول
مرة ، من قلبه الوحيد الصغير ، من ذهنه الضيق وحماسته

حياة حقيقية على طرف وادى القصب ، على طرف قاع جحيم
العالم القديم . لكن الناس اعرف بما هو افضل لهم . ويكفيه
انه ساعدهم فى البقاء على قيد الحياة ، فليبلغوا السعادة
بانفسهم وراء الافق . . .

عاد على مهل وبكى فى الطريق .
فقد خيل اليه مع ذلك ان الحياة السعيدة كانت موجودة
هنا او انها قد بدأت رغم كل المصائب ، وانها ممكنة
التحقيق فى شعب صغير باربعة اكواخ بقدر ما هى ممكنة
وراء اى افق من آفاق الارض . انتشل من تحت الثلج كومة
من اشواك ابراهيم وحملها الى المنزل الذى ترقد فيه امه . ها
هو يودعها فى الطريق الاخير مثلما ودعته آنذاك فى الطفولة .
جلست ايديم وحيدة فى الركن قبالة العجوز الميتة .
كانت تخشاها ، وكان يشير فضولها النظر اليها والى ما لا يرى
الآن . وسألت ايديم :

— نزار ، هل تريدنى ان ابكى عليها ؟
— لا داعى لذلك — قال نزار — اذهى واسقى النعاج .
هل ودعك احد منهم ؟
— كلا ، كنت نائمة — اجابت ايديم — قال لى الشيخ
فانكا عندما ذهبت . . .
— ماذا قال لك ؟
— قال وداعا يا صبية ، ارجلنا تسير قليلا الآن والبطن
يتنفس ، حان وقت الحياة . هذا كل ما قاله .
— وماذا قلت له ؟
— لا شيء . . . قلت له : ارجل الحمير تسير ايضا .
— ولماذا الحمير ؟

— قلت ذلك على اية حال !

مضت ايديهم لتسقى الاغنام ، بينما اخذ نزار معولا
وذهب ليحفر قبرا على المرتفعات . فى المساء عاد ووارى امه
التراب . وفى تلك الاثناء نظفت ايديهم الحجرة الدافئة التى
نام فيها شعب كامل ارتحل الى مكان مجهول . وضحكت
ايديهم : حتى الملا شيركيزوف الضربير ذهب ، فهل يعقل ان
عينيه ابصرتا شيئا حالما أكل الكثير ؟

١٧

قرر نزار وايديهم ان يقضيا الشتاء فى المنازل الطينية الاربعة . . .
بعد ان فقد نزار ، دفعة واحدة ، كل الاشخاص الذين اهتم
بهم ، اخذ يجوب وحيدا سفوح اوست — اورت الخالية .
وكانت ايديهم تطبخ الطعام وترقق الثياب وتنظف مريض الاغنام
او تقوم باعمال منزلية اخرى ، فالمشاغل لشخصين لا تقل
كثيرا عن المشاغل لشعب الجان كله . ومن حين لآخر تخرج
من الحوش لترى ما اذا ابتعد نزار كثيرا ، فهو يشعر بالضجر ،
ولا بد ، من العيش مع ايديهم وحدها . الا ان ضجر نزار
وحينه الى الشعب الهارب لم يستمر طويلا . ظل يتجول بضعة
ايام مندهشا لان وطنه ليس بحاجة اليه ولان ابناء ارضه ،
ابناء الارض الواحدة ، اسدلوا عليه ستار النسيان فى ذاكرتهم
وتركوه مع ابنتهم الوحيدة الصغرى يتيمين فى الصحراء . لم
يكن نزار يفهم النسيان اللابالي المطبق . فهو يتذكر اناسا
مجهولين ماتوا من زمان ، يتذكر حتى اولئك الذين ما كانوا يعرفونه
وما كان ينتظر منهم نفعا . والا فاذا طوى النسيان السريع القتلى

١٤٤

والمفقودين هل يبقى معنى للحياة ؟ انها تغدو بائسة لا يبقى
للمرء فيها الا ان يتذكر نفسه . لكن شاغاتايف لم يتحمل
طويلا احزان الوحدة والفراق . فقد اخذ يتعايش مع الملابس ،
مع ايديهم والاغنام ، مع المنازل الخاوية ، مع الحيوانات الصغيرة
المتواجدة فى كل مكان فى الطبيعة ، مع الشجيرات المتجلدة .
كان نزار يعثر على السلاحف نائمة فى حفر دافئة متروية
فى المنخفضات ويحملها الى المنزل . تدفأ بعضها من برد
الشتاء وانتعش ، وظل البعض الآخر يعيش فى سبات مستجمعا
قواه للمصيف القادم الطويل . . واحس شاغاتايف مندهشا
ان بالامكان العيش مع الحيوانات وحدها ، مع النباتات
الخرساء ، مع الصحراء فى الافق اذا كان لديه فى اقرب
منزل ولو شخص واحد ، حتى وان كان طفلا مثل ايديهم .
وهنا ايضا ، فى طبيعة اوست — اورت البائسة ، فى قاع وادى
القصب المتهرى ، مهمة كبيرة تكفى لحياة بشرية كاملة .
يستحيل ان تكون كل الحيوانات والنباتات بائسة حزينة . انها
تتظاهر بذلك ، فهى فى حالة من النوم او التشوه الوقتى المؤلم .
والا يمكن القول ان القلب البشرى وحده ينطوى على الحماسة
الحقيقية ، فى حين ان هذه الفكرة سخيفة فارغة لان عيني
السلفاة تتأملان ايضا ، وللشوك عبير عاطر ، وذلك دليل
على كرامة وجودهما الذى لا يحتاج الى اضافة
من روح الانسان . ربما هما بحاجة الى مساعدة طفيفة من
شاغاتايف ، لكنهما فى غنى عن الكبرياء او التسامح او
العطف . . .

فى الليل تشعل ايديهم القانوس وتجلس الى المائدة قبالة
نزار وتنجز ما لم تنجزه فى النهار : تمشط شعرها الفاحم

١٤٥

اللماع ، وتخييط بساطا من الخرق العتيقة وقطع الجفناص ،
وتتطلع باسمه الى الصور في الكتب دون ان تفهم معناها ،
او تنظر الى نزار دون ان تغض بصرها عنه ساعة الى قراءة
افكاره : هل يفكر فيها ام في شيء آخر ؟

— نزار— سألته ايديم في احدى الليالي الطويلة— لماذا
نعيش ؟ هل ستتحسن حالنا لأننا نعيش ؟

— ألسنت بخير معي ؟— اجابها نزار .

— بلنى . انا بخير الآن— قالت ايديم وبللت الخيط في
فمها— سألتك مجرد سؤال ، لان لسانى يثرثر بلا سبب . . .

عينها السوداء والواسعتان المفتحتان مفعمتان بقوة براقه ،
قوة الطفولة والمراهقة . تطلعتا الى نزار باهتمام وثقة ، وهما
بحد ذاتهما مدعاة للسعادة والحق يقال . وحتى لو خيب
المرء ظن ايديم فستسامحه على ايدائه لها . انها تريد ان
تواصل العيش ولا يمكنها ان تتحمل العذاب النفسى طويلا .
وسألت ايديم من جديد :

— نزار ، لم انتظر شيئا طول الوقت ؟ لماذا يخيل
الى ان امرا هاما سيحدث ولا يحدث ؟ . . لماذا بدأ قلبى
يتألم ؟

— انت تكبرين يا ايديم— قال نزار— لا تخافى مما
يخيل اليك ويؤلم قلبك . فالحياة مستحيلة بدون هذه المصيبة .

— مستحيلة— وافقته ايديم— لكننى لا اريد ذلك .
قلب امك تألم من الجوع ، قالت لى بنفسها . . . فلتأتنا

مصيبة غير تلك ، مصيبة ممتعة . فقد مللنا من تلك .
ابتدع لنا شيئا ما . . .

جذب نزار ايديم واخذ يلاطفها ممسدا رأسها الذى

لا يزال كبيرا كرفوس الاطفال . وقالت ايديم :
— علمنى الا افكر . فهذا افضل . والا فانا خائفة .

يخيل الى ان هناك شيئا فظيلا !
— روحك بدأت تتألم ليس من الجوع ، اليس كذلك ؟—

سألها نزار .
— بلنى— اجابت ايديم— انها تتألم من المشاعر . . .

نزار لماذا انا غريبة ؟
— على من انت غريبة يا ايديم ؟— سأل نزار .

— الشعب عاش معنا ، لكنه ارتحل— قالت ايديم—
وستذهب انت قريبا ، فمن سيتذكرنى يا ترى ؟

— لن اتركك— وعدها نزار .
— خبرنى يا نزار بأهم شيء . . .

خففت ايديم فتيل الفانوس كى توفر الكيروسين ، فهى
تدرك ضرورة الحرص على كل الحاجيات طالما هناك شيء

اهم فى الحياة .
— لا اعرف ما هو الاهم يا ايديم— قال نزار— لم

افكر به ، ما كان لدى وقت . . . طالما ولدنا انا وانت
فقينا ايضا شيء ما أهم . . .

ووافقته ايديم :
— شيء قليل ولا بد . . . فالكثير فينا غير مهم .

اعدت ايديم طعام العشاء . اخرجت رغيفا من الكيس
ودهنه بشحم الضأن وكسرتة نصفين قدمت النصف الاكبر الى

نزار وابقت لها النصف الاصغر . وراحا يعضغان الطعام بصمت
فى ضوء الفانوس الخافت . وخيم على اوست—اورت وعلى

الصحراء السكون والظلام والمجهول .

بعد العشاء خرج نزار ليرى ماذا يجري الآن في العالم ،
وينصت لعله يسمع صوتا بشريا في الظلام . . . ابن يطوف
الآن الشيخ فانكا وقره شوما ؟ وهل يعقل ان الملا شيركيزوف
يرى النور بعينه ؟

وخرجت ايديم هي الاخرى من المنزل ونادت نزار :
— تعال ونم ، فسأطفئ الفانوس . . .

— اطفئيه — اجابها نزار — ساشعله فيما بعد .

— كلا ، الافضل ان لا تشعله ، والا ستبذر الثقاب —

قالت ايديم — نم في الظلام . . .

ودخلت ايديم المنزل . جلس نزار على الارض وتطلع

حواليه . كان الليل الباهت يمضي فوقه ، ولا اثر للريح .

والنجوم تلوح في السماء بين الفينة والفينة ، يحجبها ضباب

مرتفع خفيف . ولم يبق من الثلج الا ما يلفح الوهاد

البعيدة على صفحة اوست — اورت العالية ، فقد كنسته الريح

من سائر البقاع واجهزت عليه شمس الضحى . وعلى الجهة الاخرى ،

الى الجنوب ، انبسطت الصحراء — الام القاحلة تخيم عليها

سماء خالية . ومن حين لآخر تشع الصحراء فجأة بوميض

خاطف مجهول ، فيخيل للرائي ان فيها جبالا ومدنا مأهولة

وحياة فوارة جذابة . اما في الواقع فليس هناك الآن سوى

السلاحف التي تغط في سباتها وبذور اعشاب الموسم الفائت

الباردة والريح الموضعية الخفيفة ترتفع من الرمال وتحط عليها

من جديد . هبط شاغاتايف الى اسفل ، قريبا من وادى

القصص وصاح في الفراغ الحالك . ولم يتلق الجواب ، حتى

صدى صوته لم يعد اليه . فقد تاه الصوت واختفى في الحال .

وعاد نزار الى منزله . كانت ايديم نائمة تحت البطانية

وسط احلام الطفولة . كانت مشغولة بما تراه في نفسها ،
فلا تسمع شيئا . اشعل نزار الفانوس ووضع ارغفة في الحقيبة
وارتدى السترة القطنية وقبعة الفرو العالية ، ثم رفع طرف
البطانية والقى نظرة على ايديم . كان وجهها منتعشا متنبها ،
وعيناها تتحركان دون ان تخفيهما الجفون المغمضة . كانت
تتابع سير الاحداث الخفية في روحها . وهمس نزار :
— ايديم .

فتحت في البداية عينا ، ثم فتحت الاخرى ، وقالت :

— نم يا نزار .

— كلا ، لن انام الآن — اجابها نزار — انا ذاهب

لاجتمع الشعب . وسأعود قريبا .

— عد بسرعة — رجته ايديم .

— لا تستوحشى بدوني — قال لها نزار .

— طيب — وعدته ايديم — اذهب بسرعة ، والا ستضعف

قواهم . لقد طافوا ولعبوا ما فيه الكفاية ، وحن موعد العودة

الى الديار .

لمس نزار رأس ايديم بيده وانصرف ، لكنها طلبت

منه ان يطفئ الفانوس في البداية ، لان الليل لا يزال طويلا ،

وهي لا تحتاج الى ضوء .

اطفاً نزار الفانوس وغادر المنزل ماشيا على السفح صوب

حيوى . ثم التفت الى مكان اقامة شعبه لكنه لم ير شيئا

هناك ، ما عدا الصبية ايديم التي ظلت نائمة لوحدها ،

غير ملحوظة وسط العالم كله والطبيعة . ولكن لا ضير في

ذلك بالنسبة لها . في المنازل رز ودقيق وملح

وكيروسين ، وثقاب ايضا . اما السعادة والصبر فلتبحث عنهما

في فؤادها وحده حتى يعود اليها باقي ابناء الشعب .
 سار شاغاتهايف بسرعة . وعاجله الفجر في مجاهل
 وادى القصب . اما جبل اوست — اورت القاتم الذي كان لا
 يزال في احضان الليل فقد ابتعد الى آخر مرتبة و غاص اساسه
 وراء حافة الارض . . . وفي اليوم الثالث وصل نزار
 الى حيوى . كانت هناك سوق كبيرة يتردد عليها ابناء البادية
 ليتفرجوا على المبيعات ويشترى شيئا منها لتلبية احتياجاتهم
 الماسة ويلتقوا ببعضهم البعض . وكان نزار يأمل بان يصادف
 في سوق حيوى ابناء قبيلته ويعود بهم الى الديار . فهم لا
 بد وان يندسوا بين حشود الغرباء ليسمعوا الاشاعات والاحاديث
 ويجلسوا في المقاهى ويشعروا من جديد بكرامتهم ويفكروا
 بالاغنية القديمة التى سيغنيها المنشد ويعزفها على الربابة .
 ففى منازل الطين فى اوست — اورت كان هناك القليل من
 مستلزمات المعيشة العادية التى لا يستطيع الانسان ان يعيش
 بدونها فى اى مكان .

جاء نزار الى سوق حيوى قبيل الظهر . وكانت الشمس
 التى تقدمت نحو الصيف تسلط اشعتها على ارض السوق
 الوسخة وتدفئ ترابها . وحول السوق تنتصب احواش الاهالى ،
 وقرب حيطانها الطوف جلس الباعة عارضين بضاعتهم المطروحة
 على الارض . وفى وسط الساحة رفوف خشبية واطئة عليها
 بضائع الصحراء . فهناك المشمش المجفف فى اكياس
 صغيرة وشرائح الشامام المجفف وجلود الاغنام الخام والبسط
 القاتمة التى نسجتها ايدى النساء فى وحدتهن الطويلة ، وهى
 تصور مصير الانسان بشكل نقش متكرر حزين . وهناك صف
 مخصص بكامله لحزم صغيرة من حطب الساكساوول ، وبعده

جلس شيوخ على الارض وعرضوا امامهم قطعاً نقدية قديمة
 ومجهولة وازراراً حديدية ودبابيس معدنية وكلايب ومسامير
 عتيقة وحدائد وشارات قبعات الجنود وقحف سلاحف وعضايا
 محنطة وقرميذا مزخرفا من القصور الاثرية الدفينة . وحتى
 هؤلاء الشيوخ ينتظرون ان يأتى المشترون ويقننوا منهم ما
 يحتاجون اليه . وكانت النسوة يعرضن ارغفة الخبز والجوارب
 الصوفية وماء الشرب وثوم الموسم القاث . وعندما تبيع الواحدة
 منهن شيئا تشتري من الشيوخ دبوساً معدنيا تزين به ثوبها
 او كسرة من قرميذة مزخرفة تهديها لطفلها بدلا من اللعبة .
 وكان الشيوخ عندما يستلمون النقود يشترى بها الارغفة وماء
 الشرب او التبغ . كانت التجارة تجرى بالمقايضة بلا ارباح
 ولا خسائر . والحياة ، على اية حال ، تجرى منسية فى
 الرحام ومسلات السوق ، والشيوخ قانعون . وفى داخل بعض
 الاحواش الواقعة حول السوق توجد مقاه توشوش فيها سماورات
 ضخمة ويتجاذب الناس اطراف الحديث فى مواضعهم
 القديمة الابدية وكأن ما لديهم من عقل لا يكفى للتوصل
 الى رأي نهائى يستحسن بعده السكوت . دخل شيخ اوزبكي
 بنى اللون احدى المقاهى حاملا على ظهره صندوقا بزوايا
 حديدية . وتذكر نزار هذا الشيخ . كان قد رآه فى طفولته ،
 وكان الاوزبكي آنذاك ايضا عجوزا بنى اللون . كان يجوب
 القرى والمدن حاملا ادواته ومواده فى الصندوق يلحم وينظف
 السماورات فى كل المقاهى . وقد تشرب وجه هذا الانسان
 العامل بالسخام والدخان وريح الصحراء اثناء الرحلات البعيدة ،
 فغدا بنى اللون جاسئا منطويا على نفسه ، فارتعب نزار من
 مصلح السماورات الصحراوى عندما رآه لأول مرة . لكن

العامل الاوزبكي بادر الصبى بالتحية واهداه مسمارا معقوفا
ومضى الى جهة مجهولة فى وادى القصب ، فلعل سمورا
تعطب وانظفاً فى مكان ما على الرمال البعيدة .
قرب صندوق القمامة وقفت فتاة تركمانية ومالت اليه
واضعة مندبلها على فمها وهى تنظر بعيدا من فوق رؤوس
الناس فى السوق . نظر نزار الى تلك الجهة ورأى سربا
من الغيوم البيضاء فى طرف الصحراء على ارتفاع قليل عن
الارض . لعل تلك هى القمم الثلجية لجبال كويت —
داغ وباراباميز او هى تلاعب الاضواء فى الهواء او خيالات
عالم بعيد . فقيم تفكر الآن روح هذه الفتاة ؟ افلم يعش
قبلها اناس اكبر سنا كان يتوجب عليهم ان يكشفوا كل
الاسرار الممضة لتولد هذه البنت لسعادة جاهزة ؟ فما نفع
البشر الذين عاشوا قبل هذه الفتاة التركمانية الغريبة اذا كانت
هى تقف الآن متحيرة بافكارها ومهمومة باحزانها ؟ وما اشد
تعاسة والديها وابناء عشيرتها اذا كانوا عاجزين عن مساعدة
ابنتهم فعاشوا عبثا وماتوا وما هى تقف وحيدة مثلما وقفت
فى حينه امها الشابة البائسة . . . وجه هذه الفتاة مليح نحول
وكأنها مستحبة من قلة الخير فى هذا العالم :
لا شئ غير الصحراء والغيوم على طرفها ، وهذه السوق
بعضاياه المحنطة ، بالاضافة الى قلبها المسكين الذى لم
يتعود بعد على الفاقة والصبر .
اقترب نزار من تلك الفتاة وسألها من اين هى وما
اسمها ، فقالت له :
— اسمى هانم .
ويعنى «آنسة» .

— تعالى معى — قال لها نزار .
— كلا — اجابت هانم باستحياء .
وعندذاك اخذ نزار يدها فتبعته .
مضى معها الى الخان واكلا معا طعاما ساخنا من قصعة
واحدة ، ثم اخذا يشربان الشاى واجهزا على ثلاثة اباريق
كبيرة منه . وغفت هانم على ارضية الخان بعد ان اثقل
عليها الطعام الوفير . لقد تحسنت حالها وشعرت بالمتعة
فابتسمت مرارا وهى تتطلع الى الناس حوالىها والى نزار .
ووجدت سلواها هنا . استأجر نزار من صاحب الخان غرفة
خلفية واخذ هانم اليها لتنام حتى ترتاح .
ترك نزار الفتاة فى الغرفة وخرج . ظل يجوب مدينة
حيوى حتى المساء . تردد على كل الاماكن التى يؤمها الناس
او يتجولون فيها لمختلف الاغراض . لكنه لم ير فى اى
مكان وجها يعرفه من ابناء شعب الجان . واخيرا اخذ يسأل
من الشيوخ فى السوق ومن الحراس الليليين الذين ظهروا
قبل حلول الظلام ليحرسوا اموال المدينة ، ومن مختلف
الناس العموميين — هل رأى احد منهم سفيان او الشيخ فانكا
او عبد الله او غيره ؟ وذكر لهم اوصافهم .
— الناس هنا اشكال — اجابه احد الحراس وهو عجوز
روسي — وانا لا اتذكرهم . فهنا آسيا ، وهى ليست ارضنا .
— كم سنة تقيم هنا ؟ — سأل شاعنايف .
فكر العجوز وقال على وجه التقريب :
— حوالى اربعين سنة . بموجب قواعد الخدمة يتعين
علينا ان نتذكر كل عابر سبيل ، فربما كان نصابا . لكن
العقل تعبان . وانا ، يا بني ، اعيش على قوة الغير ،

فقد استهلكت قواى من زمان . . .

ولم يتلق نزار اى خبر من باقى اهالى حيوى المسنين ولا من المستخدمين وكأن احدا من ابناء شعب الجان الجوال لم يأت الى هذه المدينة . وبموجب السجلات فى ادارة المليشيا يعتبر كل الاشخاص المنسوبين الى قبيلة الجان ميتين منذ ما قبل الثورة ، ولم يعد هناك موجب للاهتمام بهم . وفى المساء عاد نزار الى الغرفة فى الخان . كانت هانم قد استيقظت . جلست على السرير وانشغلت برتق ذيل ثوبها بخيط اضافي تبلله فى فمها . ولعلها تعتبر كل مكان تتواجد فيه منزلا لها فتعود عليه فى الحال ، والا فلو اجلت حاجاتها ومشاغلتها حتى تحصل على مأوى لتهرأت ثيابها وتدهورت امورها بسبب الاهمال ولماتت من قذارة بدنها . جلس نزار جنب هانم واحتضنها بيد واحدة ، فكفت عن رتق ثوبها وتجمدت فى رعب وانتظار . نعيم الحياة المرتقبة التى لا اسم لها ولم تولد بعد ، لكن بذرتها طلعت فى داخل نزار ، لامس فؤاده باحساس حى سعيد . ففى حناياه الآن شىء افضل من نفسه واكثر حيوية وروعة ، يدفعه ويمنحه القوة ويبعث فيه الفرحة والسرور . تطلع الى هانم فابتسمت له متأملة وادعة وكأنها تفهمه جيدا وتعطف عليه . وعندذاك عانقها بكلتا يديه وكأنه يرى فيها تجسيدا لكل ما لم يتحقق فيه ولن يتحقق ، لكل ما سيقى بعده بهيئة انسان آخر ارقى على ارض اكثر طيبة مما كانت عليه بالنسبة لنزار . وتلاصقا سعيدين . واسدل الليل القديم ستارة الظلام على طوف حيوى ، وسكنت اصوات ضيوف الخان ، بعضهم انصرف ليقضى الليل فى بيته ، وبعضهم ظل فيه

لينام ، وسد صاحب الخان مدخنة السماور بسدادها كى يبقى الفحم غير المحترق فيها سليما حتى صباح الغد . وانهمك شاغاتايف الآن فى حب هانم بنهم نابع من الضرورة القصوى ، لكن قلبه ما كان ليتعب ولم يتوقف شبقه وتوقه الى هذه المرأة . كان يحس بانه غدا اكثر تحررا وسعادة وكأن الامال انتعشت فيه لبلوغ افضل ما ينتغيه . . . وعندما يداعب هانم النعاس صدفة يشتد حنين نزار اليها فيوقظها ليجدها معه من جديد .

لم ينم نزار ليلته ، لكنه نهض فى الصباح مرحا مرتاحا ، بينما ظلت هانم نائمة امدا طويلا ، وتدلى وجهها المستسلم المليح من الوسادة . مسد نزار شعرها وحفظ فى الذاكرة تقاسيم الفم والانف والجبين ، كل روعة هذا الانسان العزيز عليه ، ومضى الى المدينة ليبحث عن شعبه من جديد . اشرفت الشمس من جهة الصين ، وتطلع نزار الى هناك برهة ، من خلال الصحاري والسهوب ، الى غبش السماء وضبابها فى الشرق ، من جهة الصين . استيقظ هناك من زمان نصف مليار من الكادحين البؤساء الصابرين . فما اكثر الافكار والمشاعر فى افئدتهم لو استطاع ان يتحسسها دفعة واحدة فى فؤاده وحده ! . .

ظهر العامل الاوزبكي العجوز فى باحة السوق . خرج من مبنى كان يستخدم فى السابق خانا لقوافل الابل . ولعله قد بات ليلة البارحة هناك ، وها هو الآن متوجه للعمل . انحنى نزار لمصلح السماورات الاوزبكي محبيا وسأله عما اذا كان قد رأى احدا من قبيلة الجان . تطلع الشيخ الاوزبكي الى شاغاتايف بعينين غائرتين تمان عن ذاكرة

جيدة . فقد تذكر ، على ما يبدو ، الطفل نزار الذى اهداه مسمارا فى زمن ما . فمصلح السماوات لا يمكن ان ينسى ما اثر فى مشاعره ذات مرة ، ثم ان الحياة قصيرة وليس بالامكان نسيان كل شيء . وقال الازبكي بصوت خافت :
— رأيت واحدا منهم فى اوش — آجى . كان يرقص فى المقهى بمصاحبة موسيقى الهارمونيك الروسية .

— هل هو الشيخ فانكا ؟ — سأل نزار .

— نعم — قال العامل الازبكي .

— هل ستذهب بعيدا الآن ؟ — سأل نزار .

تباطأ المصلح فى الجواب . فهو لا يحب الكلام عن نواياه التى لم تتحقق بعد .

— نعم — قال الازبكي — انا ذاهب الى شارجوي .

سأعلم الميكانيك هناك . وصلت اليهم حفارات ، وسوف تحفر الترع ، ولن اصلح السماوات بعد الآن . . .

— كم عمرك ؟ — استفسر منه نزار — هل يكفيك

الوقت حتى تصبح ميكانيكيا ؟

— يكفينى — وعده مصلح السماوات — انا فى الرابعة

والسبعين ، عشتها فى حياة التعاسة ، فكم سأعيش يا ترى فى حياة السعادة ؟

— مائة وخمسين ؟ — سأل نزار .

— ربما ! — اجاب العجوز .

وودعا بعضهما البعض . عاد شاغاتايف الى الخان

واتفق مع صاحبه على ان يطعم هانم ويترك الغرفة لها حتى يعود نزار بعد عشرة او خمسة عشر يوما . الا ان صاحب الخان طلب من نزار ان يدفع مقدما ثمن الطعام ، فهو

بحاجة الآن الى نقود لاغراض تجارية . ووعده نزار بانه سيدفع المبلغ المطلوب ومضى الى سوق حيوى من جديد . وحتى الظهيرة تمكن ان يبيع سترته القطنية ، فالصيف قادم على اية حال . ترك لنفسه قليلا من النقود ودفع الباقي الى صاحب الخان ثمنا لطعام هانم .

ابقظ نزار الفتاة وطلب منها ان تبقى هنا حتى يعود . ابتسمت له هانم بمحياها الدافئ الذى سخنه النوم ، ورجته ان يبقى معها بعض الوقت ، فبقى ثم تركها وحيدة فى غرفة الطوف وغادر حيوى . مضى فى البداية الى جنوب واحة حيوى ، ومن هناك سيذهب الى جهة لم يتأكد منها بعد . . .

بعد ثلاثة ايام ترك شاغاتايف آخر نجع فى واحة حيوى . وانبسط امامه من جديد الصحراء المعتادة ، واشواك ابراهيم تتدحرج فى الريح عبر الكثبان الرملية ، والطريق القديم يمتد صوب الآبار البعيدة . . .

اسرع نزار راكضا على الطريق الخالى ، وفى نيته ان يبلغ الواحة التالية قبل حلول المساء لعله يجد هناك شخصا ممن يبحث عنهم . قالى ابن ذهبوا يا ترى ؟ عقولهم لا تزال ضعيفة كثية ، وسيهلكون جميعا فى البؤس والاغتراب ، على الرمال وفى القرى الغريبة . . . لا يمكن لاي شعب ، حتى شعب الجان ، ان يعيش مشتتا : فالبشر يتغذون من بعضهم البعض ليس بالخبز وحده ، بل بالروح ايضا ،

فيتحسس الواحد منهم الآخر ويتصوره ، والا فقيم يفكرون ؟
وعلام ينفقون طاقة الحياة الرقيقة الساذجة وابن يبعثون احزانهم
ويجدون سلواهم ؟ وابن يموتون بهدوء . . . فالانسان ، اى
انسان ، عندما يتغذى على تصورات ذاته سرعان ما يلتهم
روحه ويستترف قواه فى أسوأ بؤس ويهلك فى كآبة الجنون .
ولو لم يكن شاعراتايف يتصور الحياة ويحس بها قوة
طيبة نيرة تسهر عليه كما يسهر الاب على ابنه ، لما استطاع
ان يدرك مغزى وجوده ، ولما تمكن ان يعيش عموما بدون
الشعور بطيبة الثورة التى حمته فى الطفولة من التشرد ومن
الموت جوعا والتى تساعده الآن فى الحفاظ على كرامته
وانسانيته . ولو نسي نزار او فقد هذا الشعور لتحير وخارت
قواه وانكفأ على الارض وتحجر . .

ربضت نعجتان متوحشتان على سفح كثيب غير بعيد
عن الطريق . كانتا عجفاوين منظرهما كمنظر الكلاب .
تجاوزهما نزار ، لكنهما تبعناه ربما بسبب الجوع او العطش
مؤملتين فى النجاة بحضور الانسان ، وربما بسبب الوحدة
الطويلة واليأس الشديد . لكن النعجتين سرعان ما تعبنا
وتخلفتا يتيمتين ضائعتين من جديد فى خلاء الطبيعة المقفرة .
قبيل المساء وصل نزار الى نجع صغير يقع قرب ثلاث
آبار ويقطنه بعض ابناء قبيلة ارساري الذين يعيشون على صيد
الاسماك فى المجرى القديم لنهر اموداريا عندما تبلغه مياه
الفيضان حاملة الاسماك معها . وفى باقى الاوقات يعتاش
اهالى النجع على صنع الربابات للمشدين ، حيث يبيعونها
فى البادية القريبة وفى شارجوى . كان نزار قد سمع بنجع
الربابات ورآه فى طفولته . ففیه يقيم اناس طيبون يصنعون

الآلات الموسيقية وغالبا ما ينشدون الاغانى الشاعرية الحزينة
او المضحكة لكى يجربوا آلاتهم .
دخل نزار اول حوش يصادفه وطرق الباب ، لكن
دفقه انفتحت الى الداخل بنفسها من طرفته . وعلى ارض
الحجرة جلس اربعة اشخاص فى شبه ظلام . كان احدهم
يعزف بهدوء على وترى الربابة ويرتل بصوت مبحوح كلمات
اغنية قديمة ، والباقون يستمعون . توقف نزار عند العتبة
كيلا يشوش الانعام والاغنية حتى تنتهى . يبدو ان الاغنية
مست شغاف قلوب الحاضرين . كانوا صامتين لا يلتفتون
الى الضيف الغريب . وتقول الاغنية ان لكل انسان احلامه
البائسة ومشاعره الضئيلة المحببة اليه التى تعزله عن غيره ،
ولذا فحياته تغلق عينيه على العالم وعلى الآخرين ، فلا
يرى روعة الزهور التى تفتح فى الربيع على الرمال . . .

وعندما انتهت الاغنية دعا صاحب البيت العجوز نزار
للجلوس قربه ليرتاح . وكان يعزف على الربابة ، وجنبه
شابان لعلهما من ابنائه ، والثالث هو الشيخ سفيان . سلم
صاحب البيت الربابة الى سفيان فتفحصها جيدا وقال :
— اريد ان اعزف ، وقد نظمت الاغنية بنفسى .
فقلبى طيب ، لكنى لا املك ثمن الربابة . لست غنيا
جدا ، فانا اعيش على بدنى وحده . . .

كان سفيان فى نفس معطفه العسكري البالى الذى لم
يبق فيه موضع سليم ، حتى غدا عليه كالمخل .
وطلب صاحب البيت وصانع الربابة من احد ولديه
ان يعد الرز والسمك لاطعام الضيفين القديم والجديد ،
ثم التفت الى سفيان : — هذه ربابة ممتازة ، لكنها

ليست للبيع . . . انت عجوز ومع ذلك لم توفر لنفسك ربابة واحدة ، يعنى انك عشت طيب القلب ، فارجوك ان تأخذ هذه الربابة مجانا حتى ترتاح نفسى .

وضع سفيان الربابة على ركبتيه وراح يحدق فيها مندهشا ، فهي اول حاجة قيمة يمتلكها .

بعد العشاء عزف سفيان قليلا على الربابة وانشد اغنية عن السمكة الذكية القوية التى تسبح فى اعماق الارض المظلمة . وسأله نزار بعد ذلك : اين قبيلتهم الجان الآن ؟ فاجاب سفيان :

— تفرق الشعب ليعيش يا نزار . فى السابق لم يكن يقوى على المشى ، لكنك اطعمته فسار .

— وما حاجته الى السير ؟ — سأل نزار متعجبا — سيبدد قواه من جديد .

— فيه حاجة — اجاب سفيان — وعندما تنتفى الحاجة سيتوقف ، ويعود الى اوست-اورت .

— الى اين ذهبوا جميعا ؟ — لم أسألهم . — قال سفيان — فليفكر كل منهم

بنفسه . نم يا نزار ، فالوقت يمضى ، ولا داعى للعيش ليلا . انا احب النور ، ولم يبق لى وقت كثير لاراه . . .

فى فجر اليوم التالى اخذ سفيان الربابة وودع صاحب البيت . ثم قال لنزار :

— تعال معى . ساصبح منشدا اجوب القرى والارياف حتى تحين ساعتى . اذا جئت معى سترى كل الناس ، ستساعدنى

فى الغناء وتأكل ما يجودون به علينا . . . — استطيع ان انظم لك اغانى جديدة لا يعزفها بعد

المنشدون الآخرون — قال نزار .

— انشدنى اياها فى الطريق — رجاء سفيان . اعطاهما صاحب البيت رغيفا ، فمضيا على طريق شارجوى .

ظل نزار وسفيان يجوبان القرى واطراف المدن وبيوت الشعر حتى بداية الصيف . كان سفيان يعزف للناس على الربابة ويغنى بينما يساعد نزار فى بعض الاحيان ، وكانا يأكلان ويعيشان فى طريقهما الطويل . جابا كل الواحات من شارجوى حتى عشق — آباد ، عرجا على بيرم على ومرو واوش — آجى ، وتوغلا الى الآبار والسبخات فى مواضع البدو الرحل ، واخيرا غادرا عشق — آباد متوجهين الى درواز . لم يصادف نزار احدا من ابناء شعبه فى اى مكان .

وانقل على فؤاده التجوال والآمال الخائبة والكتابة والحنين الى كسينيا وايديم وهانم . كان كثيرا ما يسأل من سفيان ، بوصفه انسانا مجربا ذكيا ، عما يمكن ان يحدث لكل ابناء الجان وما سبب غيابهم . وكان سفيان يجيبه ان شخصا او شخصين يمكن ان يموتا ، اما الباقون فيظلون سالمين : فالحياة بالنسبة لشعب مثل الجان يسيرة وممتعة طالما تحمّل نزعات الموت لامد طويل .

— سيبتدع لنفسه حياة تناسبه — قال سفيان — ولن يستطيع احد ان ينتزع منه السعادة . . .

قضى سفيان ونزار فى درواز ثلاثة ايام افترقا بعدها . فقد صمم سفيان على اجتياز البادية الى حسن قلى الواقعة على

نهر اتريك ، بينما اراد نزار ان يعود الى حيوى بطريق الواحة ، ويذهب من هناك الى الديار فى اوست — اورت عبر وادى القصب . كان يخشى على ايديهم ، ولا يدري ماذا حل بهانم التى هى ، على ما يبدو ، فتاة تعيسة لا احد عندها . جمع سفيان ونزار فى البلدة والقرى القريبة ارغفة الخبز ثمنا لموسيقاهما ، واقترا ذات صباح فى جهتين مختلفتين ، ربما الى الابد هذه المرة .

الحر شديد ، لكن نزار متعود على الصحراء وعلى الصبر ، فسار من بشر الى بشر ، وهو يصادف قربها عادة بضلع خيام ، فالصحراء لا تخلو من البشر ، وهم يعيشون فيها دائما وابدا . كان نزار يقضى الليل فى احدى الخيام ويتناول العشاء دوما لدى عائلة من البدو الطيبين وكأنه بين أهله . كان يحمل فى عبه الارغفة التى اخذها من درواز ويأكل نتفا صغيرة منها احيانا اثناء المسير عندما يلم به التعب كيلا يشعر به . وفى اليوم الخامس رأى نزار برج حيوى فركض حتى يبلغ السوق قبل حلول الظلام وقبل ان ينام صاحب الخان ويغلق بابه . ها هو يرى باب الخان مفتوحا والضوء ينير داخله ، وقد خرج شخص ما الى الساحة . سار نزار بخطى هادئة وانحنى محييا الزبائن وصاحب الخان . ثم سأل من هذا الاخير بلامبالاة عن احوال هانم .

عرف صاحب الخان نزار واجابه :

— اشتد حينها اليك .

— لقد جئت الآن — قال نزار .

— تركتنا من زمان — اخبره الرجل — ذهبت لتبحث

عك . . .

— الى اين ؟ — سأل نزار .
— لم نخبرنا بشيء — قال الرجل — انتحيت ، ثم صمت .

اخرج نزار من عبه بقية الرغيف الاخير وراح يمضغها قبل ان تبلغ المصيبة قلبه ، فعند ذاك لن يستطيع ان يأكل شيئا .

— كم انا مدين لك مقابل اطعام هانم ؟ — سأل

نزار .

— لا داعى للنقود — قال صاحب الخان — كانت تغسل الصحون وتكنس الخان ، كانت تشتغل . . .

خرج من الخان الى سوق حيوى الخالى المظلم . وبدد حزنه على هانم المسكينة المفقودة كل ما ألم به من تعب ، فغدا بدنه فى الحال قويا ساخنا ليصارح احزانه . اجتاز الساحة على عجل ثم ركض وسرعان ما وجد نفسه خارج حيوى . ولو توقف لما استطاع ان يتجاوز يأسه ، فقد كان سيبكى ، فى هذه الحال ، او يموت .

سار نزار الليل كله بلا طعام ولا راحة . كان مسرعا الى وادى القصب ، الى اوست — اورت . كان يريد ان يرى ايديهم باسرع ما يمكن ليهدأ قربها وينشغل برعايتها وبالشئون المنزلية والحياة المعتادة . . . وفى حر الظهيرة ألم به تعب شديد ، فوجد شقا فى تلة ثراية عليه ظل ثابت كثيف . طرد العضايا الغافية هناك ونام حتى المساء . . . وفى الليل بلغ حدود منخفض وادى القصب ، ولاول مرة منذ مغادرته حيوى شرب ماء عكرا مالحا بعض الشيء من البحيرة الصغيرة الضحلة . ونام من جديد ، ليتخلص من

حر النهار ، في سكون حفرة ندية ، وواصل سيره منذ بداية
المساء حتى بلغ اوست — اورت في صباح اليوم التالي .
ارتقى المرتفعات على عجل ليرى منازل قبيلته الطينية باسرع
ما يمكن . . .

ركض نزار نحيفا قلعا فارتقى آخر مرتفع وتوقف فرحا
متحيرا . كانت الشمس المضيئة الصافية التي لم تتسخن
بعد على هذا المرتفع تنير ارض اوست — اورت الخالية
الوادة . ولاحت المنازل الاربعة الصغيرة مبيضة الجدران ،
ومن مدخنة المطبخ المعروفة تعالى دخان شعبان يفوح برائحة
الطعام في جو بلا ريع ، وعلى سفح الجبل بعيدا يرى
قطيع من الاغنام فيه ما لا يقل عن مائة رأس ، وعلى
الجانب الاخر من المنخفض الواسع ، على مسافة من المنازل
ربض جملان عجوزان بمضغان مختلف انواع الزبل حولهما
ليطردا الملل ولا يتعبا ذهنهما بالتفكير عبثا . . . وتوجه
نزار مهموما ضيق الصدر الى المنزل ذي المدخنة ، لكن
ايديم خرجت من المنزل الذي في الطرف ويدها دلو خال .
في البداية القت بالدلو على الارض ، لكنها انتهت على
نفسها حالا ورفعته وهرعت الى نزار بقدمين حافيتين . اكتسى
وجهها فجأة بمسحة من الرعب والحزن والقت برأسها على
بطن نزار وسقط الدلو من يدها . كانت تخشى ان يتركها
نزار قريبا من جديد ولن يعود ابدا . فقد احست بذلك
مسبقا ، قبل الاوان . حمل نزار ايديم وذهب بها الى
البحيرة ، فقد نسي ان يشرب الماء ويغتسل . وضعت ايديم
رأسها على كتفه وراحت تحدثه في اذنه كيف عاشت هنا
وحيدة لامد طويل ، ثم جاء تاغان مع قره شورما يقودان

من البادية اربعين نعجة واربعة خراف . لم تكن تلك الاغنام
ملكا لاحد . كانت تسير في اثر جمـل . ربما
ضاع صاحبه فلا يدري الى اين يتوجه . وعندما رأى الجمل
قره شورما في الصحراء جاء اليه بنفسه وريـض قربه ، وربضت الاغنام
حول قره شورما ايضا . وقالت ايديم :

— الاغنام لا تدري من اين تشرب الماء . كانت تجد
اعشابا ، لكنها لا تجد استخراج الماء من الآبار . . .
اما المياه على سطح الارض فلا تصادف الا نادرا . . .
— والجمل الثاني من اين ؟ — سأل نزار .

— الجمل الثاني عثرت عليه بنفسى — اجابت ايديم —
ذهبت الى الصحراء ابحت عنك ، تصورتك قريبا . . .
وهناك بثر على حافتها جذع ساكساول . وكان الجمل راقدًا ،
رقبته على الجذع وعيناه تنظران الى ماء البثر ولعابه يسيل
ويقطر فيها . كان ضعيفا يريد ان يموت . ذهبت الى
المتزل واحضرت دلوًا بحبل وسقيته . . .

قبل نزار ايديم في خدها فابتسمت له واشاحت بوجهها
في اول استحياء انثوى . وضعها نزار على الارض لان البحيرة
التي يقصدانها غدت قريبة .

— سأذهب لاعد لك طعام الغداء ، فقد تعبت
وجعت طبعًا — قالت ايديم وعادت راكضة .

لم يفهم نزار بعد ما الذي حدث هنا في غيابه .
اغسل في البحيرة ونظف ثيابه وعدلها وذهب الى البيت
في القرية الجديدة . الا ان الشمس السائرة نحو الظهيرة
والحر الخائق الذي اكتنف سكون السفوح ارهقاه ، لا سيما
وهو متعب من زمان . رقد في الظل على فسحة صغيرة

فاستولى عليه النعاس وغرقت عظامه المجهدة في بحر النسيان .
استيقظ مساء ، والهلال النحيل يضئ فوق الصحراء ،
والشعب جالس حوله بصمت . لم يستطع نزار ان يتذكر
في الحال اين هو ومن هو ، فاغمض عينيه ثانية ليتذكر .
وحطت يد كبيرة دافئة على وجهه وسمع الصوت الساذج
المعروف بناديه . فقال :

— هانم ! — وشعر بالارتياح والاستقرار ، فبد المرأة
رقية بسيطة . ولم يفكر نزار فيما اذا كان ذلك حلما ام
واقعا ، كان يفكر الآن بهانم وحدها .

— نزار — قالت هانم ورفعت يدها عن وجهه .
شاهد نزار وجه هانم الباسم . كانت جالسة على الارض
قرب رأسه ، وها هي تلمس شعره بحذر . والى جانب هانم ،
قرب قدميه جلس تاغان والشيخ فانكا والملا شيركيزوف وعبدالله
وقرهشورما . وراحوا يحدقون في وجه نزار . وكانوا جميعا
احياء سالمين . لم يصدق نزار عينيه فرفع مقدمة بدنه
ومد لهم يده ولمس كلا منهم على انفراد . ووراءهم جلس
اشخاص لا يعرفهم نزار ، كانوا خمسة رجال واربع نساء
وصبية بعمر ايديم .

— مرحبا يا نزار — قال الملا شيركيزوف .

— انت ترانى ؟ — سأله نزار .

— قليلا — اجاب شيركيزوف — فانا من زمان اتعود
على البصر ، في السابق لم يكن عندنا طعام والروح تتألم ،
فمن اين يأتي البصر ؟ اما الآن فهي تمسح عيني وتقبلهما ،
وهما تريان النور كالضباب .

— من التي تقبل عينيك ؟ — سأل نزار .

— زوجتي هانم — اجاب الملا — اخذتها معي من
نوكوس . فقد جاءت الى هناك من حيوى وكانت تعيش
وحيدة في السوق . . . نم يانزار ، فان ايديهم لم تسمح لنا
بايقاظك .

— استيقظت — قال نزار ، وجلس على الارض بين
الجميع وادرك ان كل شيء على ما يرام .

وسرعان ما جاءت ايديم راکضة من منازل الطين .
فقد علمت ان نزار استيقظ . ودعت الجميع ان يذهبوا
لتناول الرز المحمر الذي اعدته من اجل نزار .

اخذت هانم يد الملا شيركيزوف وسارت في اثر نزار
الذي اخذت يده ايديم . ورأى نزار قرب المنازل قطع
الاغنام رابضا لقضاء الليل وعدده يتجاوز المائة . وفي احد
الاحواش وقف ثلاثة حمير بالاضافة الى الجمالين . فمن
اين للشعب الصغير بكل تلك الخيرات ؟ فكل ما كان
هنا قبل ذهاب نزار هو ثلاث نعاج وخروف واحد على ما
يتذكر .

تفقد نزار المنازل الاربعة . كان داخلها نظيفا وحيطانها
مظلية بالبياض ، وفي احدى الحجرات رأى احتياطيا من
الصوف وبساطين غير كبيرين حبكا هنا بايدي النساء اللواتي
جنن للعيش مع شعب الجان .

اعدت ايديم عشاء بهيجا للجميع . على ارضية المنزل
حصر مغسولة ، وفي الابريق الخزفية اعشاب طرية من
وديان اوست — اورت الجبلية البعيدة ، وفي اطباق خزفية
كبيرة كميات وفيرة من الرز المحمر لاطعام شعب بكامله .
جلس حول تلك الاطباق خمسة كهول تركمانيين في سن

الشيخوخة تقريبا لا يعرفهم نزار وسبع نساء ، بالاضافة الى الاشخاص الذين احاطوا بترار عندما كان نائما . انحنى لقبيلته كلها ولكل الاقارب الجدد الذين جاءوا الى هنا ليعيشوا معا . طلبت منه ايديهم ان يدشن الرز قبل الآخرين ، ويعد ذلك اخذ الجميع يتناولون الطعام على مهل مقدرين قيمته وأهميته . . .

جلس الشعب يتجاذب اطراف الحديث طول الليل مرتاحا للمودة واللقاء . والفانوس ينير من وسط الارضية مطوقا بالحاضرين . ومن حين لآخر يخرج احد ما ليتفقد الاغنام والحمير والجمالين ويعود من جديد . وغفت الصبية الجديدة قرب امها ، وغفت ايديهم ايضا ورأسها على ركبتى نزار . وكان النعاس يداعب هانم السعيدة لكنها تخجل من رغبتها فى النوم بحضور نزار . والصمت يخيم على اوست — اورت . والهلال النحيل هبط من زمان وراء الصحراء وآوت كل الحيوانات المتوحشة الى الرمال والجبال ، لا شئ غير الحمير تنهق من حين لآخر فى الحوش .

وسأل نزار من قره شورما والملا شيركيزوف :

— لماذا تركتمونا فى الشتاء ؟

عبسا متحيرين لفكرة غريبة خطرت على بالهما ، فاجاب الشيخ فانكا بدلا عنهما :

— ظننا ان الدنيا خالية من زمان . . . وتصورنا اننا بقينا لوحدها فيها ، فما الداعى لان نعيش اذن ؟
وقال عبد الله :

— ذهبنا لتأكد . دفعنا الفضول لنعرف هل هناك ناس آخرون .

فهمهم شاعاتايف وسألهم هل ايقنوا بالحياة ولن يموتوا بعد الآن ؟ فاجاب شيركيزوف :

— لا داعى للموت . ربما يصادف ان يكون لموت الانسان مرة واحدة نفع وضرورة . لكنه لن يفهم سعادته للمرة الاولى ، ولن يكفيه الوقت ليموت مرة ثانية . فلا متعة فى ذلك . . .

— ومن اين لكم الاغنام والجمالان ؟ من اين اخذتم هذه الخيرات الوفيرة ؟ — سأل نزار .

— الاغنام كسبناها — افاد تاغان ثم تحدث كل واحد منهم عما جرى له .

فبعد ان اقتنعوا بواقعية العالم وروعته وعاشروا النساء وتناولوا مختلف انواع الطعام توجه تاغان وعبد الله وسائر افراد الجان للعمل حيثما وجدوا نفعاً . وكان الشيخ فانكا يستلم نقودا مقابل رقصاته الجيدة فى الحانات والمقاهى والاسواق وفى حفلات الزفاف الروسية ، وكان عبد الله يكسر الاحجار لرصف طريق السيارات فيما وراء شارجوى ، وكان الملا شيركيزوف ينظف الاصواف فى نوكوس . كانوا يأكلون قليلا ، فقد تعودوا على ذلك فى حياتهم السابقة ، وكانوا يتصورون فقراء المدن تجارا ، ثيابهم تكاد تكون سليمة . ولذا تجمعت نقود لدى كل منهم . واشتروا بها مقتنيات متنوعة ، بعضهم اشترى اغناما وبعضهم حميرا ، والبعض الثالث اغناما وحميرا ، ومنهم من تزوج ، ثم عادوا بالتدريج الى منازلهم فى اوست — اورت ، بعد ان اتضح لهم ان الحياة ممكنة ، وقريتهم الجديدة تنتصب بعيدا خالية غير مأهولة ، لكنها ملكهم ومأواهم العزيز عليهم . . . فى الصحراء —

قرب السباح وفي مجاري الانهار الجافة المنسية وفي الوهجات الندية لا تزال تعيش بقايا مترددة من القبائل والافخاذ المنقرضة . وعندما اقتاد ابناء الجان الاغنام والحمير الى قريتهم ممسكين بأيدي زوجاتهم صادفوا اولئك الناس المجهولين . واحضر عبدالله معه ستة اشخاص منهم دفعة واحدة . ولم يأخذ تاغان والشيخ فانكا احدا من هؤلاء الناس المتسبين لكنهم تبعوهما لكي ينجوا بانفسهم من اجل مواصلة الحياة . — وما هم يعيشون معنا الآن على قدم المساواة — اشار الشيخ فانكا الى الغرباء — فليبقوا ، لن نصبح اكثر فقرا بسببهم . . .

— كلا ، ستصبحون اغنياء — قال نزار .
— سندبر امورنا ونغتنى — وافقه الشيخ فانكا — عشنا حتى عندما كنا كالاموات ، وليس صعبا علينا ان نعيش بخير .

— بل وليس في ذلك متعة — قال عبد الله .
— كل المتعة ان نعيش الآن بخير — اجابه نزار — المصائب والاحزان ستأتينا ايضا ، فلنكن اذن بشكل آخر وليس بائسة كما كانت . مصائبنا كانت شبيهة بمصائب العضايا او السلاحف .
— صحيح ! — قالت هانم فجأة بعد ان كانت تغفو بصمت .

— من اى قبيلة انت ؟ — سأل نزار شيخا تركمانيا مظهره يدل على انه اكبر الجميع سنا .
— نحن من الجان — اجابه العجوز واتضح من كلامه ان كل القبائل والافخاذ الصغيرة وحتى مجرد الجماعات

المقيمة في الاماكن الصحراوية الخالية وفي اموداريا واوست — اورت وهي في سبيل الانقراض التدريجي تسمى نفسها باسم واحد — الجان : وتلك كنية مشتركة اطلقها عليهم في حينه البايات الاثرياء ، لان كلمة الجان تعنى الروح ، وليس لدى الفقراء الخاوين كالاشباح سوى الروح ، اى القدرة على الاحساس والألم ، وبالتالي ، تجسد كلمة «الجان» سحرية الاغنياء بالفقراء . فالبايات كانوا يظنون ان الروح هي اليأس وحده ، لكنهم انفسهم هلكوا من الروح ، لان لديهم قليلا منها ، قليلا من القدرة على الاحساس والالم والتفكير والكفاح ، فالروح هي ثروة الفقراء . . .

غفا الشعب ، وفتحت هانم فمها في نوم لذيذ ومال رأسها على زوجها الملا شيركيزوف . ووقد نزار بحذر في نفس المكان الذي كان جالسا فيه كيلا يوقظ ايديهم النائمة ورأسها في حضنه ، ثم اغمض عينيه في هدوء السعادة والكرى .

٢٠

ظل نزار شاعغاتايف بين ابناء شعبه في اوست-اورت الى نهاية الصيف . وحتى ذلك الحين ظهرت في القرية ثلاثة منازل جديدة من الطين وتلقحت اربع نساء من ازواجهن وحملن الاجنة في بطونهن . وفي نوفمبر عاد الشيخ فانكا وقرهشورما من حيوى . فقد بعثهما نزار الى هناك مع قطع من ثلاثين رأسا ليسلما الصوف واللحم الى الدولة ويشتريا بالنقود التى يستلمانها دقيقا ورزا وملحا وكبروسينا وسواها ، بالاضافة الى ثياب جديدة ، لتوفير احتياطي يكفى لموسم

الشتاء حتى الصيف القادم حيث يكبر جيل جديد من الاغنام في القطيع .

وفي اواخر نوفمبر ودع نزار شعبه ، ونصحه بان يختار هانم لتكون بمثابة العمدة بدلا عنه ، مع انها حامل من الملا شيركيزوف منذ خمسة شهور . فريما سيعود نزار من موسكو الى اوست - اورت عندما يحين موعد الولادة . فكر الشعب قليلا ووافق على الاقتراح . فالمرأة غالبا ما تكون افضل من الرجل ، والام اعز وأحب من الاب .

اخذ نزار الصبية ايديم معه . فقد وعد بتعليمها في موسكو . وعندما تصبح متعلمة ستعود بنفسها الى اوست - اورت وتعلم كل من تجده هناك كيف يواصل العيش بالشكل الصحيح . . .

ذات صباح اخذ نزار وايديم قليلا من الطعام وهبطا من مرتفع اوست - اورت . وخرج شعب الجان كله لتوديعهما . وعندما نزلا الى منخفض وادى القصب التفت نزار : كان الشعب لا يزال واقفا على المرتفع يشيعهما بنظراته . وقال نزار :

— انظري يا ايديم الى كل من بقى هناك وودعيهم !
— ساعد على اية حال في وقت ما ، وسأراهم —
اجابت ايديم ولم تلتفت الى الناس الصغار الذين ظلوا بعيدين . تبعتهما النعاج الثلاث والخروف طوع ارادتها حتى الظهر ، ثم تخلفت وضاعت في الاصقاع الخالية .

قطع نزار وايديم المسافة من حيوى الى شارجوى في شاحنة ، واستقلا القطار من شارجوى الى طشقند . امضى نزار في طشقند يومين لكي يبلغ المسؤولين بنشاطاته . وتلقى

في اللجنة المركزية للحزب شكرا على عمله لانقاذ القبيلة المتجولة من الهلاك في دلتا اموداريا ، وقالوا له ان هؤلاء الناس سيشقون طريقهم الكبير بانفسهم ولن يبقوا في المنخفض الصغير في اوست - اورت . فللسعادة دوما ابعاد كبيرة ، وهى تضاهى الاشتراكية كلها .

نزلت ايديم مع نزار في خان قرب محطة القطار وما كانت تخرج الى الشارع بدونه لشدة خوفها . وفي مساء اليوم التالى اخذ نزار يدها وتوجها لركوب القطار الذاهب الى موسكو . وفي المحطة ارسل نزار برقية الى كسينيا دون ان يعرف هل تذكره الآن ام لا . وتطلعت ايديم الى نزار مندهشة . فقد خلق لحيته وشاربيه ولم يعد يشبه ذاك الذى كان يمشى معها فى الصحراء ويجوب الجبال ويخوض المياه . لمست يديها بدلتها الجديدة التى ارتداها فى طشقند وفكرت بان نزار غنى جدا . لكنه اشترى لها هى ايضا ثيابا اوزبكية جديدة ، وجعلها تغير كل ثيابها فى عربة القطار . وخبا رداءها البالى فى جيبه لسبب ما .

سوف نزار الليلة الاولى كلها تقريبا فى ممر العربة ينظر من نافذتها الى الصحراء والسهوب ويلاحظ النيران فى مواقع الرعاة النادرة البعيدة . وكانت ايديم نائمة على الرف ، ونزار يعدل البطانية عليها احيانا ويصف يديها ورجليها من جديد عندما تنشرهما على طريقة الاطفال ، ويمسد شعرها عندما تتمم فى المنام لتعضم بعسر انطباعات النهار .

فى محطة القطار بموسكو استقبلت كسينيا نزار . لقد نمت وتغيرت عما كانت عليه اثناء فراقهما وصارت كالمرأة الحقيقية . كانت ترتدى معطفا ذا ياقة رمادية عريضة وقبعة

سوداء ، فالوقت في موسكو شتاء . بكت عيناها الملونتان عندما رأت نزار بين حشد من الركاب . ركضت اليه وعانقته فتوقفت حركة الناس وراءهما . ولم تلاحظ كسينيا رأسا ان صبية في فستان مشجر طويل مما يرتديه ذلك الشعب البعيد تقف قرب نزار وتمسك بطرف سترته . كانا كلاهما بلا معطفين ، ولذا فتحت كسينيا معطفها بعد ان تعرفت على ايديم ورفعتها بيديها والصقت بدنها بصدرها . كانت كسينيا اطول من ايديم بكثير ومع ذلك احتقن وجهها من شدة التوتر . وفي ساحة المحطة استأجرت كسينيا سيارة تاكسي لان البرد اشتد بترار والصبية .

— الى اين سنذهب ؟ — سأل نزار من كسينيا ، فليس لديه جهة يذهب اليها في موسكو .
— الى منزل امي — اجابت كسينيا — فقد هياتُ غرفتها لكما .

جلست كسينيا في السيارة محتقنة الوجه من الحياة او من الفتوة التي تتصور الحياة معيبة بسبب الملذات . توقفت السيارة ، وسلمت كسينيا المفتاح لنزار ودعته لزيارتها غدا ، و اضافت :

— لكن عنواني تغير . فأنا اعيش لوحدي ، على انفراد ، برقيتك استلمتها جدتي وبعثتها الي . . .
وكتبت له العنوان على قصاصة ورق من دفتر ، وودعتها . دخل نزار المنزل الجديد الذي يعرفه . وامسكت ايديم بيده . ولم تكن لديهما امتعة .

في الغرفة الكبيرة المؤثثة باثاث فيرا البسيط جلس نزار على السرير دون ان يخلع سترته ، ثم وضع رأسه على البطانية .

كان عبق فيرا الأبدى لا يزال محفوظا في فراشها . تنشق نزار هذا العبق وراح يفكر حتى استولى عليه النعاس . وصعدت ايديم على رف النافذة واخذت تتطلع من هناك الى موسكو الهائلة .

وفي صباح اليوم التالي ذهب نزار مع ايديم الى الحوانيت واشترى لها بلوزات وتنورات اوربية الطراز ومعطفين واحدا لها والاخر له . وتغيرت ايديم حالا في اللباس الجديد . ورأى نزار انها في منتهى الجمال .

وفي المساء ذهبا الى كسينيا . وكان الطريق طويلا الى اعماق حارة زاموسكفورييتشيه . استقلا الترام وبعده سارا كثيرا حتى بلغا اخيرا ، بموجب العنوان المكتوب ، دار طلبة معهد الفحم النباتي . يبدو ان كسينيا تدرس في هذا المعهد الآن .

ولها في دار الطلبة ، مثل الكثير من البنات ، غرفة منفردة . طرق نزار الباب . ولما كانت الجدران الفاصلة بين الغرف وجدران الرواق نفسه خفيفة فقد قالت ثلاثة اصوات ، من بينها صوت كسينيا : « ادخل » .

فتحت الباب وتورد محياها في الحال واكتسى بمسحة من الانفعال العسير . وعلى الطاولة طعام متواضع اعد مسبقا ومغطى بغطاء . اجلست كسينيا الضيفين ورفعت القفظة عن الطعام واخذت تلح عليهما فورا بان يتناولاه ، لكن الشوكات والملاعق والسكاكين تتساقط من يديها على الارضية . ومما زاد في الطين بلة ان القنينة الملوثة بالزيت التي صبت فيها النبيذ الاحمر ، ولعلها قنينة الكيروسين ، علقت بها صدفة فسال النبيذ على الطاولة عبثا . وركضت كسينيا الى

الدلهيز والتجأت الى المرحاض وانتجت هناك من شدة
الجبل البائس المؤلم . ورتبت ايديم الامور بدونها حتى
انها اعادت التبيذ المنسكب على الطاولة الى القنينة وجمعت
منه ربع كميته السابقة . عادت كسينيا وتحت عينيها غصون
دائرية قائمة وطلبت منهما مع ذلك ان يأكلا ما اشترته
وطبخته . وما عدا ذلك لم تكن تعرف ماذا تقول . لم
يكن بوسعها ان توضح لماذا تشعر بوخز الضمير احيانا لانها
حية ترزق ولماذا يحزنها احساسها بانها امرأة ، انسان يتنى
السعادة والارتياح . وحتى عندما تبقى لوحدها تغطي وجهها
بيديها من هذا الشعور وتحتقن وجنتها تحت راحتها .
اكل نزار وايديم شيئا من الطعام بحكم اللياقة وودعا
مضيفتهما . ووعدها نزار بان يزورها مرة اخرى بعد عدة ايام .
لكنهما التقيا قبل ذلك . ففى المساء التالى جاءته
كسينيا بنفسها . كانت تريد مساعدة ايديم كما تساعد المرأة
صبية اصغر منها . اخذتها كسينيا الى الحمام العمومى ،
ومن هناك ذهبت معها للتفرج على المترو وعادتا الى المنزل
فى ساعة متأخرة .
وفى عطلة الاحد جاءت كسينيا من الصباح وجلبت
بعضا من البستها الداخلية التى غدت صغيرة عليها ومناسبة
لايديم . فى ذلك اليوم ذهبوا ثلاثتهم الى المطعم وتناولوا
الغداء ، ثم تزهوا ودخلوا دارا للسينما وعادوا فى المساء .
تكررت ايديم على سرير ام كسينيا وغفت فى الحال . وجلس
نزار وكسينيا على اريكة صغيرة مقابل الصبية النائمة وراحا
يتطلعان بصمت اليها ، الى وجهها المحتفظ بقسمات الطفولة
وآثار الآلام والهموم ، الى التعابير الواضحة عن طاقتها الرفيعة

النامية التى جعلت تلك القسمات ضئيلة مطموسة . واخذ نزار
يد كسينيا واحس بنبضات قلبها المتسارعة البعيدة وكأن روحها
تريد ان تخترق الحواجز لتنجده . وادرك نزار الان ان النجدة
لن تأتية الا من شخص آخر .

والمضى والصامت . أحست ان قلبها يخور من خفة الهواء ومن الأمل بعودة حبيبها . ورأت صورتها منعكسة في نافذة صالون الحلاقة : هيئة مبتذلة ، وشعر منفوش ومصفف امواجاً (كانوا يضعون مثل هذه التسريحة في فترة ما في القرن التاسع عشر) ، وعينان رماديتان عميقتان تتطلعان بحنان متوتر كأنه مصطنع . . لقد تعودت ان تحب الراحل ، وازادت منه ان يحبها دائماً وابدأ ، بحيث تضطرم داخلها حياة أخرى لطيفة وتمتد في نفسها العادية المملة . ولم تكن هي قادرة على الحب كما تريده . . بقوة واستمرارية . كانت تتعب احياناً ، وعندئذ تبكي من الحسرة لان قلبها لا يستطيع ان يحب بلا كلل .

كانت تسكن شقة جديدة من ثلاث غرف . وفي احدى الغرف سكن ابوها الأرملة سائق القطار ، وفي الغرفتين الأخريين عاشت هي وزوجها الذي رحل الآن الى الشرق الاقصى ليضبط ويشغل أجهزة كهربائية سحرية . كان يعمل دائماً في اسرار الماكينات ، مؤملاً ان يتمكن بواسطة الآليات من تغيير العالم كله من اجل خير البشرية وسعادتها او من اجل شيء ما آخر . . لم تكن زوجته تعرف على وجه الدقة . كان الأب يقود القطارات نادراً لكبر سنه . وقد عينوه سائقاً احتياطياً يحل محل المرضى من العاملين ، ويعمل في اختبار القاطرات بعد التصليح او في قيادة القطارات الخفيفة للمسافات القريبة . وقد حاولوا في العام الماضي ان يحيلوه الى التقاعد . ووافق العجوز وهو لا يعرف ما هذا ، لكنه بعد ان عاش اربعة أيام حراً ، خرج في اليوم الخامس الى ما وراء السيمافور وجلس على ربوة في الشريط الموازي للسكة

فرو . . .

سافر بعيداً ولمدة طويلة ، بلا رجعة تقريباً . وغنت قاطرة القطار السريع وهي تبتعد في الفضاء اغنية الفراق . وانصرف المودعون من رصيف الركاب عائدين الى حياة الاستقرار ، وظهر حمال بمكنسة واخذ ينظف الرصيف كبحار ينظف سطح سفينة جنحت في مياه ضحلة .
— ابتعدي يا مواطنة !

قال الحمال لساقين مليئين وحيدتين .
وابتعدت المرأة الى الجدار ووقفت بجوار صندوق البريد فقرأت عليه مواعيد تفريغ الرسائل . كان الصندوق يفرغ كثيراً ، واذن فمن الممكن كتابة الرسائل يومياً . ومست بأصبعها جسم الصندوق الحديدى . . كان متيناً ، واذن فلن تضيع منه أى روح تحتويها رسالة .

خلف المحطة امتدت المدينة الجديدة لعمال السكك الحديدية . وعلى جدران المنازل البيضاء ارتعشت ظلال أوراق الاشجار ، واضاءت شمس الصيف الغاربة الطبيعة والمنازل بنور واضح حزين كأنما عبر فراغ شفاف لا هواء فيه للتنفس . لاح كل ما فى الدنيا على اعتاب الليل واضح المعالم للغاية ، ظاهراً وباهراً وأثيرياً ، ولذا بدا وكأنه غير موجود . توقفت المرأة الشابة مندهشة وسط هذا النور الغريب . فخلال سني عمرها العشرين لم تذكر مثل هذا الفضاء الخاوى

الحديدية ، وظل جالسا هناك حتى حلول الظلام ، وهو يتابع بعينين باكيتين القاطرات الراكضة بمشقة في مقدمة العربات . ومن يومها أصبح يتردد على تلك الربوة يوميا ليتطلع الى الماكينات ويعيش على التعاطف والخيال ، ويعود الى البيت في المساء متعبا ، وكأنه عائد من رحلة شاقة . وفي البيت يغسل يديه ويتنهد ويقول انه عند منحدر الكيلو تسعة انفصلت لقمة القرامل في احدى العربات او حدث شيء ما آخر ، ثم يسأل ابنته في خجل ان تعطيه قليلا من الفازيلين ليدهن راحته اليسرى التي تسلخت ، كما يدعى ، من المحبس المشدود ، ثم يتعشى ، ويدمدم بكلام ما ، وسرعان ما ينام في سعادة . وفي الصباح يتوجه السائق المتقاعد الى الشريط الموازي من جديد ويقضى يومه في المتابعة والدموع والخيال والتعاطف وهيجان الحماسة الوحيدة . فإذا كان ثمة خلل من وجهة نظره في القاطرة المارة ، او كان السائق يقودها على غير ما ينبغي ، يصرخ فيه من نقطة مراقبته العالية بكلمات الشجب والأوامر : « أكثر الماء ! افتح المحبس يا لثيم ! انفخ ! » ، « وفر الرمل ، لا تبذره بحماقة ، ستوقف على المرتفع ! » ، « شد الشفاه ، لا تضع البخار ، ما هذه لديك . . . قاطرة ام حمام ؟ » . وعندما يرى تركيبا غير صحيح لعربات القطار ، عندما توضع مقطورات الشحن الخفيفة الخاوية في المقدمة والوسط مما يعرضها للتحطم في حالة شد فرملة الطوارئ ، عندها كان السائق المتقاعد يهدد بقبضته من فوق الربوة الكمسارى الواقف في آخر عربة . وحينما تمر القاطرة التي كان يعمل عليها السائق المتقاعد نفسه والتي أصبح يقودها مساعده السابق فينيامين ، كان

العجوز يجد دائما عيباً واضحاً في القاطرة — في أيامه لم يكن ذلك موجوداً — فينصح السائق باتخاذ اللازم ضد مساعده المهمل صائحاً من ربوته : « فينيامين ، فينيامين ، ناوله في سحنه ! » . وفي الأيام الغائمة كان يأخذ معه المظلة ، أما الغداء فكانت تحمله اليه فوق الربوة ابنته الوحيدة ، لأنها كانت تشفق على أبيها عندما يعود في المساء هزيعاً ، جائعاً ، مسعوراً من شهوة العمل التي لم يرو غليلها . بيد أنه منذ زمن قريب ، وبينما كان السائق البالي يصيح وبسب كعادته من فوق الربوة ، جاءت سكرتير المنظمة الحزبية للورش الرفيق ييسكونوف ، وأخذ بيد العجوز وقاده الى الورش . وأعاد كاتب الورش تسجيل العجوز عاملاً على القاطرات . وصعد السائق الى قمرة احدى القاطرات الباردة وجلس بجوار المرحل وأغفى منهكا من فرط سعادته ، وهو يحتضن رجل القاطرة باحدى ذواعيه . وكأنما يحتضن بطن البشرية الكادحة بأسرها ، والتي عاد اليها من جديد . — فروسيا . . . — قال الاب لابنته عندما عادت من المحطة بعد وداع زوجها في سفرته البعيدة — يا فروسيا ، اعطيني من القرن شيئا آكله . اخشى أن يستدعوني ليلاً للسوافة كان يتوقع ان يستدعوه كل لحظة لقيادة قاطرة ، ولكنهم لم يكونوا يستدعونه الا نادراً ، مرة كل ثلاثة او اربعة ايام ، عندما تكون هناك رحلة قطار من تشكيلة عربات خفيفة أو تتوفر مهمة اخرى سهلة . ومع ذلك كان الاب يخشى ان يمضي الى العمل جائعاً ، غير مستعد ،

عبوساً ، ولذلك كان دائم الاهتمام بصحته ونشاطه وحسن هضمه ، معتبراً نفسه من الكوادر البارزة فى السكك الحديدية .
— يا حضرة السائق !

كان العجوز يقول ذلك احيانا باعتزاز وببطء ، مخاطباً نفسه ، ويصمت صمتاً عميق الدلالة رداً على ذلك ، وكأنه يسمع تصفيقا مدويا بعيدا .

اخرجت فروسيا القدر من القرن وقدمت لأبيها الطعام . وكانت شمس المغيب تخرق الشقة ويتغلغل نورها حتى جسد فروسيا الذى كان قلبها ينبض فيه بالدفع ويضخ الدم المتدفق والاحاسيس الحية بلا توقف . وانصرفت الى غرفتها . وعلى طاولة هناك كانت صورة زوجها وهو طفل . . فبعد الطفولة لم يأخذ لنفسه اى صورة لأنه لم يكن يهتم بنفسه ولا يؤمن بأهمية وجهه . فى الصورة الباهتة كان يقف طفل برأس مولود كبير ، فى قميص قصير وسروال رخيص وحافي القدمين . ومن خلفه ظهرت اشجار سحرية وعلى البعد لاحت نافورة وقصر . كان الصبى يحدق باهتمام فى العالم الغريب عليه بعد ، دون ان يلاحظ الحياة الرائعة المرسومة خلفه على لوحة المصور . كانت الحياة الرائعة فى هذا الصبى ذاته ، ذى الوجه العريض المتحمس والخجول ، والذى كان يمسك فى يديه عشبة بدلا من اللعبة ، ويلمس الأرض بقدميه العاريتين البريثتين .

حل الليل . وساق راعى البلدة الأبقار الحلوب من السهب الى البيوت . وخارت الابقار وهى تتجه الى اصحابها للمبيت . وخرجت النساء ، ربات البيوت ، لتأوى الابقار فى الحظائر . ويرد النهار الطويل متحولاً الى ليل . وجلست

فروسيا ملتفة بظلام الغسق ونعمة الحب وذكرى حبيبها المسافر . و وراء النافذة تسامقت الصنوبرات فى بداية طريق مستقيم نحو الفضاء السماوى السعيد ، وتناهدت اصوات ضعيفة لطير تافهة تدندن بآخر اغنيات النعاس ، وردت الجنادب ، حراس الظلام ، بأصواتها الآمنة الوادعة بأن كل شىء على ما يرام وانها ساهرة ترى .

وسأل الأب فروسيا عما اذا كانت ستذهب الى النادى ، فهناك يقدمون اليوم عرضاً جديداً ، ومباراة فى اسماء الزهور ، ونمر تسلية من احتياطى الكمسارية .
— كلا ، لن اذهب — قالت فروسيا — سأبقى واشتاق الى زوجى .

فقال العجوز :

— الى فيدكا ؟ سيعود . بعد سنة واحدة سيكون هنا . . حسناً ، اشتاقى اذن ! انا مثلاً كنت اغيب احيانا يوماً أو يومين فتشتاق الى المرحومة امك ، حتى فى هذه الغيبة . كانت برجوازية !
فقالت فروسيا بدهشة :

— اما انا فلست برجوازية ، ومع ذلك اشتاق !
كلا ، انا ايضا برجوازية فى الغالب .
فطمأنها ابوها :

— هيه ، اى برجوازية انت ! . . لم يعد لهن وجود ، متن من زمان . حتى تبلغى البرجوازية عليك ان تعيش طويلاً وتدرسى . . . كن نساء محترمات . . .
فقالت فروسيا :

— اذهب يا بابا الى غرفتك . سأقدم لك العشاء قريباً .

اما الآن فأريد ان أبقي وحدي . . .
فوافق الأب :

— حان وقت العشاء ، والا فقد يأتي المستدعي من الورشة ، اذ ربما مرض احدهم ، أو اغرق في الشراب ، أو حدثت مشكلة عائلية ، فما أكثر ما يمكن ان يحدث . وعندئذ ينبغي ان احضر فوراً ، فالحركة لا يمكن ان تتوقف ابداً ! ايه ، فيدكا زوجك يطير الآن في القطار السريع ، والاشارات الخضراء تضيء له والطريق يخلونه لاربعين كيلومترا الى الامام ، والسائق يرى بعيدا ، والكهرباء تنير له الماكينة . كل شيء كما ينبغي !

تلكأ العجوز في الانصراف ، وراوح في مكانه وهو يواصل الترتة . . فقد كان يحب ان يبقى مع ابنته أو مع غيرها عندما لا يكون قلبه وعقله مشغولين بالقاطرة .
— بابا ، هيا تعش ! — أمرته ابنته ، فقد ارادت ان تصغي الى الجنادب وترى الصنوبرات الليلية خلف النافذة وتفكر في زوجها .

فقال الأب بصوت خافت وهو ينصرف :
— خلاص ، بدأ القرف !

اطعمت فروسيا اباها وغادرت البيت . وفي النادي تأجج المرح . كانت الموسيقى تصدح هناك ، ثم تنهى غناء المسلمين من احتياطي الكمسارية : «يا سلام على الشريرين يا سلام ! على كيزانه الحلوين يا سلام !» «الوابور يقول توت — توت — توت ، والطيارة بتقول رور — رور — رور ، والمركب يقول دور — دور — دور . . . انزل وطى معانا ، واطلع تانى معانا ، غنى معانا توت — توت — رور — رور . .

الرشاقة والثقافة والانتاج هم هدفنا ! . . .
وكان الجمهور في النادي يتحرك ، ويدمدم متردداً ، ويعانى من أجل البهجة في اثر المسلين .
مرت فروسيا بالنادي ، فوصلت بعده الى الخلاء ، حيث يبدأ صفا اشجار الوقاية على جانبى الخط الرئيسى . ومن بعيد من جهة الشرق قدم قطار سريع وماكينته تعمل بأقصى طاقتها وتصارع الفضاء ، وكشافها المتلائي يضيء الارض امامها . لقد قابل هذا القطار في مكان ما قطار الركاب السريع المنطلق الى الشرق الاقصى ، ورأت هذه العربات زوج فروسيا الحبيب بعد ان ودعته هي ، ومن ثم راحت تتأمل بانتباه وعناية هذا القطار الذى كان قريبا من زوجها بعدها . وعادت الى المحطة ثانية ، ولكن القطار الذى توقف فيها تحرك قبل ان تصل . واختفت عربته الاخيرة في الظلام وقد نسيت كل من قابلتهم والتقت بهم . ولم تر فروسيا على الرصيف او داخل المحطة اى شخص غريب وافد ، اذ لم يهبط أحد من القطار ، فلم تجد من تسأله عن قطار الركاب السريع المقابل وعن زوجها . فمن الجائز ان يكون احد قد رآه او يعرف عنه شيئا !
اما داخل المحطة فلم يكن هناك سوى عجوزين جالسين في انتظار قطار نصف الليل للخطوط المحلية ، وعاد كناس النهار يكنس القمامة تحت قدميها . انهم دائما يكنسون عندما تريد أن تقف وتفكر ، ولا يعجبهم أحد . ابتعدت فروسيا قليلا عن الكناس ، ولكنه عاد يقترب منها ثانية .
سألته :

— ألا تعرف . . هل يواصل القطار السريع رقم اثنين سيره بسلام ؟ تحرك من هنا في النهار . ألم يصل المحطة أي خبر عنه ؟
فقال الكناس :

— المفروض ان يخرج الناس الى الرصيف عند وصول القطار . والآن لا يتوقع وصول قطارات ، فلتدخل يا مواطنة الى المحطة . . دائما يتجمع هنا شتى الجمهور ، بدلا من ان يناموا في بيوتهم على الاسرة ويقرأوا الصحف . كلا ، انهم لا يطيقون . . لابد أن يأتوا ليوسخوا المكان . .
مضت فروسيا مع الخط الحديدى واشارات التحويل الى الجهة الاخرى من المحطة . هناك يقع المبنى المستدير لورش قاطرات البضائع ومخزن الفحم وحفر الخبث والقرص الدائرى للقاطرات . واضاءت اعمدة النور العالية بضوء ساطع المكان الذى حلقت فوقه سحب البخار والدخان ، فقد كانت بعض القاطرات توجج مرجلها بقوة لزيادة البخار استعدادا للسفر ، وبعضها الآخر يفرغ بخاره ويبرد لكي يجرى غسله .

مرت بجوار فروسيا اربع نساء يحملن مجاريف حديدية بمغارف ، ومن خلفهن سار رجل ، هو المشرف او رئيس الفرقة .
وسأل فروسيا :

— من الذى ضاع منك هنا يا حلوة ؟ ما ضاع لن تجديه ، ومن سافر لن يعود . . هيا معنا نساعد المواصلات !
وفكرت فروسيا قليلا ثم قالت :

— اعطنى مجرفة !
— هاكى مجرفتى — قال رئيس الفرقة واعطاها مجرفته ، وقال مخاطبا النساء الاخريات — اذهبن يا نساء الى الحفرة الثالثة ، وسأذهب انا الى الحفرة الاولى . . .
وقاد فروسيا الى حفرة الخبث حيث تفرغ القاطرات مواقدتها ، وأمرها ان تعمل ، وانصرف . كانت امرأتان تعملان فى الحفرة من قبل وتلقيان بالخبث الساخن الى الخارج . وهبطت فروسيا حيث كانتا وبدأت تعمل ، وقد سرها ان بجوارها صديقات مجهولات . وصعب التنفس بسبب السخام والغاز ، واتضح ان لقاء الخبث الى أعلى ممل ومزعج لأن الحفرة كانت ضيقة وحارة . ولكن روح فروسيا شعرت بالراحة . . فهنا تسلى ، وتحيا وسط الناس ، مع صديقات ، وترى الليل الكبير المنطلق الذى تضيؤه النجوم والكهرباء . ونام الحب قريبا فى قلبها . . فقد اصبح القطار السريع بعيدا ، وعلى الرف العلوى لعربة صلبة المقاعد نام رجلها الحبيب محاطا بسبييريا . فليثم وليصرف ذهنه عن التفكير ! وليتطلع سائق القطار بعيدا الى الأمام وليقده بأمان .
بعد قليل صعدت فروسيا واحدى المرأتين من الحفرة . كان ينبغى الآن شحن الخبث المرفوع من الحفرة فى عربة شحن مكشوفة . وتبادلت المرأتان النظرات الى بعضهما البعض وهما تقذفان بالفحم فوق جدران العربة ، ومن حين لآخر كانتا تتحدثان لكي تستريحا وتستشقا الهواء .
كانت صاحبة فروسيا فى حوالى الثلاثين . وكانت تشعر بالبرد ، وتسوى ملابسها الفقيرة أو تخاف عليها . وقد افرجوا عنها اليوم من الحبس ، حيث أمضت اربعة أيام بمكبدة

من أحد الأشرار . وزوجها يعمل حارساً ، يطوف ببندقية حول مبنى الجمعية التعاونية طول الليل ، ويتقاضى ستين روبلا شهرياً . وعندما أودعوها الحبس بكى زوجها حزناً عليها وذهب إلى المسؤولين يرجوهم أن يطلقوا سراحها ، أما هي فكانت تعاشر قبل الحبس عشيقاً ، روى لها عفواً في لحظة ضعف (ربما بتأثير الخور أو الخوف) عملية احتيال قام بها . ولكنه على ما يبدو قد خاف بعد ذلك فأراد أن يقضى عليها ، حتى لا يكون عليه شهود . ولكنه وقع الآن ، فليتعذب ، أما هي فستعيش مع زوجها وتنعم بالحرية ، فلديها عمل ، والخبز الآن يباع ، أما الملابس فسيجدان الوسيلة معاً لشراؤها .

وقالت لها فروسيا انها هي ايضا في غم ، فقد رحل زوجها الى مكان بعيد .

فقال لها صاحبها العاملة معزية :

— من رحل ليس كمن مات ، فسوف يعود ! أما انا فشعرت في الحبس بالوحشة والغم . لم احبس من قبل فلم اتعود على ذلك ، ولو كنت حبست قبلاً لما كنت عانيت . ولكني كنت دائماً بريئة فلم تمسنى السلطات . . . وعندما خرجت من الحبس وعدت الى البيت فرح زوجي وبكى ، ولكنه خاف ان يعانقني وهو يعتقد انني مجرمة عريقة . اما انا فكنت كما أنا ، سهلة المنال . . . وفي المساء كان عليه ان يذهب للحراسة فاستولى علينا الحزن . وتناول بندقيته وقال لي : «تعالى معى سأسقيك ليمونادة» . وكانت الوحشة لا تزال ممسكة بى فقلت له ان يذهب الى البوفيه وحده ، وليشرب الليمونادة وحده ، وعندما نوفر

بعض المال وتزول عني وحشة السجن سندهب الى البوفيه معاً . قلت له ذلك وجئت الى هنا لأعمل . قلت لنفسى ربما يعملون فى ذلك الدقشوم ، أو يغيرون القضبان فى أحد الأماكن او اى شيء آخر . فمع ان الوقت ليل لكن العمل دائماً موجود . قلت لنفسى — سأكون هناك وسط الناس فيرتاح قلبي وتطمئن نفسى من جديد . وبالفعل تحدثت معك الآن فكأننى قابلت ابنة خالة . . . حسناً . . . هيا ننتهى من شحن العربة لنأخذ النقود من الادارة ، وفى الصباح اذهب لاشرى خبزاً . . . يا فروسيا ! — صاحت مخاطبة المرأة الاخرى فى حفرة الخبث والتي كان اسمها فروسيا أيضاً — هل بقى لديك الكثير ؟

فأجابت فروسيا الثانية :

— لا ، قليل ، بعض حفنات . . .

— اصعدى اذن — أمرتها زوجة الحارس المسلح —

فلننه العمل بسرعة ونذهب معاً لاستلام الحساب .

ومن حولهن كانت القاطرات تستجمع قواها فى صخب استعداداً لسفريات طويلة ، او على العكس ، تبرد للراحة وهى تزفر انفاسها فى الهواء .

وجاء المشرف .

— ماذا يا نساء ؟ أفرغتن الحفرة ؟ آه . . . حسناً ،

هيا إلى الادارة ، سألحق بكن . هناك تأخذن النقود وبعدها نرى . . . فمن سندهب لترقص فى النادى ، وممن ستعود الى البيت لانجاب الاطفال ! الاعمال كثيرة لديكن !

وفى الادارة وقَّعت النساء ، اثنتان باسميهما : يفروسينيا

يفستافيفا . ونتاليا بوكوفا ، اما الثالثة فوقعت بثلاثة أحرف
تشبه كلمة «يفاء» ، بمنجل ومطرقة في اخرها ، وذلك لأن
يفروسينيا الأخرى عادت اليها الأمية بعد محوها . وحصلت
كل منهن على ثلاثة روبلات وعشرين كويكا ، وانصرفن
الى بيوتهن . مضت فروسيا يفستافيفا وزوجة الحارس نتاليا
معاً ، فقد دعت فروسيا صديقتها الجديدة اليها لتغتسلا
وتتهندما .

كان الاب نائما في المطبخ على الصندوق في كامل
ملابسه ، بما فيها السترة الشتوية الثقيلة وطاقيّة الفراء ذات
شارة القاطرة ، فقد كان يتوقع استدعاء مفاجئاً او عطلاً
فنياً شاملاً يتطلب منه ان يصبح في غمضة عين في قلب
الكارثة .

وفرغت المرأتان من شئونهما في هدوء ، ووضعتا
قليلا من البودرة وابتسمتا ثم انصرفتا . كان الوقت متأخراً ،
وربما بدأ الرقص في النادي الآن وكذلك مباراة اسماء الزهور .
ولما كان زوج فروسيا نائما في العربة الصلبة المقاعد بعيدا
عنها ، وقلبه لا يشعر الآن بشيء ولا يذكر شيئاً ولا يحبها ،
فقد احست بنفسها وحيدة تماما في هذه الدنيا ، لا تعرف
سعادة او شقاء ، فراودتها الرغبة في الرقص قليلا وسماع
الموسيقى وعلامسة أيدي الآخرين . اما في الصباح ، عندما
يستيقظ زوجها هناك وحده ويتذكرها على الفور ، فربما تبكي
حينذاك .

ركضت المرأتان حتى النادي . ومر قطار محلي ،

• يفروسينيا هو الاسم الكامل وفروسيا هو اسم التذليل . المعرب .

قطار نصف الليل ، واذن فليس الوقت متأخرا جدا . وكانت
فرقة جاز من الهواة تعزف في النادي . وعلى الفور تقدم من
فروسيا مساعد سائق ودعاها الى رقصة فالس «ريو-ريتا» .
مضت فروسيا الى الرقص بوجه يطفح بالغبطة ، فقد
كانت تحب الموسيقى ، ويخيل اليها ان السعادة والحزن
متحدان في الموسيقى اتحادا وثيقا كما في الحياة الحقيقية ،
وكما في روحها هي . وفي الرقص تكاد تنسى نفسها وتصبح
في حلم لطيف ، وتغمرها الدهشة ، ويعثر جسدها دون
عناء على الحركة المطلوبة لان النغم يدفعها دمه .

وسألت مراقصها بصوت خافت وانفاس مبهورة :

— وهل جرت مباراة اسماء الزهور ؟

— انتهت منذ دقائق فقط ، لماذا تأخرت ؟

قال مساعد السائق بلهجة ذات مغزى ، وكأنه يهوى فروسيا
منذ الأبد ويحن اليها على الدوام .

فقالت فروسيا :

— يا خسارة !

وسألها مراقصها :

— هل يعجبك الجو هنا ؟

فأجابت فروسيا :

— نعم ، طبعاً . الجو هنا رائع !

ولم تكن نتاليا بوكوفا تجيد الرقص ، فوقفت في

الصالة بجوار الحائط ممسكة بقبعة صديقتها الليلية .

وفي فترة استراحة الاوركسترا مضت فروسيا ونتاليا لتشربا

ليمونادة فشربتا زجاجتين . لم تكن نتاليا قد جاءت الى

هنا سوى مرة واحدة ومن زمن بعيد . فأخذت تتأمل المبنى

النظيف المزين بسعادة وادعة .
ونادت هامة :
— فروسيا ، فروسيا ، فى ظل الاشتراكية هل ستكون
كل الغرف مثل هذه ام لا ؟
فقلت فروسيا :
— وكيف لا ؟ طبعاً مثل هذه . ولكنها ربما تكون
افضل قليلاً .
فأمنت نتاليا بوكوفا :
— يا سلام لو يكون كذلك !
وبعد الاستراحة عادت فروسيا ترقص ثانية . دعاها
الآن مراقب المناورة . وعزف الاوركسترا رقصة فوكستروت
«صغيرى» وأمسك المراقب مراقصته بقوة ، ساعياً إلى الصاق
خده بتسريحة فروسيا ، ولكن هذه الملاحظة الخفية لم
تحرك مشاعرها فقد كانت تحب رجلها البعيد ، وكان جسدها
المسكين أصم جامدا .
وسألها مراقصها فى اذنها اثناء الرقص :
— حسناً ، وما اسمك ؟ وجهك ليس غريباً على ،
لكنى نسيت من هو أبوك .
فأجابت فروسيا :
— اسمى فرو !
— فرو ؟ ألسنت روسية ؟
— بالطبع لا !
وفكر المراقب ثم قال :
— كيف هذا ؟ اليس أبوك روسياً ؟ انه يفتافيف !
فهمست فروسيا :

— لا يهم ، انا اسمى فرو !
ورقصا فى صمت . ووقف الجمهور بحذاء الجدران
يراقب الراقصين . ولم يكن يرقص سوى ثلاثة أزواج ،
بينما كان الآخرون يخجلون أو لا يجيدون الرقص . وقربت
فروسيا رأسها من صدر المراقب ، فرأى تحت عينيه شعرها
المنفوش بتسريحته القديمة ، فأحس بالسرور والراحة لهذه
البراءة المستضعفة . شعر بالفخر أمام الجمهور ، حتى لقد
اراد بطريقة ما ان يمسد رأسها بحذر ولكنه خشى من افتضاح
أمره . وعلاوة على ذلك كانت عروسه المخطوبة له تقف
بين الجمهور ، وكان من الممكن أن تسبب له عاهة فيما
بعد جزاء على اقترابه من فرو هذه . ولذلك ارتد المراقب
عن المرأة قليلاً مراعاة للأصول ، ولكن فرو مالت برأسها
ثانية على صدره ، ضاغطة بها على رباط عنقه فانحرف
الرباط جانباً تحت ثقل رأسها ، وانفرج القميص قليلاً كاشفاً
عن جسمه العارى . وواصل المراقب الرقص فى خوف وحرص
منتظراً ان تكف الموسيقى عن العزف . ولكن الموسيقى
عزفت بمزيد من الانفعال والحيوية ، ولم تتخلف المرأة
عن مجازاة مراقصها الذى كان يطوقها . وشعر بقطرات مبللة
مدغدغة تتسلل على صدره العريان تحت رباط العنق .
هناك حيث ينمو لديه شعر رجولى .
وسألها المراقب مدعوراً :
— أتبيكين ؟
فهمست فروسيا :
— قليلاً . أوصلى الى الباب . لن أرقص بعد .
وقاد المراقص فروسيا الى باب الخروج دون أن يقطع

الرقصة ، فخرجت على الفور الى الطرقة التى كان فيها عدد قليل من الناس .

وجاءت نتاليا لصديقتها بقبعتها . ومضت فروسيا الى البيت بينما ذهبت نتاليا إلى مخزن الجمعية التعاونية الذى يحرسه زوجها . فبحوار ذلك المخزن كان يوجد فناء مواد البناء الذى تحرسه امرأة مليحة ، فأرادت نتاليا أن تتأكد مما اذا كان هناك علاقة حب خفية وعواطف بين زوجها وتلك الحارسة .

فى صباح اليوم التالى تلقت فروسيا برقية مرسلة من محطة سيبيرية فيما وراء الأورال . كتب زوجها فيها : «عزيزتى فرو انا احبك وأراك فى الحلم» .

لم يكن والدها فى البيت ، فقد ذهب الى الورش ليجلس ويتحدث فى غرفة الاستراحة ويقرأ جريدة «جودوك» ، وليعرف كيف مرت الليلة فى قطاع الجر ، ثم يذهب الى البوفيه لشرب البيرة مع احد الزملاء ويتحدث باختصار عن الاهتمامات الروحية .

ولم تنظف فروسيا اسنانها ، وغسلت وجهها بالكاد وقد رشت عليه قليلا من الماء ، ولم تهتم أكثر من ذلك بجمال مظهرها . لم تشأ أن تضيع الوقت فى أى شيء عدا الشعور بالحب ، ولم يعد فيها ذلك الدأب النسائى فى العناية بجسدها . وفى الطابق الثالث ، فوق غرفة فروسيا ، كانت تتردد دائما انغام قصيرة لهارمونيكما الفم . وتتوقف الموسيقى ثم سرعان ما تتردد ثانية . واستيقظت فروسيا اليوم فى ساعة مبكرة مظلمة ، وعادت فنامت ، وأنداك تنهى إليها ايضا من اعلى ذلك اللحن البسيط الذى يشبه اغنية

الطائر الرمادى الكادح فى الحقل ، والذي لا تسعفه انفاسه للغناء لأنه ينفق قواه فى الكد . كان يعيش فى الطابق الثالث صبى صغير ، ابن خراط فى الورش . ويبدو ان الأب ذهب الى العمل والأم تغسل الثياب ، فشعر الصبى بالملل . ودون ان تتناول طعاما ذهبت فروسيا الى الدراسة ، الى دورة الاتصالات والاشارات للسكك الحديدية .

تغيبت فروسيا عن الدورة اربعة أيام ، وربما اشتاقت إليها صديقاتها ، اما هى فمضت الآن اليهن بلا رغبة . كانوا يغفرون لفروسيا الكثير فى الدورة نظراً لموهبتها فى التحصيل وفهمها العميق لمادة العلوم التكنيكية . ولكنها هى نفسها لم تكن تدرك بوضوح كيف يتأتى لها ذلك ، فقد كانت فى كثير من الأمور تقلد زوجها ، ذلك الرجل الذى تخرج من معهدين تكنيكيين ، والذي كان يحس بالآلات احساسه بجسده تماما .

فى البداية كانت تدرس بصورة سيئة . فلم يمل قلبها الى ملفات بوبين وتروس المرحلات او حساب مقاومة السلك المعدنى . ولكن شفتى زوجها نطقنا يوما بهذه الكلمات ، والاكثر من ذلك انه صور لها ، بصدق الخيال المتجسد حتى فى الآلات المبهمة المنفرة ، ذلك العمل الحى لتلك الآلات الغامضة الجامدة بالنسبة لها ، ووضح لها السر الخفى لتركيبها المتقن والذي تقوم عليه حياتها . كان زوج فروسيا يتميز بالقدرة على الاحساس بمقدار تردد التيار الكهربائى كما يحس بعواطفه . كان يضيف الحياة على كل ما تمسه يده أو فكره ، ولذا فقد اصبح يملك تصورا حقيقيا عن حركة القوى فى أى جهاز ميكانيكى ، وكان يحس احساسا

مباشراً بالمقاومة المضنية الصبور التي يديها معدن اجسام الآلات .

ومن ساعتها اصبحت الملفات ، وقناطر ويستون ، واللامسات ، ووحدات قوة الضوء ، اشياء مقدمة لفروسيا ، وكأنما كانت قطعاً ملهمة من رجلها الحبيب ، فبدأت تفهمها وتحفظها في ذهنها كما في قلبها . وفي الحالات الصعبة كانت فروسيا تعود الى البيت وتقول باكتئاب : « يا فيودور ، هناك الميكروفراد والتيارات السائبة ، انا اشعر بالملل » . ودون ان يعانق زوجته بعد فراق النهار يتحول فيودور نفسه لفترة من الزمن الى ميكروفراد والى تيار سائب ، فتكاد فروسيا ترى بعينها ما كانت تريد فهمه سابقاً ، ولا تقدر ان تفهمه . كانت تلك اشياء بسيطة ، طبيعية ، جذابة ، كالاعشاب المتعددة الالوان في الحقل . وفي الليالي تشعر فروسيا بالكآبة لانها مجرد امرأة ولا تستطيع ان تحس بنفسها ميكروفراد ، او قاطرة ، او كهرباء ، بينما فيودور يستطيع ذلك ، وتمر بأصبعها في حذر على ظهره الساخن ، فيواصل نومه دون ان يستيقظ . ولسبب ما كان ساخناً كله على الدوام ، غريباً ، يهوى اتفاق النقود على التفاهات ، وبوسعه ان ينام في الضجيج ، ويقبل بنفس الدرجة على اى طعام ، لذيذاً كان أم سيئاً ، ولم يمرض قط ، وينوى الرحيل الى جنوب الصين الثورى ليصبح جندياً هناك . . .

جلست فروسيا الآن في الدوة مشتتة الفكر لا تستوعب شيئاً من المحاضرات . وراحت تنقل بغم من السبورة الى دفترها متجهاً بيانياً لرنين التيارات ، وتصغى بأسى الى شرح المدرس لتأثير تشبع الحديد على ظهور التوافقيات العليا .

لم يكن فيودور موجوداً ، فلم تعد الاتصالات والاشارات تغريها ، واصبحت الكهرباء غريبة عنها . وجفت في قلبها ملفات بوبين والميكروفرادات وقناطر ويستون والقلوب الحديدية ، ولم تفهم على الاطلاق توافقيات التيار العليا . وظلت تترد في وعيها باستمرار اغنية هارمونيكا الفم الطفولية الرتيبة : « أمى تغسل الثياب ، وأبسى في العمل ولن يرجع قريباً ، وأنا وحدى اضجر ، اضجر » .

شردت فروسيا عن المحاضرة وخطت في دفترها خواطرها : « انا حمقاء ، انا فتاة تافهة ، عد يا فيديا بسرعة ، وسأحفظ الاتصالات والاشارات ، والا فسأموت وتدفننى وترحل الى الصين » .

في البيت كان أبوها مرتدياً ثيابه وحذاءه وطاقيته . فاليوم سوف يستدعونه حتماً . هكذا توقع .

— آه ، جئت ؟

سأل ابنته ، فقد كان يسعده ان يأتي احد ما الى البيت . كان يصغى الى كل خطوة على الدرج ، وكأنه ينتظر دوماً ضيفاً غير عادى ، حاملاً اليه السعادة مخيطة في بطاقة طاقيته . وسألها أبوها :

— هل اسخن لك العصيدة بالسمن ؟ حالاً .

فرفضت ابنته .

— أقلى لك سجقاً !

فقالت فروسيا :

— كلا !

فصمت الاب قليلاً ثم عاد يسألها ولكن بمزيد من الوجل :

— ربما تشرين شايًا مع السميطة المحمص ؟ سأعده
فورا . . .

ولزمت ابنته الصمت .
— ومكرونة الأمس ! . . . ما زالت كما هي ، تركتها
لك . . .

فقلت فروسيا :
— ألا تتركني في حالي ؟ ليتهم يرسلونك الى الشرق
الاقصى في مأمورية . . .

— طلبت فرفضوا ، قالوا : عجوز ، نظرك ضعيف . . .
— قال الأب موضحا .

كان يخشى ان تنصرف فروسيا الآن الى غرفتها بينما
ودَّ لو تبقى معه وتتحدث اليه ، فراح هذا الرجل العجوز يبحث
عن ذريعة يبقى بها فروسيا الى جواره .
وسألها :

— لماذا لم تصبغى اليوم شفتيك في فمك ؟ هل انتهى
أحمر الشفايف ؟ سأذهب الى الصيدلية حالا واشترى لك . . .
ظهرت الدموع في عيني فروسيا الرماديتين فانصرفت إلى
غرفتها . وبقي الأب وحده ، فراح يرتب المطبخ ويزاول بعض
الشئون المنزلية ، ثم جلس القرفصاء ، وفتح غطاء الفرن ،
ودس رأسه فيه ، وبكى هناك فوق طاسة المكرونة .

ودق الباب ، ولم تخرج فروسيا لتفتح . فأخرج العجوز
رأسه من الفرن ، وكانت الخرق المعلقة كلها قدرة ، فمسح
وجهه بيده ومضى ليفتح الباب .

جاء مستدع من الورش .
— وقع يا نيفيد ستينانوفتش . عليك أن تأتى اليوم في

الثامنة ، سترافق قاطرة باردة الى العمرة . سيقطرونك بالمختلط
رقم ثلاثمائة وعشرة . خذ معك طعاما وملابس ، فلن ترجع
قبل اسبوع . . .

ووقع نيفيد ستينانوفتش في الدفتر ، وانصرف المستدعي .
وفتح العجوز صندوقه الحديدى . . . كان خبز الأمس ما زال
هناك ، والبصل وقطعة السكر . فأضاف السائق اليها قطعة
خبز ابيض ، وتفاحتين ، وفكر قليلا ، ثم اوصد الصندوق
السفرى بقل ضخمة مدلى .

ثم دق بحذر باب غرفة فروسيا .
— يا بنيتى ! اغلقى الباب خلفى ، انا مسافر في
رحلة ، لحوالى اسبوعين . اعطونى قاطرة من طراز «شا» ،
وهي باردة ، ولكن لا بأس . . .
لم تخرج فروسيا على الفور لاجلاق الباب ، وعندما
خرجت لاجلاقه كان ابوها قد رحل .

— اعزف ! لماذا لا تعزف !
همست فروسيا موجهة نداءها الى فوق ، حيث كان
يعيش الصي ذو الهارمونيكا .

لكنه فيما يبدو قد خرج ليلعب فقد كان الوقت صيفا ،
والنهار طويل ، وسكنت الريح في المساء بين الصنوبرات الناعسة
الهائنة . كان العازف لا يزال صغيرا ، ولم يتق بعد من هذه
الدنيا الشيء الوحيد اللازم للحب الخالد ، وكان قلبه خاليا
وخاويا ، لا يستحوذ لنفسه وحدها على شيء من خيبرات
الحياة .

فتحت فروسيا النافذة ، واستلقت على السرير الكبير
ونعست . وتناهى صرير جذوع الصنوبرات الضعيف مع تيار

الريح العالية ، وصراً جندب وحيد بعيد مستبقاً حلول الظلام .
استيقظت فروسيا . كانت الدنيا ما تزال مضيئة ، وكان
عليها ان تنهض لتواصل الحياة . واستغرقت في تأمل السماء
المشبعة بالحرارة المدفئة ، والمغطاة بآثار حية للشمس الغاربة ،
وكانما كانت هناك السعادة التي صنعتها الطبيعة بكل قواها
الطاهرة لكي تتغلغل منها الى داخل الانسان .

وجدت فروسيا بين الوسادين شعرة قصيرة لا يمكن الا
أن تكون شعرة فيودور . وفحصت الشعرة في الضوء فوجدتها
شائبة . كان فيودور في التاسعة والعشرين . وقد ظهرت في
رأسه شعرات شائبة ، حوالى العشرين . وأبوها ايضا اشيب ،
ولكنه لم يقترب من فراشهما ابداً . وتشممت فروسيا الوسادة
التي كان يتوسدها فيودور— ما زالت تفوح منها رائحة جسده ،
رائحة رأسه ، اذ لم تغسل كيس الوسادة منذ أن رفع فيودور
رأسه عنها آخر مرة . ودست فروسيا وجهها في وسادة فيودور
وخمدت .

في الطابق الثالث عاد الصبي وراح يعزف على هارمونيكها
القم . . نفس اللحن الذي عزفه اليوم في الصباح المعتم .
ونفضت فروسيا فخبأت شعرة زوجها في علبة فارغة فوق
طاولتها . وكف الصبي عن العزف . . حان أوان نومه ، فهو
يستيقظ مبكراً ، أو ربما يلعب مع ابيه الذي عاد من العمل
وقد جلس الآن على ركبتيه . وأمه تكسر السكر بالكسارة وتقول
انه ينبغي شراء الملايات فقد بليت الملايات القديمة وصارت
تنهراً اثناء الغسيل . بينما الأب صامت يفكر : «تكفينا هذه» .
قضت فروسيا المساء كله في التجول على قضبان المحطة
وفي الخمائل القريبة وفي الحقول المغطاة بالحنطة . وتوقفت

عند حفرة الخبث التي عملت فيها بالأمس . . كان الخبث
يملأ الحفرة ولكن احداً لم يعمل . ولم تعرف اين تسكن
نتاليا بوكوفا اذ لم تسألها فروسيا بالأمس . ولم ترغب في
الذهاب الى صديقاتها ومعارفها ، فقد كانت تشعر بخجل ما
من الجميع . . لم تكن تستطيع الحديث عن حبها إلى
الاخرين ، بينما اصبحت الحياة عدا ذلك غير جذابة وخامدة
بالنسبة لها . ومرت بجوار مخزن الجمعية التعاونية حيث كان
زوج نتاليا يسير وحيدا بيندقته ، وارادت فروسيا ان تعطيه
عدة روبلات ليشرب مع زوجته غدا ليمونادة ، لكن الخجل
منعها .

وقال لها الحارس عندما توقفت وهي تبحث عن النقود
في آبار سترتها :
— مري يا مواطنة ! الوقوف هنا ممنوع . . هنا مخزن ،
مكان رسمي .

ويعد المخزن امتدت ارض خاوية مقفرة ، نما فيها
عشب قصير قاس شرير . وبلغت فروسيا هذا المكان وليبت
واقفة تشعر باللوعة وسط هذا العالم الضئيل للاعشاب الضارة
والذي بدا ان المسافة بينه وبين النجوم لا تجاوز كيلومتريين .
وقالت في نفسها : «آه يافرو المسكينة ، ليت أحداً يعانقك !»
وفور عودتها الى المنزل أوت الى القراش لأن الصبي
الذي كان يعزف على هارمونيكها القم قد نام منذ وقت بعيد ،
كما كفت الجنادب عن ازيزها . لكن شيئاً عاقها عن النوم .
وتفرست فروسيا في العتمة وتشممت . كان مصدر ازعاجها هو
الوسادة التي كان ينام عليها فيودور بجوارها فيما مضى . فما
زالت تفوح من الوسادة رائحة تراية متحللة للجسد الدافئ

المعروف لها ، وبسبب هذه الرائحة بدأت الوحشة تطبق على قلبها . ولَفَت وسادة فيودور في ملاءة وخبأتها في الصوان ، ثم نامت وحيدة ، كاليتيمة .

كفت فروسيا عن التردد على دورة الاتصالات والاشارات ، فالعلم على اى حال لم يعد مفهوما لها الآن . ولبثت في المنزل تنتظر رسائل او برقيات من فيودور ، خشية ان يعود الساعى ادراجه بالرسالة عندما لا يجد أحداً في البيت . بيد انه قد مرت اربعة ايام ، ثم ستة ، وفيودور لم يرسل اى خبر عنه غير البرقية الأولى .

عاد الأب من الرحلة بعد أن اوصل القاطرة الباردة للعمرة . وكان سعيدا لأنه سافر وعمل ، ورأى كثيرا من الناس ومحطات بعيدة وشتى الحوادث . وسيكفيه ذلك طويلا لكي يتذكر ويفكر ويحكى . ولكن فروسيا لم تسأله عن شىء . . عندئذ بدأ الاب يروى لها من تلقاء نفسه . . كيف سارت القاطرة الباردة ، وكيف اضطر الى السهر ليلالي لكي لا يسرق سباكو المحطات في الطريق قطع القاطرة . . وأين تباع الثمار الرخيصة ، وأين اهلكها الصقيع في الربيع . ولم ترد عليه فروسيا بشىء ، وحتى عندما حدثها نيفيد ستيبانوفتش عن قماش المركيزيت والحريز الصناعى في مدينة سفيردولفسك ، فإنها لم تعر كلماته اهتماما . وقال الأب في نفسه عنها : «فاشستية هى ام ماذا ؟ كيف انجبتها من امها ؟ لا أذكر !» ولما لم تلتق فروسيا رسالة أو برقية من فيودور التحقت بالعمل في مكتب البريد ساعى بريد . ظنت ان الرسائل تضيع في الغالب ، ولذلك ارادت ان تحملها بنفسها الى أصحابها سليمة . اما رسائل فيودور فكانت تريد ان تتلقاها

بأسرع مما لو حملها اليها ساعى بريد آخر ، غريب ، كما أنها لن تضيع منها . كانت تأتى الى قسم التوزيع قبل الساعة الآخرين—قبل ان يبدأ الصبى في الطابق الاعلى عزفه على الهارمونيكـا—وتتطوع بالمساهمة فى فرز وتوزيع الرسائل . وتقرأ عناوين جميع الرسائل الواردة الى البلدة ، ولكن فيودور لم يكتب لها رسائل . كانت كل المظاريف معنونة الى اناس آخرين ، وبدخل هذه المظاريف كانت هناك رسائل ما لا تثير اهتمامها . ومع ذلك كانت فروسيا توزع هذه الرسائل بانتظام مرتين فى اليوم ، على اصحابها ، مؤملة ان تكون فيها السلوى للسكان المحليين . كانت تسير فى الفجر مسرعة عبر شارع البلدة ، حاملة على بطنها حقيبة ثقيلة وكأنها حامل ، وتفرغ الابواب ، وتسلم الرسائل والطرود لرجال فى سراويل داخلية ، ولنساء متعريات ، ولأطفال صغار استيقظوا قبل الكبار . وبينما لا تزال السماء زرقاء قاتمة فوق الناحية تكون فروسيا قد بدأت العمل ، وهى تعجل بارهاق ساقبها لكي يتعب قلبها المضطرب . وكان كثير من اصحاب الرسائل يهتمون بها من حيث واقع حياتها ، فيسألونها اثناء استلام الرسائل اسئلة حياتية : «تعملين مقابل اثنين وتسعين روبلا فى الشهر ؟» فتجيب فروسيا : «نعم ، وهذا مع الخصومات» . وعرض عليها أحد المشترين فى مجلة «كراسايا نوف» ان تزوجه كنوع من التجربة ، فمن يدري ، ربما حالفتهما السعادة ، وهذا شىء مفيد . وسألها المشترك : «ما رأيك فى هذا ؟» ، فأجابت فروسيا : «سأفكر» . فنصحها المشترك : «لا داعى للتفكير ! تعالى لزيارتى ، وجريبنى أولاً ، فأنا رجل رقيق ، قارى ، مثقف ، فها أنت ترين فى اية مجلة

اشترك ! هذه المجلة تصدر تحت اشراف هيئة التحرير ،
حيث يوجد اشخاص اذكيا ، وها أنت ترين فهناك ايضا
لا يعمل شخص بمفرده ، وكذلك نحن هنا سنكون اثنين !
هذا شيء محترم ، وسوف يزداد مركزك بصفتك امرأة
متزوجة ! . . . اما الآن فماذا تكون . . فتاة وحيدة ،
معادية للمجتمع !»

عرفت فروسيا أناساً كثيرين اثناء وقوفها بالأبواب حاملة
رسالة أو مظروفا . حاولوا دعوتها الى الشراب والمزة ، واشتكوا
لها من احوالهم المعيشية الجارية . ولم يكن ثمة فى الحياة
فراغ أو سكون .

عندما رحل فيودور وعد فروسيا ان يبعث اليها على الفور
بعنوان عمله ، اذ لم يكن يعرف على وجه الدقة أين سيقم .
ولكن ها قد مر اربعة عشر يوما منذ رحيله ولم تصل منه اية
رسالة ولا تدرى الى اين تكتب له . وصبرت فروسيا على هذا
الفراق ، وراحت تسارع بتوزيع البريد ، وانفاسها تتلاحق اسرع
فأسرع ، لكى تشغل قلبها بعمل آخر وتنهك اليأس فيه .
ولكنها صرخت ذات يوم رغما عنها وهى فى عرض الطريق ،
اثناء فترة التوزيع الثانية . لم تلاحظ فروسيا كيف احتبست
انفاسها فى صدرها بغتة وانفطر قلبها ، فأطلقت صرخة طويلة
بصوت رفيع شاد . وراها المارة . وانتهت فروسيا الى نفسها
فركضت الى الحقول بحقيبة البريد ، اذ لم تعد قادرة على
احتمال احتباس انفاسها الضائعة . وهناك ارتمت على الأرض
واخذت تصرخ حتى زایلها ألم قلبها .

واعتمدت فروسيا جالسة ، وسوت فستانها وابتسمت ،
فقد عادت تشعر بالراحة ولم يكن ثمة داع للصراخ بعد .

وبعد توزيع البريد عرجت فروسيا على مكتب البرق ،
فسلموها برقية من فيودور بها عنوانه وقبلة . وحينما وصلت
الى البيت جلست تكتب رسالة الى زوجها فوراً دون ان تتناول
الطعام . لم تلاحظ أن النهار انتهى خلف النافذة ، ولم تسمع
الصصى الذى كان يعزف على هارمونيكها الفم قبل النوم . ودق
الأب الباب ، ودخل حاملاً لابنته كويا من الشاي ورغيفا
بالزبد ، واشعل الضوء الكهربائى حتى لا تفسد فروسيا بصرها
فى العتمة .

وفى الليل نعى نفييد ستيانوفيتش فى المطبخ فوق
الصندوق . لقد مرت ستة ايام دون ان يستدعيه أحد الى
الورش ، وقد قدر انهم لا بد سيستدعونه هذه الليلة الى رحلة ،
فظل يتوقع صوت خطى المستدعى فوق الدرج . وفى الواحدة
ليلاً دخلت فروسيا المطبخ وفى يدها ورقة مطوية .

— بابا !

كان العجوز ينام نوما ضعيفا يقظا .

— ماذا يا بنيتى ؟

— احمل هذه البرقية الى البريد فأنا متعبة .

فخاف الأب وسألها :

— واذا جاء المستدعى وانا غير موجود ؟

ف قالت فروسيا :

— سيبتظرك ، فلن تغيب طويلا . . . لكن لا تقرأ

البرقية ، بل سلمها هناك فى الشباك .

فوعدها الأب :

— لن أقرأها . لقد كنت تكتبين رسالة ، هاتينها

ارسلها بالمره .

— لا شأن لك بما أكتب . . . هل معك نقود ؟
كان مع الأب نقود ، فأخذ البرقية وانصرف . وفي
مكتب البريد والبرق قرأ العجوز البرقية ، اذ قرر في نفسه :
« من يدري فربما تكتب ابنتي ضلالاً ، ينبغي ان انظر » .
كانت البرقية موجهة الى فيودور في الشرق الاقصى :
« احضر باول قطار زوجتك ابنتي فروسيا تحتضر على وشك
الموت مضاعفات المجارى التنفسية الأب نيفيد يستنقذ » .
وفكر نيفيد ستيبانوفيتش : « تلك أمور الشباب ! » وسلم
البرقية في الشباك .

وقالت موظفة البرقيات :

— لقد رأيت فروسيا اليوم ! أحقا مرضت ؟

فأوضح السائق :

— اذن مرضت .

وفي الصباح طلبت فروسيا من أبيها ان يذهب الى مكتب
البريد ثانية ليسلم باسمها طلب استقالة اختيارية من العمل
بسبب حالتها الصحية المرضية . ومضى العجوز مرة اخرى ،
فعلى اى حال كان يريد الذهاب الى الورش .

وشرعت فروسيا تصلح الثياب وترتق الجوارب وتغسل
الارضية وتنظف الشقة ، ولم تغادر البيت .

وبعد يومين جاء الرد ببرقية عاجلة من فيودور « مسافر قلق
اتعذب لا تدفنوا بدوني فيودور » .

وحسبت فروسيا بدقة موعد وصول زوجها ، وفي اليوم السابع من
استلامها البرقية كانت تمشي على رصيف المحطة مرتجفة وسعيدة .
ومن جهة الشرق جاء قطار الاكسبرس العابر لسيبيريا دون تأخير .
وكان والد فروسيا هنا ايضا على الرصيف ، لكنه انتحى جانبا

عن ابنته لكي لا يعكر عليها مزاجها .
دلف السائق بالقطار الى المحطة بسرعة فائقة وفرمل
بنعومة ورقة . ودمعت عينا نيفيد ستيبانوفيتش وهو يرقب هذا
المنظر حتى انه نسي لماذا جاء الى المحطة .

لم يهبط من القطار في هذه المحطة سوى مسافر واحد .
كان يرتدى قبعة ، وفي معطف خفيف ازرق طويل ، وعيناه
الغائرتان تلمعان من شدة الانتباه . وركضت نحوه امرأة .

— فرو !

قال المسافر وألقى بالحقيبة على الرصيف .
ورفع الأب هذه الحقيبة ومضى في اثر ابنته وصهره .
بعد ان قطعوا نصف الطريق التفتت البنت الى أبيها
وقالت :

— بابا ، اذهب الى الورش واطلب منهم ان يرسلوك
في سفريه ، ألسنت تشعر بالملل من بقائك دائما في البيت . . .
فوافق العجوز :

— اشعر بالملل . سأذهب الآن . خذى الحقيبة .

ونظر الصهر الى السائق العجوز وحياه :

— مرحبا يا نيفيد ستيبانوفيتش .

— مرحبا يا فيديا ، بالسلامة !

— شكرا يا نيفيد ستيبانوفيتش

وأراد الشاب ان يقول له شيئا آخر ، ولكن العجوز سلم

الحقيبة لفروسيا ومضى جانبا ، متجها الى الورش .

وقالت فروسيا :

— يا حبيبي ، غسلت الشقة كلها . انا لم احتضر .

فأجابها زوجها :

— خمنت في القطار انك لا تحتصرين . لم أصدق
برقيتك الا فترة قصيرة . . .
فدهشت فروسيا وسألته :
— ولماذا اذن جئت ؟
فأجاب فيديا بأسى :
— لأننى احبك ، وأوحشتنى .
فحزنت فروسيا وقالت :
— اخاف ان تكف عن حى يوما ما ، وعندئذ سأموت
حقاً . . .

فقبلها فيودور في جانب وجهها ، وقال :
— اذا مت فسوف تنسين الجميع ، وانا منهم .
فأفاقت فروسيا من حزنها وقالت :
— كلا ، الموت ليس شيئا طريفا . انه سلبية .
فابتسم فيودور قائلاً :
— بالطبع سلبية .

كان يحب كلماتها العلمية البليغة . بل ان فرو طلبت
منه فيما مضى ان يعلمها العبارات الذكية فنسخ لها دفترا
كاملاً من الكلمات الذكية الجوفاء : «من قال «ألف» فليقل
«باء» . . «الذى يشكل حجر الزاوية» . . «اذا كان الامر كذلك ،
وهو كذلك فعلاً» . . . وما الى ذلك . ولكن فرو فطنت الى
خداعه ، وسألته : «ولماذا ينبغي بعد حرف «ألف» ان
تقول «باء» ، لنفرض انه لا داعى واننى لا أريد ؟» .
وفى البيت رقدا على الفور ليسترىحا وناما . وبعد حوالى
ثلاث ساعات طرق الأب الباب ففتحته فروسيا ، وانتظرت
حتى وضع العجوز في صندوقه الحديدى طعاما وانصرف ثانية .

يبدو انهم ارسلوه في رحلة . واغلقت فروسيا الباب ثم اوت
ثانية الى الفراش . واستيقظا في الليل . وتحدثا قليلا ، ثم
عانق فيودور فرو ، وصمنا حتى الصباح .
في اليوم التالى اعدت فروسيا الغداء بسرعة وأطعمت
زوجها واكلت هى ايضا . لم تهتم الآن بأن يكون ما تعده
متقنا ولذيذا بل جهزته كيفما كان ، لكنهما لم يلقيا بالاً
الى ما يأكلان ويشربان ، المهم الا يبددا وقت الحب على
الاحتياجات المادية الدخيلة .

ومضت فروسيا تحدث زوجها عن أنها ستواظب الآن
على الدراسة وستنجح فيها ، وستعرف الكثير ، وستكدرج لكى
تصبح حياة الجميع فى البلاد افضل .
وأصغى فيودور الى فرو ثم شرح لها بالتفصيل افكاره
ومشروعاته . . . حول نقل قوة الطاقة بدون أسلاك ، عن طريق
الهواء المؤين ، وحول زيادة متانة جميع المعادن بواسطة
معالجتها بالموجات فوق الصوتية ، وعن الغلاف الجوى على
ارتفاع مائة كيلومتر حيث تتوفر ظروف ضوئية وحرارية وكهربائية
خاصة يمكن ان تكفل للانسان حياة خالدة . . . ولهذا فمن
الممكن ان يتحقق الآن حلم العالم القديم عن السماء . .
ووعده فيودور بأن يدرس وينفذ الكثير من أجل فروسيا ، وبالمرة ،
من اجل بقية البشر أجمعين .

أصغت فروسيا الى زوجها وهى فى غاية السعادة وقد
فغرت فاهها الذى اصابه التعب . وبعد ان شبعوا كلاماً تعانقا ،
فقد ارادا ان يصبحا سعيدين تَوّاً ، الآن ، قبل ان تظهر
نتائج عملهما المثابر من اجل سعادتهما الخاصة وسعادة
الاخرين . فليس هناك قلب يطيق التأجيل ، لذا يكابد

الألم ، وكأنه لا يصدق شيئاً . وكانا بعد أن يستريحا في النوم من ارهاق الافكار والاحاديث والمتعة ، يستيقظان منتعشين ، مستعدين لتكرار الحياة . وودت فروسيا ان يولد لها أولاد ، فتربيهم ، ويكبرون فيواصلون قضية أبيهم ، قضية الشيوعية والعلم . وهمس فيودور في اذن فروسيا وهو في نشوة الخيال ، بكلام عن القوى الطبيعية الخفية التي ستمنح الانسانية الثروة ، وعن التحول الجذري الذي سيطرأ على روح الانسان التافهة . . . ثم تبادلا القبلات ، وداعبا بعضهما البعض ، وتحول حلمهما النبيل الى متعة وكأنه تحقق على الفور .

في المساء كانت فروسيا تغادر البيت لفترة قصيرة لتبتاع التموين لزوجها ولها ، فقد اصبحت شهيتها تزداد باستمرار . وقد مرت اربعة ايام وهما يعيشان بلا فراق . ولم يعد الأب حتى الآن من رحلته ، يبدو انه ساق من جديد قاطرة باردة الى مكان بعيد .

وبعد يومين آخرين قالت فروسيا لفيودور انهما سيقضيان معا قليلا من الوقت على هذا النحو ثم سيكون عليهما أن يبدأ العمل والحياة .

ويقول لها فيودور وهو يعانقها :

— غداً او بعد غد سنبدأ معاً حياة حقيقية !

فتوافق فروسيا هامة : — بعد غد !

وفي اليوم الثامن استيقظ فيودور حزيناً :

— فرو ! هيا بنا نعمل ، هيا نعيش كما ينبغي . . .

عليك أن تعودى الى دورة الاتصالات .

فهمست فروسيا وهي تمسك برأس زوجها وتضعه بين

يديها :

— غداً !

فابتسم لها واستكان .

وفي اليوم التالي سألها :

— متى اذن يا فرو ؟

— قريباً ، قريباً . . . — اجابت فرو الناعسة الوداعة ،

وكانت يداها ممسكتين بيديه ، فقبلها في جبينها .

واستيقظت فروسيا ذات يوم في ساعة متأخرة ، وكان

النهار قد طلع من وقت طويل . كانت وحدها في الغرفة ،

ويبدو ان اليوم كان هو اليوم العاشر او الثاني عشر منذ لقائها

المستمر بزوجها . ونهضت فروسيا من الفراش فوراً وفتحت النافذة

على مصراعها ، فسمعت عزف هارمونيكا القم الذي نسيته

تماماً . لم تكن الهارمونيكا تعزف في الطابق الأعلى . وتطلعت

فروسيا من النافذة . كان بجوار الحظيرة جذع ملقى ، وقد جلس

عليه صبي حافي القدمين ، برأس اطفال كبيرة ، وراح يعزف

على هارمونيكا القم .

كان يلف الشقة كلها هدوء غريب ، وفيودور قد انصرف

الى جهة ما . وذهبت فروسيا الى المطبخ . كان ابوها جالساً

على كرسي بلا مسند ، غافياً ورأسه المغطى بالطاقيّة مستقر

على طاولة المطبخ . وأيقظته فروسيا .

— متى وصلت ؟

— هه ؟ — هتف العجوز — اليوم ، في الصباح الباكر .

— ومن الذي فتح لك الباب ؟ فيودور ؟

فقال الأب :

— لا أحد . . . كان مفتوحاً . . . فيودور وجدني في

المحطة ، كنت نائماً هناك على الدكة .

فغضبت فروسيا :
 — ولماذا تنام فى المحطة ، أليس لديك بيت ؟
 فقال الأب :
 — وماذا ! لقد اعتدت المكان هناك . ظننت أننى سأزعجكما . . .
 — طيب ، كفالك نفاقاً ! واين فيودور ؟ متى سيعود ؟
 وتلثم الأب ، ثم قال :
 — لن يعود . لقد سافر . . .
 وقفت فرو امام ابها صامتة . وتفرس العجوز فى خرقه مطبخ باهتمام ثم استطرده :
 — جاء القطار السريع فى الصباح فركبه وسافر الى الشرق الاقصى . قال : ربما انتقل بعدها الى الصين ، من يدري .
 وسأله فروسيا :
 — وماذا قال ايضا ؟
 فاجاب الأب :
 — لم يقل شيئاً . أمرنى أن اعود اليك وأرعاك .
 قال انه بعد ان ينهى كل الأعمال فسوف يعود الى هنا أو يستدعيك اليه .
 فاستفسرت فروسيا :
 — اية أعمال ؟
 فقال الأب :
 — لا أدري . قال انك تعرفين كل شيء . الشيوعية ، اظن ، او اشياء أخرى .
 تركت فروسيا ابها ، وانصرفت الى غرفتها ، واستلقت

بيطنها على حافة النافذة ، وراحت تنطلع الى الصبي وهو يعزف على هارمونيكها القم .
 ونادته :
 — يا ولد ! تعال زنى !
 فأجاب العازف :
 — طيب .
 نهض من على الجذع ، ومسح آله الموسيقية فى ذيل قميصه ومضى الى البيت ليزورها .
 وقفت فرو وحدها وسط الغرفة الكبيرة ، فى قميص النوم . وراحت تبسم فى انتظار الضيف .
 — الوداع يا فيودور !
 ربما كانت حمقاء ، ربما كانت حياتها لا تساوى أكثر من كوييكين ولا داعى لأن يحبها احد ويرعاها ، غير انها وحدها تعرف كيف تحول الكوييكين الى روبلين .
 — الوداع يا فيودور ! سوف تعود الي ، وسوف انتظرك !
 طرق الضيف الصغير الباب الخارجى بوجل . وادخلته فروسيا ، وجلست امامه على الأرض ، ووضعت يدي الصبي بين يديها ، وراحت تتلمى الموسيقى الصغير . ربما كان هذا الانسان هو البشرية التى حدثها عنها فيودور بكلماته الرقيقة .

فى العالم الرائع المحتدم

(سائق القطار مالتسيف)

١

فى ورش السكة الحديدية بمدينة تولوييف كان الكسندر فاسيليفتش مالتسيف يعتبر أحسن سائق قطار .

كان فى حوالى الثلاثين ولكنه يحمل درجة سائق من الدرجة الأولى ، وكان يقود قطارات الركاب السريعة من مدة طويلة . وعندما تسلمنا فى الورش أول قاطرة بخارية ضخمة لقطارات الركاب من طراز «اس» ، عين مالتسيف للعمل عليها ، وكان ذلك عين الصواب والحكمة . وكان مساعد مالتسيف رجلا كهلا من سباكى الورش ، يدعى فيدور بتروفتش درابانوف ، ولكنه بعد فترة قصيرة اجتاز امتحان القيادة وعين سائقا لقاطرة أخرى ، أما انا فعينونى فى فرقة مالتسيف ، مساعد سائق بدلاً من درابانوف . وقبل ذلك ايضا كنت اعمل مساعد سائق ، ولكن فى قاطرة قديمة ضعيفة .

كنت مسرورا بهذا التعيين . فمجرد النظر الى القاطرة «اس» ، الوحيدة آنذاك فى القطاع الذى كنا نعمل فيه ، كان يبعث فى نفسى الحماسة . كان بوسعى ان اظل اتطلع اليها طويلا ، فتجيش نفسى بفرحة خاصة منفعة ، كذلك الفرحة الرائعة التى انبعثت فيها فى الطفولة لدى أول قراءة لأشعار بوشكين . وعلاوة على ذلك فقد كنت اتمنى ان اعمل فى فرقة هذا السائق الفذ لكى اتعلم على يديه فن قيادة القطارات السريعة الثقيلة .

استقبل الكسندر فاسيليفتش نبأ تعيينى فى فرقته بهدوء ولا مبالاة . وبدا انه لم يكن يحفل بمن الذى سيعمل مساعداً له .

وقبل الرحلة قمت كالعادة بفحص جميع اجزاء الآلة واختبرت جميع آلياتها الرئيسية والثانوية ، واطمانت إلى انها جاهزة للعمل . وشاهد الكسندر فاسيليفتش عملى وتابع ما افعله ، ولكنه قام بعدى باختبار حالة الآلة بنفسه ، وكأنه لا يثق بى .

وتكرر الأمر بعد ذلك ، فاعتدت على تدخل الكسندر فاسيليفتش الدائم فى اختصاصاتى ، رغم انى كنت اكبت أساى . ولكننى فى العادة كنت انسى أساى ما أن نصبح فى الطريق . كنت اصرف انتباهى عن المؤشرات التى تراقب حالة القاطرة الراكضة ، وعن متابعة عمل الماكينة اليسرى وعن الطريق الممتد امامنا ، واختلس النظر الى مالتسيف . كان يقود القطار بثقة جسورة لأسطى عظيم ، وتركيز ممثل ملهم احتوى العالم الخارجى كله فى معاناة داخلية ولذلك سيطر عليه . كانت عينا الكسندر فاسيليفتش تحديقان الى الامام ساهمتين ، وكأنهما خاويتان ، بيد اننى كنت اعرف انه يرى بهما الطريق الممتد امامه كله ، والطبيعة الراكضة لملاقائنا كلها . . وحتى العصفور الذى عصف به هواء الآلة المندفعة فى المدى فأطاح به من فوق منحدر الدقشوم . . حتى ذلك العصفور لم يغيب عن عين مالتسيف ، فأدار رأسه للحظة فى اثر العصفور ليرى ماذا جرى له بعدنا ، والى اين طار . لم نكن سببا فى أى تأخير ، بالعكس ، كانوا كثيرا ما يوقفوننا فى المحطات الوسيطة التى كان ينبغى ان نمر

بها دون توقف لأننا كنا متقدمين عن الموعد ، فيعيدوننا بهذا التأخير الى المواعيد المحددة فى جدول الحركة .
 كنا فى العادة نعمل فى صمت ، ومن حين الى حين كان الكسندر فاسيليفتش يدق بالمفتاح على المرحل ، دون ان يلتفت نحوى ، لينبهنى الى خلل ما فى نظام سير الآلة أو لكى استعد لتغيير حاد فى هذا النظام واكون يقظا .
 وكنت افهم دائما تعليمات زميلى الاكبر الصامته واعمل بكل دأب ، لكنه ظل كما فى السابق يعاملنى بلامبالاة ، مثلما يعامل الوقاد — المشحّم ايضا ، وفى محطات التوقف يفحص دائما المشاحم وربط الصواميل فى مراكز التعليق ويختبر صناديق محاور الجر وغيرها . واذا ما تفقدت وشحمت لتوى احدى القطع التى تتعرض للاحتكاك كان مالتسيف يتفقددها من بعدى ويشحمها ، وكأنه يعتبر عملى عديم الجدوى .

— لقد فحصت هذا الطربوش يا الكسندر فاسيليفتش . . .
 — قلت له ذات مرة عندما راح يفحص بعدى هذه القطعة .
 — ولكنى اريد ان افحصه بنفسى — اجابنى مبتسماً ، وكان فى ابتسامته حزن أذهلنى .

وفيما بعد أدركت معنى حزنه وسبب لامبالاته الدائمة بنا . كان يدرك تفوقه علينا ، لأنه كان يفهم الآلة أحسن منا ، ولم يكن يصدق اننى او اى شخص آخر يستطيع أن يبلغ سر موهبته ، سر رؤية العصفور العارض والاشارة فى الامام فى وقت واحد ، وفى نفس اللحظة الاحساس بالطريق وبالقطار كله وبمجهود الآلة . وكان مالتسيف يدرك بالطبع اننا حتى قد نتفوق عليه فى الدأب والمثابرة ، ولكنه لم يكن يتصور اننا يمكن ان نحب القاطرة أكثر مما يحبها ، وان نفقد القطارات

أفضل مما يقودها . . فمن المستحيل فى ظنه ، ان يكون هناك أفضل . ولذلك كان يشعر بالحزن فى صحبتنا . كان يضجر بسبب موهبته وكأنه يعيش وحيداً ، وهو لا يدري كيف يعبر لنا عن موهبته بحيث نفهم .
 ولم نستطع فى الحقيقة ان نفهم مهارته . وذات مرة رجوته ان يسمح لى بقيادة القطار بنفسى ، فسمح لى بقيادة حوالى اربعين كيلومترا ، وجلس هو فى مكان المساعد .
 وقدت القطار ، وبعد عشرين كيلومترا اصبحتنا متأخرين اربع دقائق ، وكنت اقطع المرتفعات الطويلة بسرعة لا تتجاوز الثلاثين كيلومترا فى الساعة . ثم عاد مالتسيف الى تولى القيادة ، فأخذ يتسلق المرتفعات بسرعة خمسين كيلومترا ، وفى المنحنيات لم تكن القاطرة تتأرجح منه كما كانت تتأرجح منى ، وسرعان ما عوضنا التأخير الذى تسببت أنا فيه .

٢

عملت مساعداً لمالتسيف حوالى سنة ، من اغسطس حتى يوليو ، وفى ٥ يوليو قام مالتسيف بأخر رحلة له كسائق قطار ركاب سريع
 تولينا قيادة قطار بشانين محوراً ، كان متأخراً فى الطريق اربع ساعات قبلنا . وخرج مراقب الحركة الى القاطرة خصيصا ليرجو الكسندر فاسيليفتش ان يعوض بقدر ما يستطيع زمن التأخير ويختصره ولو الى ثلاث ساعات ، والا فسيتعذر عليه ان يحرك العربات الفارغة الى الطريق المجاور . ووعده مالتسيف ان يعوض التأخير ، وتحركنا .

كانت الساعة الثامنة بعد الظهر ، ولكن نهار الصيف كان لا يزال ممتدا ، وسطعت الشمس بقوة ظافرة كشمس الصباح . وطالبني الكسندر فاسيليفتش بأن احافظ على ضغط البخار في المرجل طوال الوقت تحت الحد الأقصى بنصف درجة فقط .

بعد نصف ساعة خرجنا الى السهب ، الى أرض مستوية ناعمة . وأوصل مالتسيف السرعة الى تسعين كيلومترا ولم يهبط بها عن ذلك ، بالعكس ، كان يوصلها الى مائة كيلومتر في الخطوط الافقية والمنحدرات السهلة . وفي المرتفعات كنت اشعل الموقد إلى الحد الأقصى وأجبر الوقاد على تغذية الفرن يدويا لمساعدة آلة الوقود ، اذ اخذ ضغط البخار ينخفض لدي .

كان مالتسيف يحث الآلة قدما ، دافعا منظم السرعة الى آخر القوس ومرجعا عاكس الحركة الى اقصى نقطة . واندفعنا نحو غيمة هائلة لاحت خلف الافق . كانت الشمس تضيء الغمامة من ناحيتنا ، اما قلبها فكانت تمزقه بروق مسعورة هائجة ، ورأينا سيوف البروق تنغرز عموديا في الأرض البعيدة الصامتة ، ونحن نندفع بجنون نحو تلك الأرض البعيدة وكأننا نسارع لنجدتها . ويبدو ان هذا المنظر قد شد اليه الكسندر فاسيليفتش ، فقد أطل بجسمه بعيدا من النافذة ، وكانت عيناه اللتان اعتادتتا الدخان واللهب والفضاء ، تتقدان الآن حماسة . كان يدرك ان عمل آلتنا وقوتها يمكن ان يضاهيا عمل الصاعقة ، وربما كانت هذه الفكرة تشعره بالفخر . وسرعان ما لاحظنا اعصارا ترابيا يندفع من السهب نحونا . واذن فقد كانت العاصفة هي التي تدفع الغمامة الرعدية الممطرة صوبنا مباشرة . واعتم الجو حولنا . وصفر التراب الجاف ورمل

السهوب وأز وهو يحثك بجسم القاطرة الحديدى . وانعدمت الرؤية ، فأدركت الدينامو للانارة واشعلت الكشاف الامامى فى مقدمة القاطرة . واصبح التنفس صعبا بسبب الاعصار الترابى الساخن الذى اقتحم القمرة وضاعفت من قوته حركة القاطرة فى الاتجاه المضاد ، وبسبب غازات الوقود والعتمة المبكرة التى احاطت بنا . وشقت القاطرة طريقها وهى تعوى وسط الظلمة المبهمة الخائفة ، عبر شق الضوء الذى صنعه كشاف المقدمة . وهبطت السرعة الى ستين كيلومترا . وكنا نعمل وننظر امامنا وكأننا فى حلم .

وفجأة اصطدمت قطرة مطر كبيرة بالزجاج الامامى ، وجفت على الفور متبخرة فى الهواء الساخن . ثم ومض ضوء ازرق خاطف امام رموشى مباشرة واخترقنى الى اعماق قلبى المرتعد . وتشبثت بصنبور الحقن ، غير ان ألم القلب زایلنى ، فالتفت فورا صوب مالتسيف . . كان يتطلع الى الامام ويقود الآلة دون أن يطرأ على ملامحه اى تغير .

وسألت الوقاد :

— ما هذا الذى حدث ؟

فقال :

— برق . أراد أن يصيبنا ولكنه اخطأ التسديد قليلا .

وسمع مالتسيف كلامنا فسأل بصوت عال :

— أى برق ؟

فقال الوقاد :

— كان الآن .

— لم أره . . . قال مالتسيف واطل بوجهه الى الخارج

ثانية . فدهش الوقاد وقال :

— لم يره ! ظننت الرجل انفجر من شدة الوهج ،
بينما هو لم ير .
وتشككت انا أيضا في ان ذلك كان برقاً فسألت :
— وأين الرعد اذن ؟
فأوضح الوقاد :

— الرعد خلّفناه . الرعد يدوى دائما بعد البرق . والى
أن دوى ، والى ان حرك الهواء ، والى أن راح وجاء ، كنا
نحن قد تجاوزناه . ربما سمعه الركاب ، فهم في الخلف .
وبعد ذلك ولجنا ميلاً من المطر ، ولكننا سرعان ما
تجاوزناه وخرجنا الى السهب المظلم الهاجع ، الذى استقر فوقه
غمام مستكين مستهلك .

أطبق الظلام تماما وحل ليل هادى . وفاحت رائحة
الأرض الرطبة وأريج الاعشاب والقمح المشبعة بالمطر والعاصفة ،
وطرنا الى الامام لنعوض ما فاتنا .
ولاحظت ان مالتسيف اصبح يقود الآلة بصورة اسوأ .
فقد صرنا نتأرجح فى المنعطفات ، والسرعة تصل مرة الى
المائة وأكثر ، ومرة تنخفض الى الاربعين . واعتقدت ان الكسندر
فاسيليفتش قد خارت قواه على الأرجح ، ولذلك لم اقل له
شيئاً ، رغم اننى كابدت مشقة بالغة فى المحافظة على استمرار
عمل الموقد والمرجل على افضل وجه فى ظل سلوك السائق هذا .
غير اننا كنا سنتوقف بعد نصف ساعة للتزود بالمياه ، وعندئذ
سيأكل الكسندر فاسيليفتش اثناء التوقف ويستريح قليلاً . كنا
قد عوضنا اربعين دقيقة تأخير ، وفى نهاية القطاع سنكون قد
عوضنا ما لا يقل عن ساعة أخرى .
ومع ذلك فقد اقلقنى تعب مالتسيف ، فأخذت انظر

بنفسى الى الامام فى انتباه ملاحظا الطريق والاشارات . ومن
جهتى ، فوق الماكينة اليسرى ، كانت تتدلى لمبة كهربائية
مضيئة جهاز الجر الحدّاف . وكنت ارى جيداً جهد الماكينة
اليسرى المتوتر الواثق ، ولكن نور اللبة اخذ يخبو وصار ضعيفاً
كنور شمعة واحدة . وادرت رأسى الى داخل القمرة . كانت
اللمبات كلها تشتعل الآن بربع توهجها ، وهى تضىء العدادات
بالكاد . ومن الغريب ان الكسندر فاسيليفتش لم يدق لى
بالمفتاح فى تلك اللحظة لينبهنى الى هذا الخلل . كان واضحاً
ان الدينامو لا يعطى عدد الدورات المطلوب فانخفض ضغط
التيار الكهربائى . واخذت اضبط الدينامو بواسطة ماسورة البخار ،
وامضيت وقتاً طويلاً احاول بهذه الآلة ، ولكن الضغط لم
يرتفع .

وفى تلك اللحظة مرت سحابة ضبابية حمراء اللون على
العدادات وسقف القمرة . فأطللت برأسى من النافذة .
امامنا فى الظلام تراقص شريط ضوئى أحمر عبر خطنا
الحديدى ، ولم يكن من الممكن تحديد ما اذا كان قريباً
او بعيداً . ولم ادرك ما هذا ، ولكنى ادركت ما ينبغى عمله .
وصحت :

— الكسندر فاسيليفتش !
واطلقت ثلاث صفارات اشارة التوقف .
ودوت تحت عجلاتنا انفجارات مفرقات الاشارة .
واندفعت الى مالتسيف . وحول وجهه نحوى ونظر الى بعينين
خاويتين هادتين . وكان مؤشر عداد السرعة يشير الى سرعة
ستين كيلومتراً .
وصحت به :

— مالتسيف ! اننا ندوس على مفرقات الاشارة !
ومددت يدي نحو جهاز القيادة .
— ابتعد !
صاح مالتسيف ، ولمعت عيناه عاكسة ضوء اللبة الكابى
فوق عداد السرعة .
وعلى الفور شد فرملة الطوارئ ، وحول عاكس السرعة
الى الخلف .
وانضغطت بقوة الى المرجل وسمعت عويل العجلات
وهي تكشط القضبان .
وقلت له :
— مالتسيف ! ينبغي فتح صنادير الاسطوانات ، سنكسر
الآلة !
فأجاب :
— لا داعي ! لن نكسرها !
وتوقفنا . وضخخت الماء فى المرجل بالمحقن وأطللت
الى الخارج . على بعد حوالى عشرة امتار امامنا وقفت قاطرة
على نفس خطنا ومقطورة وقودها ناحيتنا . وكان هناك شخص
فوق المقطورة . كان فى يده بشكور طويل ، طرفه ساخن
إلى حد الاحمرار . وكان يلوح به ليوقف قطارنا السريع .
وكانت هذه القاطرة قاطرة دفع لقطار بضائع توقف فى الطريق .
واذن فأناء انشغالى باصلاح الدينامو وقد كففت عن
النظر الى الأمام ، تجاوزنا ضوء السيمافور الاصفر ، ثم الأحمر ،
وربما ايضا أكثر من اشارة لعمال مراقبة السكك . ولكن كيف
لم يلاحظ مالتسيف هذه الاشارات ؟
ونادانى الكسندر فاسيليفتش :

— يا كوستيا !
فاقتربت منه .
— كوستيا ، ماذا هناك أمامنا ؟
فاوضحت له .
— كوستيا . . . تول قيادة القطار . . . انا عميت .
وفى اليوم التالى عدت بالقطار العكسى الى محطتنا ،
وسلمت القاطرة الى الورش لأن اطر عجلتين من عجلاتها
ترحزحت قليلا من مكانها . وابلغت رئيس الورش بما حدث ،
ثم قدت مالتسيف متأبطا ذراعه الى منزله . ولم يذهب مالتسيف
الى رئيس الورش اذ كان فى حالة من الغم الشديد .
وقبل ان نصل الى منزل مالتسيف الواقع فى شارع غطاء
العشب ، طلب منى ان ادعه وحده .
فقلت له :
— لا يجوز . انت يا الكسندر فاسيليفتش شخص
ضرير .
فنظر الى بعينين مفكرتين صافيتين وقال :
— انا الآن أرى ، عد الى بيتك . . . ارى كل شىء . .
ها هى زوجتى قد خرجت لتلقانى .
وبالفعل كانت زوجة مالتسيف تقف عند بوابة البيت
فى انتظار زوجها ، وكان شعرها الاسود الحاسر يلمع تحت
الشمس .
وسألته أنا :
— وهل رأسها مغطى أم حاسر ؟
فأجاب مالتسيف :
— حاسر . من الضرير ، أنت ام أنا ؟

فقلت وأنا ابتعد عنه :
— طيب ، ما دمت ترى فلتنظر .

٣

أحيل مالتسيف الى النيابة وبدأ التحقيق . واستدعاني
المحقق وسألني عن رأيي في حادثة القطار السريع . واجبته
بما كنت اعتقده . بأن مالتسيف غير مذنب .
قلت للمحقق :

— لقد فقد بصره من تفريغ الشحنة بقربه ، من ضربة
البرق . لقد أصيب بصدمة ، وتضررت الاعصاب الموجهة
للبصر . . . انا لا اعرف كيف يمكن التعبير عن ذلك بالضبط .
فقال المحقق :

— اننى افهمك . انت تتكلم كلاما مضبوطا . كل
ذلك جائز ولكنه غير مؤكد . لقد أفاد مالتسيف نفسه بأنه
لم ير البرق .
— ولكنى رأيته ، والوقاد أيضا رآه .
فقال المحقق :

— واذن فقد كانت ضربة البرق اقرب اليكما مما الى
مالتسيف . فلماذا لم تصابا ، أنت والوقاد ، بصدمة ، ولم
تفقدوا البصر ، بينما أصيب مالتسيف بصدمة في اعصاب
الابصار وفقد بصره ؟ ما رأيك ؟

وجدت نفسى فى مأزق وأطرقت مفكراً .
ثم قلت :
— لم يكن بإمكان مالتسيف أن يرى البرق .

أصغى المحقق الى بدهشة . ومضيت أقول :
— لم يكن بإمكانه ان يراه . لقد فقد بصره على
الفور ، بسبب ضربة الموجة الكهرومغناطيسية التى تسبق ضوء
البرق . فضوء البرق هو نتيجة لتفريغ الشحنة وليس سبباً للبرق .
مالتسيف كان قد عمى عندما اضاء البرق ، ولم يكن بوسعه ،
وهو أعمى ، ان يرى الضوء .

وابتسم المحقق قائلاً :
— هذا طريف . كان بإمكانى أن احفظ القضية لو
أن مالتسيف كان الآن أعمى . ولكنك تعرف انه يرى الآن
مثلما أرى انا وأنت .

فأمنت على قوله :
— انه يرى .
فمضى المحقق يسألنى :

— وهل كان أعمى عندما قاد قطار الركاب بسرعة كبيرة
نحو مؤخرة قطار البضائع ؟
فأجبت مؤكداً :
— كان .

فنظر المحقق الى بامعان .
— فلماذا اذن لم يسلم قيادة القاطرة لك ، او
على الاقل ، لم يأمر بك بايقاف القطار ؟
فأجبت :

— لا أدري .
فقال المحقق :

— أرايت ؟ رجل كبير واع يقود قاطرة قطار ركاب ، ويسوق
مئات الاشخاص الى هلاك محتم ، ويتجنب الكارثة بالصدفة ،

ثم يبرر ذلك بأنه كان أعمى . فما معنى ذلك ؟
فقلت له :

— ولكنه هو نفسه كان معرضا للهلاك !

— جائر . ولكن حياة مئات الأشخاص تهمنى أكثر
من حياة شخص واحد . ربما كانت لديه اسبابه الخاصة
ليقضى على نفسه .
فقلت :

— لم تكن .

وأصبح المحقق لامباليا . بدأ يضجر منى كما يضجر
من غنى .

وقال وهو يفكر ببطء :

— انت تعرف كل شيء ما عدا الشيء الرئيسى . يمكنك
ان تنصرف .

توجهت من عند المحقق الى شقة مالتسيف .

قلت له :

— الكسندر فاسيليفتش ، لماذا لم تطلب مساعدتى
عندما عميت ؟

فأجابنى :

— ولكنى كنت أرى ، فما حاجتى اليك ؟

— ماذا كنت ترى ؟

— كل شيء : الخط ، والاشارات ، والقمع فى
السهب ، وعمل الآلة اليمنى . . . كنت أرى كل شيء . . .
وتملكتنى الحيرة .

— فكيف حدث لك اذن ما حدث ؟ لقد تخطيت
كل التحذيرات ، ومضيت نحو مؤخرة قطار آخر .

وأطرق السائق السابق من الدرجة الاولى حزينا ، وأجابنى
بهدهوء وكأنما يكلم نفسه :

— لقد تعودت ان ارى الضوء ، فظننت اننى اراه
بينما لم اكن اراه ساعتها الا فى ذهنى ، فى خيالى . اما
فى الواقع فقد كنت أعمى ، ولكنى لم أعرف ذلك . . .
حتى انفجارات مفرقات الاشارة لم اصدقها رغم انى سمعتها . .
ظننت ان سمعى خائنى . وعندما أطلقت أنت صفارات
الايقاف وصحت بى ، كنت أرى امامى الضوء الأخضر ،
ولم افطن للأمر على الفور .

الآن فهمت مالتسيف ، ولكنى لم اعرف لماذا لا
يذكر ذلك للمحقق ، لماذا لا يخبره بأنه بعد أن عمى ظل
طويلا يرى الدنيا فى خياله ويؤمن بواقعيتها . وسألته عن ذلك
فقال :

— لقد قلت له .

— وماذا قال ؟

قال : «تلك كانت تخيلاتك ، وربما كنت الآن تتخيل
شيئا ما ، لست أدري . أنا يلزمنى ان اثبت الحقائق لا
تخيلاتك أو شكوكك . تخيلاتك—سواء كانت أم لم تكن—
لا استطيع ان اتأكد منها ، فقد كانت فى رأسك وحدك .
انها كلمات تقولها ، أما التصادم الذى كاد ان يقع فهو
الفعل» .

فقلت له :

— انه على حق .

فوافقتنى مالتسيف :

— اعرف انه على حق . وانا ايضا على حق ، ولست

مذبذباً . ماذا سيفعلون بسى الآن ؟
فقلت له :

— سيضعونك فى السجن .

٤

وضعوا مالتسيف فى السجن . وظللت انا اعمل كسابق العهد مساعد سائق ، ولكن مع سائق آخر . عجوز حذر ، كان يوقف القطار قبل السيمافور الأصفر بكيلومتر . وعندما نبلغه كانت الاشارة تتحول الى اللون الاخضر ، فيعود العجوز الى جر القطار ببطء الى الأمام . لم يكن ذلك عملاً ، وأوحشنى مالتسيف .

فى الشتاء كنت فى عاصمة المحافظة ، فزرت أخى الطالب المقيم فى المدينة الجامعية . واثناء الحديث روى لى أخى ان لديهم فى المختبر الفيزيائى بالجامعة وحدة تيسلا للحصول على البرق الاصطناعى . وراودتنى فكرة مترددة ، لم تبلور بعد فى رأسى .

بعد عودتى الى المنزل أمعنت التفكير فيما راودنى بخصوص وحدة تيسلا وقررت انها فكرة سليمة . فكتبت رسالة الى المحقق الذى تولى التحقيق فى قضية مالتسيف آنذاك ، ورجوته ان يختبر مدى استعداد السجين مالتسيف للتأثر بتفريغ الشحنات الكهربائية . وفى حالة ما اذا ثبت استعداد نفسية مالتسيف او جهازه البصرى للتأثر بتفريغ الشحنات الكهربائية القريب والمفاجيء فينبغى اعادة النظر فى قضيته . واشرت للمحقق الى مكان وحدة تيسلا وكيفية اجراء التجربة عليه .

ولم يرد على المحقق فترة طويلة ، ثم ارسل الى بعد ذلك يخبرنى بأن وكيل النائب العام للمحافظة قد وافق على اجراء التجربة التى اقترحتها فى المختبر الفيزيائى للجامعة . وبعد بضعة ايام أرسل المحقق طلباً لاستدعائى . وجئت اليه منفعلًا ، وكلى ثقة فى النهاية السعيدة لقضية مالتسيف .

وصافحنى المحقق ، ولكنه ظل صامتا مدة طويلة وراح يقرأ ورقة ما بعينين حزبتين . وبدأت افقد الأمل .

ثم قال لى المحقق :

— لقد اسأت الى صديقك .

— كيف ؟ الحكم عليه سيقضى كما كان ؟

— كلا ، سنطلق سراح مالتسيف . صدر الأمر بذلك ،

وربما كان الآن فى بيته .

فقلت وانا انهض امام المحقق :

— شكرا لكم .

— اما نحن فلن نشكرك . لقد قدمت نصيحة سيئة . . .

مالتسيف عاد أعمى ثانية . . .

جلست على الكرسي فى اعياء . احترقت روحى فجأة

وأحسست بالظلم .

وقال لى المحقق :

— قاد الخبراء مالتسيف الى وحدة تيسلا فى الظلام

ودون سابق انذار . وكان التيار موصلاً ، فانبعث البرق ودوت

فرقة حادة . ومر مالتسيف بهدوء ، ولكنه أصبح الآن لا

يرى الضوء . وقد ثبت ذلك بطريقة موضوعية بواسطة الطب

الشرعى .

وشرب المحقق قليلا من الماء وأضاف :
 — عاد الآن يرى الدنيا في خياله وحده . . . انت رفيقه ، فهلا ساعدته . . .
 واعربت عن أمل راودنى :
 — ربما عاد اليه البصر ثانية . . . كما حدث آنذاك ، بعد الحادث . . .
 وفكر المحقق قليلا ثم قال :
 — لا أظن . تلك كانت اول اصابة ، اما هذه فالثانية . وقد جاءت في الموضع المصاب الذى لم يندمل بعد .
 وفقد المحقق هدوءه فنهض ، وراح يذرع الغرفة في انفعال .
 — انا المذنب . . . لماذا طاوعتك ، وأصررت كالأحمق على التجربة ! لقد جازفت بانسان ، ولم يتحمل المجازفة .
 وقلت لاخلف عنه :
 — لست مذنباً . انت لم تجازف بشيء .
 ما هو الافضل : انسان أعمى وحر ، ام مبصر مسجون وهو برى ؟
 فقال المحقق :
 — لم اكن اعرف اننى سأضطر الى اثبات براءة شخص عن طريق انعاسه . هذا ثمن باهظ .
 فأوضحت له :
 — انت محقق ، وينبغى ان تعرف عن الشخص كل شيء ، بل وحتى ما لا يعرفه هو عن نفسه .

فقال المحقق بصوت خافت :
 — انا افهمك ، انت محق .
 — لا تقلق ايها الرفيق المحقق . . . نحن هنا نواجه وقائع ذات تأثير داخلى ، اما انت فكنت تبحث عنها فى الخارج فقط . ولكنك استطعت ان تدرك خطأك وتصرفت مع مالتسيف تصرف انسان نبيل . اننى احترمك .
 فأجابنى معترفا :
 — وانا ايضا احترمك . اتدرى ، كان من الممكن ان تصبح مساعد محقق . . .
 — شكرا ، ولكننى مشغول . انا مساعد سائق قاطرة سريعة .
 وانصرفت . لم اكن صديقا لمالتسيف ، وكان هو يعاملنى دائما بلا اهتمام او رعاية . ولكنى اردت ان احميه من بلاء القدر ، وقد تملكى غيظ ضار من القوى القدرية التى تدمر الانسان عرضاً وبلا مبالاة . أحسست بوجود غرض خفى لا يكاد يبين لهذه القوى فى كونها تقضى على مالتسيف بالذات وليس عليّ أنا مثلاً . وكنت ادرك انه لا يوجد فى الطبيعة غرض بمفهومنا وتقديرنا البشرية ، بيد اننى كنت ألمس حدوث وقائع تؤكد وجود ظروف معادية ومدمرة لحياة الانسان ، وكانت هذه القوى المدمرة تسحق النخبة البشرية السامية . وعزمت الا استسلم ، لأننى احسست فى نفسى بشيء لا يمكن ان يوجد فى القوى الخارجية الطبيعية وفى مصيرنا . . . أحسست بتفردى الانسانى . واستعر غيظى وقررت ان اقاوم ، دون ان ادري بعد كيف ينبغى ان افعل ذلك .

في الصيف التالي اجتزت امتحان القيادة وأصبحت أقود بنفسى قاطرة من طراز «سو» في خط الركاب المحلى . وفى كل مرة تقريبا عندما كنت أصل القاطرة بالعربات الواقفة عند رصيف المحطة ، كنت ارى مالتسيف جالسا على دكة مطلية . كان يجلس معتمدا بيده على عصى يضعها بين ساقيه ، مديرا وجهه الشغوف المرهف ، بعينه الخاويتين العمياوين صوب القاطرة ، ويستنشق بنهم رائحة السخام وزيت التشحيم ، ويصغى بانتباه الى الايقاع المنتظم لمضخة البخار . لم يكن عندى ما اسري به عنه فكنت أرحل ويبقى هو .

ومضت ايام الصيف وانا اعمل على القاطرة وأرى مالتسيف كثيرا لا على رصيف المحطة فحسب ، بل كنت القاه فى الشارع وهو يسير ببطء متلمسا طريقه بعصاه . هزل وشاخ خلال الآونة الاخيرة . وكان يعيش فى بحبوحة ، فقد تقرر له معاش ، كما كانت زوجته تعمل ، ولم يكن لديهما اطفال ، ولكن الوحشة ومصير الخمول الذى كتب عليه كانا بعدبانه ، فهزل بدنه من الشقاء المتصل . وتحدثت اليه أحيانا ، ولكنى رأيت انه كان يضجر من الحديث عن الشؤون النافهة ومن القناعة بتعزيتى المجاملة له بأن الأعمى هو أيضا شخص كامل الأهلية والكفاءة .

فكان يقول لى بعد ان يسمع كلماتى الطيبة :

— ابتعد !

وكنت انا ايضا شخصا غضوبا ، وذات مرة ، عندما أمرنى كالعادة بالابتعاد عنه قلت له :

— غدا فى العاشرة والنصف سأقود القطار . فاذا تعهدت بأن تجلس هادئا فساأخذك معى فى القاطرة . فوافق مالتسيف .

— حسنا . سأكون هادئا . ضع فى يدي شيئا ما هناك ، دعنى امسك بعاكس الحركة ، ولن احركه . فأكدت عليه :

— لن تحركه ! ولو حركته فسأضع فى يدك قطعة فحم ولن آأخذك بعدها معى ابداً ..

صمت الاعمى . . كان فى غاية الشوق الى العودة من جديد الى الآلة لدرجة انه استسلم لى . وفى اليوم التالى دعوته من جلسته على الدكة المطلية الى ركوب القاطرة ، ونزلت لملاقاته لكى اساعده على الصعود الى القمرة .

وبعد أن تحركنا اجلس الكسندر فاسيليفتش فى مكانى ، ووضعت احدى يديه على عاكس الحركة والاخرى على الفرملة الانوماتيكية ، ووضعت يدي فوق يديه . ورحت أقود القاطرة بيدي كما ينبغي وكانت يداه ايضا تقودان . جلس مالتسيف فى صمت وطاعة مستمتعا بحركة الآلة ، وبالهواء اللافح للوجه ، وبالعمل . وركز انتباهه ناسيا شقاءه كأعمى ، وأضاء نور الفرحة الوادعة الوجه المعذب لهذا الرجل ، الذى كان الاحساس بالآلة بالنسبة له نعيماً .

وفى طريق العودة رجعنا بنفس الطريقة : جلس مالتسيف مكان السائق ، ووقفت انا بجواره مائلا نحوه ويدائى فوق يديه . وأجاد مالتسيف العمل بهذه الطريقة الى درجة انه كان يكفى مجرد ضغطة خفيفة منى على يده ليدرك بالضبط

ما أريده . كان الاسطى السابق الفذ يسعى الى ان يتفوق على عجزه عن الرؤية والى ادراك الدنيا بوسائل اخرى لكي يعمل ويبرر وجوده .

وفى القطاعات الهادئة كنت ابتعد عن مالتسيف تماما وراقب الطريق من ناحية مساعد السائق .

كنا قد بلغنا مشارف تولوبييف ، وكانت رحلتنا على وشك ان تنتهى بسلام وحسب الموعد المحدد . ولكن فى القطاع الأخير كان السيمافور يشعل لنا ضوءه الاصفر . ولم اشأ ان اهدئ السرعة قبل الأوان ، فمضيت بالقاطرة نحو السيمافور دون ان اغلق البخار . وكان مالتسيف جالسا فى هدوء ، واضعا يده اليسرى على عاكس الحركة . ونظرت الى معلمى بأمل دفين . . .

واذا بمالتسيف يقول لى :

— اغلق البخار !

ولكنى لزممت الصمت وقللى بضطرب انفعالا . عندئذ نهض مالتسيف من مكانه ، ومد يده الى المنظم وأغلق البخار .

وقال وهو يشد ذراع الفرامل نحوه :

— أرى الضوء الأصفر .

فقلت له :

— ربما كنت تتخيل فحسب مرة أخرى انك ترى

الضوء !

فأدار نحوى وجهه واجهش بالبكاء . فأسرعت اليه وقبلته .

— قدُ الآلة الى النهاية يا الكسندر فاسيليفتش ، فأنت

الآن ترى الدنيا كلها !
وقاد القاطرة حتى تولوبييف دون مساعدتى . وبعد العمل ذهبت مع مالتسيف الى شقته ، وجلسنا معا هناك طول المساء والليل كله .

كنت اخشى ان اتركه وحده ، وكأنه ابنى الحبيب ، دون حماية من فعل القوى المفاجئة والمعادية فى عالمنا الرائع والمحتدم .

رجال ملهمون

(قصة عن معركة صغيرة قرب سيفاستوبول)

في قرية أورالية نائية غنت فتيات روسيات . وكان غناء احدهن اعلى واكثر شجنا من غناء الأخريات ، وسالت الدموع على وجهها ، ولكنها واصلت الغناء لكي لا تتخلف عن صديقاتها ، ولكي لا يلحظن شقاءها وحزنها . كانت تبكي من الحب ومن ذكرى شخص كان الآن يحارب . وكانت تتوق الى رؤياه لتشفى بقربه غليل قلبها الذي أضناه الفراق .

اما هو فكان يركض الآن في ساحة القتال مندفعاً الى الامام ، ووجهه مغطى بالدم والعرق . كان يركض مختفياً من خور الموت ويصرخ من ضراوة الغضب . كان مصاباً بجرح رصاصة في خده ، والدماء تسيل من هذا الجرح اسفل عنقه ، وتجف على جسده تحت القميص . واراد ان يمزق عنه قميصه ، لكنه كان بعيداً عن متناول يده تحت السترة ومعطف البحارة . لم يكن يحس سوى بجرح صغير في وجهه ، فلم يفهم سبب هذا الضعف الشديد ولماذا تتلاحق انفاسه عاجزة عن مساندة جسده . عندئذ مزق ياقة سترته المزورة ، اذ لم يكن ثمة مجال للضعف بل كان بحاجة الى بعض الوقت ، لأنه كان يهاجم راکضاً عبر حقل جبرى مغطى بشيح ذابل . وبالقرب منه ، عن يمينه وشماله ومن خلفه ، اندفع رفاقه إلى الامام . وقلوبهم

تخفق في ايقاع واحد مع قلبه ، محافظةً على الحياة والأمل في مواجهة الموت .

ارتدى على وجهه منصاعاً لحافز لحظي ، لذلك الاحساس الحاد بالخطر ، الذي يجعل العين تغمض قبل ان تصيبها الابرة . هو نفسه لم يفهم في البداية لماذا ارتدى فجأة على الارض ، ولكنه ، عندما غرد الموت فوقه بدفعة طويلة من الرصاص ، تذكر أمه التي انجبتة . هي التي وهبت ابنها الحبيب ، مع الحياة ، قدرة سرية على حماية النفس من الموت ، قدرة تعمل اسرع من الفكر ، وذلك لأنها احبته وأعدته في رحمها للحياة الخالدة . الى هذا الحد كان عظيماً حبها .

مر الرصاص فوقه . ومن جديد نهض واقفاً ، مدعناً لضرورة القتال ، ومضى الى الامام . ولكن الضعف المضني كان يعذب جسده ، فخاف ان يموت وهو يركض . وامامه كان العريف بروخوروف ممدداً على الارض . لم يعد في وسعه بعد ان ينهض ، فقد صرخته رصاصة في عينه ، فانطلقاً الضياء والحياة فيه دفعة واحدة . وفكر البحار المندفع الى الهجوم : «ربما احبته أمه اقل من حب امي لي ، أو أنها نسيته» ، واحس بالخجل من فكرته هذه العارضة . لقد كان بالأمس يتحدث الى بروخوروف ، ودخنا معاً ، وتذكروا أيام الخدمة في سفينتهما التي لم يعد لها وجود . واحس بالرغبة في الانبطاح الى جوار بروخوروف ، ليقول له انه لن ينساه ابداً ، وانه سيموت في سبيله ، بيد انه لم يكن لديه ثمة وقت لوداع صديقه . كان عليه فقط ان يقاتل في سبيل ذكراه . وأحس الآن بالراحة ،

وتلاشى الضعف المضنى في جسده ، والذي كان يخشى بسببه ان يموت وهو يركض ، وكأنه تولى مسؤولية الحياة نيابة عن صديقه الراحل ، وانتقلت قوة الشهيد الى جسده هو . واندفع بصراخ ضار الى الخندق ، الى ملجأ العدو ، فرأى هناك وجها رماديا لشخص غريب ، واحس برائحة كريهة غريبة ، فصزع العدو بضربة بكعب البندقية في جبينه لكي لا يعود يقتلنا ويعذب شعبنا برعب الموت . ثم استدار البحار في ظلمة الخندق واشرع بندقيته ضد عدو آخر ، ولكنه لم يذكر ان كان قد قتله ام لا ، اذ سقط فاقد الوعي محتبس الانفاس بسبب موجة انفجار . فقد اخذت المدفعية الألمانية تلك المواقع الألمانية التي يهاجمها البحارة الروس لتجعل من هذا المكان أرضاً حراماً .

تطلع مفوض الكتبية الأول بوليكاريوف بالمنظار الى ارض القتال من بعيد . ورأى اولئك الذين سقطوا ولم ينهضوا بعد ذلك ، واولئك الذين تغلبوا على نيران الخصم المواجهة وبلغوا خنادق العدو على سفح التبة ليقضوا عليه بحراب البنادق وكعوبها . وانطبع في ذاكرته كيف خر بروخووف صريعاً ، وكيف توقف الموجه السياسى الثانى افاناسيف واقتعد الأرض على مضض ، وكيف تقدم البحار كراسنوسلسكى نحو العدو في خط متعرج ولكن بعناد ، اذ يبدو انه قد جرح ، وإن تحمل آلامه حتى النهاية .

كان الجناح الايسر والجناح الأيمن ما يزالان يتقدمان ، ولكن القلب لم يعد موجوداً . فقد اندحر القسم الأوسط من الوحدة المهاجمة كله واستلقى على الأرض تحت النيران . ولم يعرف المفوض بوليكاريوف هل بقى هناك أحد على

قيد الحياة ام لا ، ولذلك قرر ان يمضى الى هناك بنفسه ، فزحف على الأرض قدماً .

من ورائه كانت سيفاستوبول ، وأمامه كان طريق دوفانكوى المسفلت . والى اليسار قليلاً انعطفت الطريق متجها الى الجنوب رأساً ، نحو سيفاستوبول . وفى مقابل استدارة الطريق ، على الجانب الآخر ، امتد حقل شيع ، ومن بعده قليلاً انتصبت التبة التى كان يحتلها الألمان . ومن فوقها كان العدو يرى المدينة . . آخر حصن وملاذ للشعب الروسى فى القرم .

وبلغ الجناحان الأيسر والأيمن لمشاة البحرية المهاجمين سفح التبة واختفيا فى تضاريس الارض وفى خنادق العدو حيث اشتبكا فى قتال بالسلاح الأبيض . وتوقف العدو عن اطلاق النار . ونهض بوليكاريوف بطول قامته وركض على السفح . وانضم اربعة بحارة من الجناح الايمن الى بوليكاريوف، واندفعوا الى الامام فى اثر المفوض ، مستغلين الهدوء الذى حل على هذه الأرض المميتة التى لم تبرد ناراها بعد .

ولاحظ بوليكاريوف البحار نيفيدوف الملقى قتيلاً ، فعصر الحزن قلب المفوض . تذكر نيفيدوف ، شهيد المجد الآن ، والذي كان من قبل شخصاً مرحاً ، جذاباً ، ولكن صعب المراس . وها هو الآن يرقد قتيلاً وقد أصبح خلف المفوض الراكض الى الأمام .

من خط الدفاع الألمانى الثانى فتحت عدة رشاشات نيرانها بغتة وفى وقت واحد . وكان هذا الخط يمتد قرب قمة التبة تماماً . وكانت نيرانها قاسية دقيقة التسديد ، فالتفت بوليكاريوف صوب الجنود واصدر اليهم اشارة بأن ينبطحوا ، وانبطح هو نفسه امامهم .

وعلاوة على الرشاشات بدأت الهاونات تقصف ، واصبحت النيران المختلطة هوجاء وبلا تمنع . وقال بوليكاروف لنفسه : «لَمْ كُلْ هذه النيران ضد خمسة ؟ يضربون بذعر ، دون حساب !» .

وإدار بوليكاروف وجهه الى الخلف بحذر ، نحو الجنود . كانوا منبطحين كل في ناحية ، وبصورة سليمة وقد التحموا جيدا بالأرض ، ملتصقين بها بشدة ، بحثا عن حصى من الهلاك .

كانت المسافة الى الخط الالمانى الأمامى الذى اقتحمه البحارة فى الجناحين تبلغ حوالى مائة متر ، وهى نفس المسافة الى الورا ، الى طريق دوفانكوى .

اشتد قصف الهاونات ، ومزقت أجسام قذائف الهاون القصيرة البدينة وهى تعوى فوق أجساد البشر ، وتمزقت اشلاء ، كأنما بفعل غضبها الداخلى المحتدم . واصبح البقاء فى هذا المكان مستحيلا ، والا هلكوا هباء .

واندفع بوليكاروف الى الامام صائحا :

— اتبعونى ! لنهجم على الملاعين ، اولاد الـ . . . ولكن قذيفة الهاون مرت بجواره وانفجرت غير بعيد ، بينما مزق الرصاص الهواء بغزارة بدا معها ان الهواء يجف ويتفتت .

ونظر المفوض الى البحارة . كانوا ممددين بلا حركة . . والموت الحديدى يحرق الهواء فوق قلوبهم تماما ، وأرواحهم تحافظ على نفسها .

واحس بوليكاروف بصدمة الهواء المعول فى وجهه فالتصق بالأرض ثانية . ومر سرب من قذائف الهاون الثقيلة

فوق الفصيلة . تمدد المفوض مستديرا نصف استدارة نحو رجاله ليرى ان كانوا جميعا أحياء ام لا . ويجدهم لا يزالون أحياء حتى الآن . فاسبلى تسيولكو هو وحده الذى لم تند عنه حركة وهو ملقى على وجهه . واقترب منه المفوض زحفا فرأى ان تسيولكو بدأ يتحرك هو الآخر . . واذن فهو أيضا حي . واخذ تسيولكو يرفع وجهه عن الأرض من حين لآخر ، ويعود يلتصق بها تماما . كانت شفتاه المتورمتان المشققتان من الريح منفرجتين ، وراح يلصقهما بالأرض ويرفعهما عنها ثم يقبل بهما الأرض ثانية بنهم ، وقد وجد فى ذلك تهدئة لنفسه وتسرية عنها . وتطلع دانييل أوديتسوف بامعان الى عود شيوخ اصبح الآن عزيزا عليه . وقال بوليكاروف لنفسه : «كل ذلك حسن ، ولكن آن لنا ان نتقدم» . ومن جديد صاح بالبحارة الذين لم يسمعوه على الأرجح فى هدبر النيران وأزيزها :

— اتبعونى !

وانتصب واقفا وقد التفت للحظة صوب الجنود . ونهض الجنود جميعا ، الا ان انفجار دانة مدفع قريبهم أجبرهم على الانبطاح ثانية ، والتفت موجة الانفجار بالمفوض نفسه على الأرض .

وفى المرة الثالثة نهض المفوض فى صمت ، ولكنه سقط فورا دون ان يدرك هو نفسه السبب ، فاستعر غيظه على تلك القوة المعادية التى صرخته . وأفاق بعد فترة قصيرة فأحس بالبرودة تسرى فيه ، وكأنه يذوب ويتقلص كل ما بداخل جسمه ، ولكن ذهنه ظل صافيا وحييا كما كان ، فكان المفوض يعي تصرفاته . رأى ذراعه اليسرى التى بترتها

شظية القذيفة عند الكتف تقريبا . وكانت هذه الذراع المستقلة ملقاة الآن بجوار جسده . وتدفق دم داكن من زنده متسربا عبر بقايا كم المعطف . ومن جرح الذراع المبتورة سال الدم ايضا ببطء . كان ينبغي ان يسرع ، فلم يبق من الحياة الا القليل .

أمسك المفوض بوليكاربوف بذراعه اليسرى من كفها ونهض واقفا وسط هدير النيران وأزريها . ورفع يده المبتورة ، النازقة بآخر دماء الحياة ، فوق رأسه كالعلم ، وصاح في دفقة غضب من قلبه المستشهد في سبيل الشعب الذى انجبه : — الى الأمام ! فى سبيل الوطن ، فى سبيلكم ! ولكن البحارة كانوا قد سبقوه . اندفعوا عبر سيل النيران المميتة نحو مواقع العدو الامامية ، وهم يحسون الآن بالتححر والسعادة ، وكأنما كشف لهم المفوض بوليكاربوف بحركة واحدة سر الحياة والموت والانتصار .

ونظر بوليكاربوف فى اثرهم بعينين قريرتين شاحبتين من الضعف ، وتمدد على الأرض فى التزع الأخير . اقتحم اثنان من البحارة الخنادق القصيرة الأولى للعدو ، وغاصا فيها . وكان ايفان كراسنوسلسكى يرقد فى احدها فاقد الوعي ولكنه ما يزال حيا . وبجواره انطرح قتيلان ألمانيان مطوحين .

كانت الخنادق محفورة بعمق كاف ، فلم تشكل نيران العدو من الخط الثانى خطورة هنا .

وقال تسيبولكو لأوديتسوف : — نحن هنا سكان ! فوافقه اوديتسوف :

— هنا معلوم ! هنا كمطعم على الكورنيش . . فقط لا غير !

وسأله تسيبولكو :

— وكيف استقر الأولاد هناك ؟

فنظر اوديتسوف خارج الخندق وقال :

— بقوا فى ذلك الملجأ . هناك أكثر راحة .

وأسعف تسيبولكو وأوديتسوف كراسنوسلسكى فعاد إلى

وعيه . واتضح انه ، بالإضافة الى جرح خده ، مصاب

بجرح نافذ فى الصدر . وقد التصق قميصه الداخلى بجسده

فى موضعين : بجوار ثديه الأيمن حيث دخلت الرصاصة ،

وبجوار شامة فى ظهره حيث خرجت . وضمد تسيبولكو

كراسنوسلسكى بمقدرة وحذر وقد مزق قميصه وصنع منه

أربطة . وكانت الجراح الخارجية على جسد كراسنوسلسكى قد

جفت وبدأت تلتئم ، اما تأثير الرصاصة داخل الجسم فلم

يكن معروفاً .

وسأله تسيبولكو :

— كيف حالك الآن ؟ هل ستذهب بعد

المعركة الى المستشفى أم تستغنى عنها ، وتسترد انفاسك

تحت النيران ؟

فقال كراسنوسلسكى :

— الآن احسن بكثير . كانت حالتى سيئة اثناء الهجوم ،

استولى عليّ الضعف تماما ، وإلى ان بلغت العدو لوحنى

الهواء وملأنى الغيظ فشفيت . وهنا تعبت ثانية بعد أن

قضيت على اثنين . أما الآن فلا بأس . السبىء ان تصاب

فى البداية ، وانت فى أول المعركة ، فعندئذ تحارب بنصف

كراسنوسلوسكى نائمة هي أيضا ، وقد كفت الآن عن البكاء .
كان وجهها الرائع لا عن جمال انثوى بل عن سيماء الدهشة
والبراءة ، هادئا الآن ، لا ترسم عليه سوى سعادة رقيقة
وادعة . . . فقد كانت تحلم بأن الحرب انتهت ، والقطارات
المحملة بالجنود تعود بهم الى ديارهم ، بينما تجلس هي
وتخطط على وجه السرعة مزقا صغيرة من القماش مختلفة
الألوان لتعد غطاء جميلا للبطانية ، تمضية للوقت الى
حين عودة فانيا . . .

في نصف الليل انتقل الموجه السياسي نيكولاى فيلتشنكو
والبحار يورى بارشين من الملجأ الى الخندق . وابلغهم فيلتشنكو
أمر القيادة : ينبغي احتلال موقع على طريق دوفانكوى ،
اذ يوجد هناك جسر ترابى ، والمانع هناك اقوى من هذا
السفح الأجرد ، وينبغي الصمود هناك حتى هلاك العدو .
وعلاوة على ذلك ينبغي عليهم قبل طلوع الفجر ان يفحصوا
الأسلحة ويستبدلوها بأخرى جديدة اذا كانت القديمة غير
صالحة او غير ملائمة ، ويحصلوا على الذخيرة .

وثناء انسحاب البحارة عبر حقل الشيع وجدوا جثة
المفوض بوليكاربوف فحملوها ليدفنها ويحموها من تمثيل
العدو بها . فكيف يمكنهم فوق ذلك ان يعبروا عن حبهم
لرفيقهم الشهيد الصامت ؟

ترك الموجه السياسي نيكولاى فيلتشنكو قيادة الفصيلة
لدانييل أوديتسوف ومضى الى الخطوط الخلفية ، الى
سيفاستوبول ، حيث مركز الامدادات ، ليعجل بنقل الذخيرة .
كانت صواريخ الانارة تهبط من السماء ببطء وبلا
انقطاع ، الواحد تلو الآخر . وشكلت الآن ايضا أربع

ثريات . . . أربع مجموعات من الصواريخ تحت كل مظلة .
وكانت رشاشاتنا المضادة للطائرات تصيها بسرعة ودقة لتطفئها ،
ولكن العدو يقذف من السماء بمشاعل جديدة بدلاً من
المنطفئة ، فتلقى على المدينة وضواحيها — البحر واليابسة —
نورا شاحبا حزينا يشبه نور الأحلام .

وفي طرف المدينة كان بعض السكان المدنيين ما
يزالون يقطنون في احد المساكن الجماعية لعمال البناء .
ورأى فيلتشنكو امرأة تنشر الغسيل عند مدخل المسكن وطفلين ،
صبيا وصبية يلعبان لعبة ما على الأرض البيضاء . ونظر
فيلتشنكو الى الساعة . . . كانت الساعة الواحدة ليلاً . يبدو
ان الاطفال كانوا يأخذون قسطهم من النوم نهارا عندما
تكون نيران المدفعية قليلة في هذا القطاع ، وفي الليل
يسهرون ويلعبون . واقترب الموجه السياسي من السور الحجري
المنخفض الذى يحيط بفناء المسكن الجماعى . كان الصبى ،
وهو فى حوالى السابعة ، يحفر الأرض بمجرفة ليصنع قبرا
صغيرا . وبالقرب منه كانت عدة قبور صغيرة . . . اربعة صلبان
من الشظايا الخشبية تنتصب فوق كتبان القبور ، بينما راح
يحفر القبر الخامس .

وأمرته اخته التى كانت اكبر من اخيها وأعقل منه ،
فى حوالى التاسعة أو العاشرة :

— احفر الآن قبرا أكبر ! اقول لك ينبغي حفر
قبر كبير ، جماعى ، فالموتى عندى كثيرون . الناس يموتون
وأنت القوة العاملة الوحيدة ، لا تلاحق . . . احفر أكثر ،
احفر أكبر واعمق ، قلت لك !
وكان الصبى يحاول ان يرضى اخته وهو يسرع فى

حفر الأرض بمجرفته .
وأخذ فيلشنكو يراقب في صمت لعبة الموت هذه
التي يمارسها الاطفال .
وانصرفت اخت الطفل الى البيت وسرعان ما عادت .
كانت تحمل شيئا ملفوفا في ذيل ثوبها .
وسألت اخاها الكادح :
— لم يجهز بعد ؟
فأجاب الأخ :
— الأرض هنا صلبة .
فعنفت الأخت اخاها :
— بالك من روماني كسول .

واخرجت الشيء من ذيل ثوبها ووضعتة على الأرض
واخذت المجرفة من اخيها وبدأت تحفر . ونظر الصبى
الى ما احضرته اخته . ورفع من الارض كتلة طينية طولها
حوالى شبرين ، تشبه قليلا جسد انسان . وكانت على الأرض
سنة اجساد مثلها ، احدها بدون رأس واثنان بدون سيقان ،
فقد تفتت .

وقال الصبى بحزن :
— انها سيئة . الناس ليسوا هكذا .
فأجابت اخته :
— بل يوجد ناس هكذا . الدبابات هرستهم ، كل
واحد بطريقة مختلفة .

ومضى فيلشنكو الى مقصده . «شقيقتاي ايضا تلعبان
الآن لعبة الموت في مكان ما بأوكرانيا» — فكر الموجه السياسي ،
وتحرك في قلبه الحزن المألوف والوحشة القديمة الى دار

ايه المدمرة — ولكنهما في الغالب لم تعودا تلعبان فقد
ماتتا . . . ينبغي أن ننسى الحياة لمن علموا الاطفال لعبة
الموت . . . أنا نفسى سأنسىهم الحياة ! . . .
خلف الجسر الترابى لطريق دوفانكوى كان اربعة بحارة
يحفرون قبرا للمفوض بوليكاروف .

وتوقف اوديتسوف عن الحفر وقال :
— المفوض قال اننا بالنسبة له كل شيء ، اننا
الوطن . وهو ايضا بالنسبة لنا الوطن . لن ادفنه فى
الأرض ! . . .
والتقى اوديتسوف بالجاروف وجلس بلا عمل .
فقال تسيولكو له :

— هذا لا يصح ، عيب . ينبغي ان ندفنه والا
مزقته النيران غداً اشلاء . سنخرجه فيما بعد . أما الآن
فسندفنه مؤقتاً ، الى حين النصر ! . . . هيا يا دانييل ، عيب !
ولكن دانييل كان عازفاً عن العمل . وحفر بارشين
وتسيولكو تجويفا غير عميق فى سفح الجسر الترابى ،
ومددا فيه بوليكاروف ووجهه الى اعلى ، ولم يهيلا عليه
التراب . كانا يريدان أن يبقى الآن معهم ، لكى يستطيعوا
ان ينظروا اليه فى ساعتهم العصية . ووضع البحاران ذراع
المفوض المبتورة الميتة بطول صدره ، وفوقها وضعوا ذراعه
اليمنى وكأنها فوق السلاح .

ثم أمر اوديتسوف كلاً من بارشين وتسيولكو بالنوم
حتى الفجر . اما كراسنوسلسكى فنام من تلقاء نفسه باعتباره
مریضاً ، وراح يشخر فى نومه وهو يستنشق عبير اعشاب
القرم الجافة . ووقد بارشين وتسيولكو فى قناة مريحة غطتها

اعشاب طرية عند سفح المنحدر ، وتكثراً كالأطفال وسرعان ما غابا في النوم متدفئين بحرارة جسديهما .
وظل أوديتسوف ساهرا وحده . ومضى الليل في تراشق مدفعي ضعيف . وفوق المدينة تلالاً ضوء العدو المرعب الكاشف . وما زال الوقت طويلاً حتى مطلع الفجر .
في الصباح ستستأنف المعركة . وكان أوديتسوف ينتظرها بشوق ، فلم يعد ثمة مجال للحياة في الدنيا بعد الآن ، ولا بد من الذود عن حق الشعب الروسي الأصيل بقوة الجندي التي لا تقهر . وفكر البحار بجوار رفيقه النائمين : « الحق معنا . ونحن في وضع صعب ، ونفوسنا تتعذب . والفاشيست يعملون لامتاع انفسهم ، فمرة يسكرون حتى الثمالة ، ومرة يسلبون فتاة شرفها ، ومرة يطلقون النار عليّ . اما نحن فقد علمنا ان نأخذ الحياة بجدية ، أعددنا للحقيقة الخالدة . نحن قرأنا لينين . ولكنى لم اقرأ كل شيء بعد ، سأقرأه بعد الحرب . الحقيقة موجودة ، وهي مدونة عندنا في الكتب ، وستبقى ولو متنا جميعا . اما ضوء العدو الشاحب في السماء ، وكل قوة الفاشية . فهي كابوسنا الرهيب . سيموت فيه الكثيرون دون ان يفيقوا ، ولكن البشرية ستستيقظ ، وسيعود الخبز يكفى الجميع ، وسيقرأ الناس الكتب ، وستصدق الموسيقى ، وتحل ايام هادئة مشمسة بسحب في السماء ، وستشيد المدن والقرى ، وسيعود الناس إلى بساطتهم ، وتصبح نفوسهم عامرة . . . »

وفجأة تخيل أوديتسوف نفسا خاوية في جسد ميت متحرك ، وفي البداية يقتل هذا الميت جميع الاحياء ، ثم يفقد نفسه بعد ذلك لأنه لا معنى لوجوده ، وهو

لا يدرك ذلك فيصبح دائماً في حالة من القلق المسعور . وقف أوديتسوف وحده على جانب منحدر الطريق وتطلع الى الامام ، الى ناحية العدو المبهمة . وقف معتمداً على البندقية ، رافعا ياقة المعطف ، وراح يفكر ويحس بكل ما ينبغي ان يراود انساناً خلال حياة طويلة ، لأنه لم يكن يعرف هل ستطول حياته أم تقصر ، ولذلك أخذ ، تحوطاً ، يمعن التفكير حتى النهاية .

ثم بدأ الخيال ، بديل السعادة البشرية هذا ، يتحرك في وعي أوديتسوف واخذ يدفعه . تخيل كيف سيحيا بعد الحرب . سينهى المدرسة الموسيقية التابعة للفيلهارموني التي كان يدرس فيها قبل الحرب ، وسيصبح موسيقاراً . سيصبح عازفاً على البيانو ، وسيؤلف ، ان استطاع ، موسيقى جديدة يتردد فيها صوت القلب الذي هزته الحرب والمنية ، وتعبير عن عهد الحياة الجديد المقدس .

ونظر أوديتسوف الى رفاقه . . . تسيبولكو وبارشين نائمان ، وكراسنوسلسكى نائم ايضاً وقد اخترقت الرصاصة صدره ، والمفوض نائم الى الأبد . ما أصعب مرقدهم على الأرض القاسية ، فليس لمثل هذا العالم ولدتهم امهاتهم وانشأهم شعبهم ، وليس لكي تنتزع العظام من اجساد أطفالهم الأحياء . وتنهّد أوديتسوف : ما أكثر ما ينبغي عمله في الدنيا بعد الحرب ، بعد انتصارنا ، اذا ما أردنا ان يصبح العالم مقدساً وحيّاً ، اذا ما اردنا الا يتحول قلب الجندي الذي مزقه الحديد في الحرب إلى رفات منسي . . .

وفي الفجر وصل الموجه السياسي فيلشنكو ومفوض الفوج لوكيانوف في سيارة . وحملا معهما الذخيرة والاسلحة والتموين .

وتفقد لوكيانوف الموقع وحمل معه الى المدينة جسد بوليكاربوف وقد وعدهم ان يعود في الصباح الى هذا القطاع . وأمر فيلشنكو اوديتسوف بأن يرقد ليستريح ، لأن المقاتل الذى لم ينل حظه من النوم ليس بشغيل فى الحرب . قال فيلشنكو :

— اذهب لنام ! بالمعاطف لا يسبحون ، وبالقفاز لا يحصلون ، وبدون نوم لا يحاربون ! ووقد اوديتسوف فى القناة بجوار كراسنوسلسكى الذى كان يغط فى النوم وقد علا شخيرته ، وتكيف مع طبيعة الأرض ونام . لم يكن يشعر برغبة فى النوم ، ولكن طالما كان ذلك ضروريا فقد نام .

طلع الفجر . وعدل نيكولاى فيلشنكو أوضاع جنوده النائمين لتصبح نومتهم مريحة فلا تنمل ايديهم وأرجلهم وجذوعهم . وعندما كان يقلبهم كانوا يدمدمون بالسباب ولكنه كان يردعهم قائلاً :

— هكذا سترتاح اكثر يا فھيم ! سترى أمك فى المنام .

كان يود الآن ان يلقى نظرة على أمه ولو فى المنام ، وكان مستعدا ان يدفع غاليا لكى يعانق من جديد جسدها الهزيل ويقبلها فى عينيها الباكيتين .

وحل الهدوء . فمدافع العدو البعيدة ومدافع سفننا التى لم تكن تضرب من قبل الا نادراً ، كفت الآن تماماً عن اطلاق النار ، وانطفأت المشاعل فوق سيفاستوبول ، واطبق السكون الى درجة بعث الألم فى الآذان ، فسمع فيلشنكو طرطشة الأمواج على الحاجز فى الخليج . بيد

انه فى هذا الصمت كان يجرى عمل شاق وعاجل يقوم به اسطوات الحرب : الميكانيكيون ، وعمال التجميع ، والبرادون ، وعمال الوقود ، وعمال التركيب ، وكل من يعد الآلات الحربية للعمل .

تطلع فيلشنكو الى رفاقه . كانوا مستقلين فى آخر نومة قبل الاستيقاظ . كانت وجوههم جميعا مكشوفة ، فراح فيلشنكو يتأمل كل وجه على حدة ، لأن هؤلاء الرجال كانوا يمثلون بالنسبة له فى الحرب كل ما يحتاج اليه الانسان وكل ما هو محروم منه : لقد حلوا بالنسبة له محل الاب والأم والاخوة والاخوات وحبيبة الفؤاد والكتاب الأثير ، كانوا يمثلون بالنسبة له الشعب السوفييتى كله فى صورة مصغرة ، وقد استوعبوا كل طاقة روحه الباحثة عن وصال .

كان فاسيلى تسيبولكو يتنفس فى نومه من فمه المفتوح كالأطفال . لقد كان سائق جرار من محافظة دينيروتروفسك ، وقد خاض عدة معارك ، وكان يجيد القتال بحرية ، ولكنه يصبح عبوساً بعد القتال ، او فى فترات الهدوء المؤقت ، وذات مرة بكى . وسأله فيلشنكو فى تلك المرة بغضب : «ماذا بك ؟ هل انت خائف ؟» فأجاب تسيبولكو : «لا ايها الرفيق الموجه ، أنا لا اخاف شيئاً . ولكنى شعرت الآن بان أمى تحببني وتذكرنى . وهى تخشى ان اموت هنا . . وأحسست بالشفقة عليها !» . وروى تسيبولكو انه كان يصنع فى مزرعتهم التعاونية شتى الاشياء والوسائل لتيسير الحياة على البشرية ، فقد جعل طاحونة الهواء ترفع المياه من البئر الى الخزان . وفى مزارع الخضروات نصب تسيبولكو فزاعات طيور رهيبة ، تتحرك ايضا بقوة الريح ، فتتر وتعمل

الطبقة العاملة ، لأن الطبقة العاملة هي أم جميع الآلات والمعدات .

وها هو تسيولكو نائم ، وعيناه البريثتان المتطلعتان الى العالم بدهشة وبمشاعر طيبة مغمضتان الآن ، والنصق شعره الأسود تحت عمرته من عرق النهار القديم ، ولم يعد وجهه النحيل يحمل ملامح الصبا السعيد . اذ غار خداه وانطبقت شفتاه في توتر دائم . كان يواجه الموت كل يوم ويبعده عن شعبه ..

وزفر الموجه السياسى وقال :

— فلتعش يا فاسيا حتى الشيخوخة .

كان ايفان كراسنوسلوسكى يعمل قبل الحرب فى تعويم الخشب فى الاورال ، طوفا . وكان يقا—
باجتهاد وتديير وكأنما يؤدى عملاً شاقاً ولكنه ضرورى ومفيد . وفى فترات الهدنة بين المعارك واثناء الراحة كان يعيش فى صمت ، ولا يعقد صداقات حميمة مع رفاقه ، تلك الصداقات التى يتحد فيها كل قلب بشرى بغيره من القلوب ، لكى تحمى نفسها وكل واحد منها من الموت بقوتها الكبيرة المشتركة ، ولكى تستمد القوة من افضل الرفاق اذا ما تخاذلت احدى النفوس الوحيدة فى مواجهة قدرها المهلك . وكان فيلتشكو يدرك لماذا لم يكن كراسنوسلوسكى بحاجة الى مثل هذه الصداقة . فقد كان مشدودا الى الحياة بقوة أخرى لا تقل عفوانا . كان فى حمى حبه لعروسه ، لتلك الفتاة البعيدة فى الاورال ، لذلك الكائن الغريب الهادئ الذى أمد قلب البحار بالبسالة والسكينة . وقد لاحظ فيلتشكو من زمان ، حتى قبل الحرب ، ان كراسنوسلوسكى

وتلوح بأيديها ورؤوسها ، فكانت لا تقض مضاجع الطيور الجارحة فحسب ، بل ولا تدع احداً ينعم بالهدوء . وأخيرا فقد راح تسيولكو يتناول عشباً مطهواً ، كان يعتبر من قديم الازل فى تلك المنطقة غير صالح للطعام . ولم يمرض بسبب ذلك العشب ولم يمت ، بل على العكس ، ازداد قوة ، مما أشاع الاعتقاد بأن هذا العشب هو حقاً طعام مفيد .

كان تسيولكو يهوى التفكير فى الأمور بعقله هو . وكان يرى العالم سراً رائعاً ، وكان ممتناً وسعيداً بأنه ولد ليعيش هنا بالذات ، على هذه الأرض ، كأنما كان هناك من يملك سلطة ان يحدد له اين يعيش ، هنا ام فى مكان آخر .

وتذكر فيلتشكو كيف استلقى هو وتسيولكو منذ اربعة ايام فى حفرة جيرية . وزحفت ثلاث دبابات ألمانية على وحدتهم . وأصاخ تسيولكو السمع إلى حركة الدبابات فالتقطت اذناه هدير محركات الديزل المنتظم . وقال تسيولكو حينذاك : «أسمع يا نيكولاى انفاس الديزل المشدودة المنتظمة ؟ آه ، ها هنا القوة والانضغاط !» . كان فاسيلي تسيولكو يستمتع بصوت محركات الديزل القوية . ورغم ادراكه ان الفاشست يركبون هذه الآلات ليقتلوه ، لم ير ذنباً للآلات هنا ، لأنها من صنع عباقرة الفكر والعمل الأحرار ، وليس من صنع قتلة العمال هؤلاء ، الذين يركبونها الآن . واطل تسيولكو برأسه من الحفرة وقد نسى الخطر ليتمكن من رؤية الآلات جيداً . كان يهيم بجميع الآلات فى العالم أجمع ويعتقد عن يقين بأنها جميعاً فى صفنا ، أى فى صف

عندما كان ينزل الى الشاطئ في اجازة ، لم يكن يغازل الفتيات في سيفاستوبول ابداً ، وقليلًا ونادرا ما يشرب الخمر ، ولم يكن ينساق لطيش الشباب . . لا لأنه لم يكن قادرا على ذلك ، وانما لأن ذلك لم يكن يشغل باله أو يسليه ، وكان مثل هذا اللهو العادى يشعره بالملل . كان يعيش غائبا في سعادة حبه . كان يملكه شعور دائم واحد ، لا يمكن استبداله بأى شعور آخر أو تجزئته أو الانصراف عنه ولو لفترة . لم يكن فى مقدور كراسنوسلسكى أن يفعل ذلك ، وكان يقاتل بضراوة واصرار دائم لأنه أراد على الأرجح بمأثرته الحرية أن يعجل يوم النصر ، لكى يشرع بعده فى القيام ببطولة أخرى . . بطولة الحب والحياة المسالمة .

كان كراسنوسلسكى شخصا طويل القامة ، ذراعاه كبيرتان وقادرتان على العمل ، وجسده وافر وذو قوة بدنية بادية . . وكان من المفروض ان يعربد فى الحياة ، ولكنه كان وديعا وصبوراً . . كانت ثمة قوة رقيقة لا ترى تتحكم فى هذا الكيان الجبار وتوجه سلوكه بدقة سامية .

واستغرق فيلتشكو فى التفكير وهو يراقب كراسنوسلسكى : ما اعظم الحياة وما أروعها ، ولا مجال للموت . اما يورا بارشين فقد جرح اربع مرات ، وكانت اصابته فى اثنتين منها خطيرة ، ولكنه لم يمت . كان صغير الجسم ، متوسط القوة ، مرحا ، جلودا ، مستعدا لالقاء نفسه الى التهلكة فى سبيل متعته ، ويستبعد احتمال موته الا بعد موت آخر وغد فى العالم . واثناء الخدمة فى الاسطول ، قبل الحرب ، سقط مرتين من ظهر السفينة فى مياه الخريف

الباردة قبل ان يصبح مفهوما انه يفعل ذلك عمداً . . وذلك حتى يأمر طبيب السفينة بصرف الكحول له لتدفئته من البرد . وكان لبارشين صديقات كثيرات يحبهن فى سيفاستوبول ، وكن يبادلنه الحب أيضا ولا يغرن من بعضهن البعض ، الامر الذى كان غريبا على الطبيعة النسائية . بيد ان سر جاذبية يورا بارشين كان بسيطا ، وكان ادراكه يضاعف الاعجاب به . كان هذا السر يكمن فى سخاء روحه الطيب وفى نكرانه الساحق لذاته فى سبيل اى شخص عزيز عليه ، وفى مرحه الدائم . كان بوسعه ان يأخذ على عاتقه جريرة رفيقه ويؤدى العقوبة بدلا منه ، وكان بمقدوره ان ينقذ صديقته اذا ما احتاجت الى مساعدته . وذات مرة كان فى مهمة فى فيودوسيا وتعرف هناك على فتاة من اهل المدينة . واذا احست الفتاة انه رجل حقيقى فقد رجته ان يصنع معروفا ويتزوجها زواجا شكليبا . كانت بحاجة الى ذلك لأنها كانت تخجل من أمومتها لطفل انجبته من شخص حبيب هجرها ورحل الى جهة مجهولة دون ان يعقد قرانه عليها . وبالطبع وافق بارشين عن طيب خاطر على عمل هذا المعروف للمرأة الشابة . وفى زيارته التالية لفيودوسيا تم الزفاف وبعد الزفاف جلس طول الليل بجوار فراش زوجته الاسمية ، وظل الليل كله يروى لها الحكايات والوقائع ، وفى الصباح قبلها فى جبينها كأخته ومد لها يده مودعاً . ولكن قلب المرأة التى ظلت تسمعه طوال الليل تحركت احساسه نحو الزوج الوهمى ، وتعلق به ، فأبقت يد بارشين فى راحتها . ورجته : «ابق معى !» . فسألها البحار : «الى متى ؟» . فهمست المرأة : «الى الابد» ، فرفض بارشين قائلاً :

«لا يمكن ، فأنا طائش» ورحل عنها الى الأبد .

كان الناس عندما تنبدى لهم روح بارشين ، يشعرون بنوع من الضعف امام نبع الحياة هذا المكشوف ، السخي الصافي الذي لا تنفذ قوته المبدرة ، ويتخلون عن مألوف احوالهم وعاداتهم . كانوا ينسون الغيرة في الحب لأن قلوبهم واجسادهم تحس بالخجل من بخلها ، ويتجاهلون حسابات العقل ، ويتولد فيهم احساس خفيف جديد بالحياة ، وكأنما مستهم قوة سامية بسيطة لفترة قصيرة وجذبتهم وراءها .

كان من الصعب معرفة العمل الذي كان يمارسه يورا بارشين قبل الحرب ، قبل استدعائه للخدمة في الاسطول ، لأنه كان يقول لهذا غير ما يقوله لذلك ، بل ويقول اشياء مختلفة للشخص الواحد . لم تكن الحقيقة عن نفسه تهمه ، بل كان يهمه الخيال ، وتبعاً لما يمليه خياله يقول تارة انه كان خراطاً في مصنع المعادن في لينينجراد (وبالفعل كان ملماً بالخراطة) وتارة مهنجاً في حديقة كيروف العامة ، وتارة طباًخاً في سفينة تجارية . وكان يملأ الاستثمارات الرسمية بنفس عدم الدقة هذا مما اثار كثيراً من الالتباس .

وفي الحرب كان بارشين يشعر بنفسه متحرراً ولا يحس خطر الموت . كان قلبه يطفح بأحاسيس الحياة وذهنه مشغولاً بالخيال ، فكانت هذه الخاصية لديه اشبه بساتر من النيران ضد مخاوف الخطر . وكان الموت لا يجد له مكاناً في هذا الكيان القوي المترع بالسعادة .

جرح أربع مرات . أربع مرات اقتحم الصلب جسده فلم يستطع أن يستقر هناك ، فعاد البحار الى الحياة أربع مرات . ولذلك آمن بارشين بأنه سيبقى على قيد الحياة

حتى نهاية الحرب وسبشهد يوم انتصارنا .
كان الموجه السياسي فيلشنكو ينظر الآن الى بارشين المتكور في رقده من البرد ، وان ابتسم وجهه لحلم مجهول يراوده .

وقال الموجه السياسي بصوت مسموع :

— كم أشفق عليكم جميعاً ايها الشياطين ! حسناً .
اذا هلكنا فسيولد آخرون ليسوا بأسوأ منا . المهم ان يكون هناك وطن ، ارض حبيبة ليولد عليها البشر . . .

وتصور فيلشنكو الوطن كحقل ينمو فيه البشر ، الأشبه بأزهار مختلفة الالوان ، وليس بينهم زهرة واحدة تشبه الاخرى تمام الشبه . ولذلك لم يستطع ان يفهم الموت أو يسلم به . فالموت يقضى على ما ظهر الى الوجود مرة ، ولم يكن له مثيل ، ولن يتكرر ابداً . ولا يمكن للأسى على الشهيد ان يكون سلوى وعزاء . ولهذا كان فيلشنكو يقف هنا . من اجل ان يوقف الموت ، ولكي لا يكابد الناس احزاناً لا عزاء لها . ولم يكن يدرى بعد ، ولم يجرب كيف ينبغي ان يلقي الموت هو نفسه ويعانيه ، كيف ينبغي ان يموت بحيث تخور قوى الموت بعد لقائه . . .

تلقت الموجه السياسي حوله . كانت ثمة سيارة تندفع نحو الجسر الترابي ، الى مواقعهم . وفي مكان بعيد اطلقت بطارية للعدو نيرانها دفعة واحدة ، وردت عليها مدفعيتنا من سيفاستوبول . لقد بدأ يوم العمل في الحرب . واضاءت الشمس من قمم التبات ، وانساب ضياؤها الرقيق ببطء على الاعشاب والخمائل والمدينة والبحر ، لكي تواصل الحياة سيرها . لقد آن الأوان لايقاظ الرجال .

نهض البحارة وهم يتأوهون وينفخون ويدمدمون بكلمات مختلفة ، وراحوا ينظفون ملابسهم مما علق بها من اوساخ واعشاب .

وأصدر فيلتشنكو أمره :

— وزع السلاح والذخيرة على الافراد !
وزع البحارة الاسلحة التي وصلت اليهم ليلاً . البنادق والذخيرة والقنابل اليدوية والزجاجات الحارقة وثبتوها في اماكنها على أجسادهم . وأبقى البعض على بنادقه القديمة اذ اعتادها . سحب تسيبولكو جانبا مدفع رشاش جديداً وجلس ليضبطه . ووصل مفوض الكتبية الأول لوكيانوف بالسيارة . واصطف البحارة . فحياهم المفوض :

— مرحباً يا رفاق !

ورد عليه البحارة التحية . وتفرس لوكيانوف في وجوههم ثم صمت .

وبعد قليل قال :

— التعزيزات ستأتى فيما بعد . لقد وصلوا المحطة ليلاً وهم الآن يتسلحون . انتم الآن فصائل الطليعة الضاربة . ومن خلفكم خط مشاتنا . نتوقع ان يشن العدو هجوماً بالدبابات . فهل تستطيعون صدّه يا رفاق ؟ هل ستتمكنون من منع العدو من الوصول إلى سيفاستوبول ؟

فأجاب بارشين :

— كيفما كان ايها الرفيق المفوض الأول !

رمى المفوض بارشين بنظرة صارمة ، لكنه استشف وراء كلمات البحار المازحة عزماً جديداً فعدل عن توبيخه . وقال المفوض :

— ينبغي صد العدو وسحقه ! سيفاستوبول خلفنا ، وامامنا وطننا الكبير كله ، روسيا الخالدة . والعدو مثل دودة الشعر يتغلغل فى عمق ارضنا ، التي لا حياة لنا بدونها . فلنحصد العدو هنا بالنار ! ولنقاتل كما قاتل الروس من سالف العصور . حتى آخر رجل ، وآخر رجل حتى آخر قطرة دم ، حتى آخر نفس !

ثم تحدث المفوض مع الموجه السياسى فيلتشنكو على حدة فأخبره بالمعلومات الضرورية وبتعليمات القيادة ، ثم عرض على البحارة ان يأكلوا جيداً ويشبعوا لفترة طويلة . — الأكل مسألة هامة بالنسبة للجندى ! — قال المفوض لوكيانوف مودعاً ، ورحل حاملاً معه بندقيتين قديمتين تم استبدالهما .

وانكب البحارة على خبز القمح والسجق والمعلبات . وقال تسيبولكو معرباً عن رأيه :

— بعد أكلة كهذه يحسن حرث الأرض ! تستطيع حرث الأراضي البكر بسهولة دون ان تتعب . فقال أوديتسوف :

— ينقصنا حساء الكرنب ، ولحم بقر ساخن . وقال بارشين آسفاً :

— حبذا لو مؤنا القلب بالوقود . . بقليل من الفودكا . فقال كراسنوسلسكى مؤنباً بارشين :

— دعك من هذا ، لسنا مقبلين على عرس . فضحك بارشين وقال :

— يا سلام ! انه يرعانى . طيب ، الخمرة لم تأخذ اجازة مفتوحة ، فبعد الحرب يا فانيا سأمرح فى عرسك ،

وعندئذ سأجرع من فم الزجاجة !

فقال كراسنوسلسكى موضحا :

— عندنا فى الأورال لا يشربون من الكؤوس ولا من
فم الزجاجات . عندنا يجرعون من الجرادل ، لا يشربون
من الاوعية النافهة . . .

فقال بارشين موافقا على الفور :

— سأسكن الاورال الى الأبد .

وبعد الافطار قال فيلتشنكو لأصدقائه :

— ايها الرفاق . لقد كشفت استخباراتنا للقيادة خطة
العدو . اليوم سيهاجم الالمان سيفاستوبول . وعلينا اليوم
ان نثبت ما هو معنى حياتنا ، وسنرى العدو اليوم اننا رجال
ملهمون ، ملهمون بلبين وستالين ، اما اعداؤنا فهم مجرد
جلود بشر خاوية ، محشوة بالخوف من الطاغية هتلر ! —
وهتف نيكولاى فيلتشنكو بحماس وهو يسطع قوة — سوف
نسحقهم ، سوف نطحن حثالة الطاغية !

فصاح بارشين :

— تمام ، سنطحن الطاغية !

واصاخ فيلتشنكو السمع ثم أمر :

— استعد ! الى المواقع !

وشغل مشاة البحرية مواقعهم على منحدر الطريق فى
خنادق حفرتها الوحدة التى عسكرت هنا من قبل .
كان المكان خاويا فى الناحية الاخرى من الطريق ،
فى حقل الشيع وعلى سفح التبة ، حيث عشش الألمان .
ولكن من مكان بعيد تناهى حفيف منتظم لا يكاد يسمع ،
وكانما سار على الرمل آلاف الاطفال بأقدام صغيرة .

وسأل تسيبولكو مخاطبا فيلتشنكو :

— نيكولاى ، ما هذا ؟

فأجاب فيلتشنكو :

— يبدو ان الفاشست اخترعوا مصيبة جديدة اخرى . .

سنرى ! حيلة من الحيل ، يريدون بها ان يخيفونا أو يخدعونا .

اقترب الحفيف ، وكان قادما من ناحية التبة ، غير

ان سفوحها وحقل الشيع المتصل بأسفلها ظلت خاوية كما

كانت .

وقال تسيبولكو :

— ربما أصبح الفاشست غير منظورين ! ربما اخترعوا

مادة يدهن بها الشخص فيختفى من مجال الرؤية !

فوبخه فيلتشنكو بحدة :

— اذن ارقد فى الخندق بسرعة وموت رعباً !

فقال تسيبولكو :

— هذا مجرد كلام . ظننت انها ربما تكون آلة

جديدة . . . الآلات لا ذنب لها . . انها علم !

فأعرب بارشين عن رأيه قائلا :

— فليكونوا منظورين او غير منظورين ، ينبغي ان

نسحقهم سحقا على السواء .

وقال كراسنوسلسكى :

— لا يصح ان نموت دون مقابل ! لا يجوز !

فأمره فيلتشنكو :

— صه ! اسكت !

وحدج فى الأمام . كان الغبار يثور على سفح التبة

المعادية ، يمينا ويسارا فى منتصف المسافة تقريبا بين القاعدة

والقمة . كان ثمة شيء يتحرك من الجانب الآخر للتل ،
من خلف كتفى التبة .

وقف البحارة بطول قاماتهم في الخنادق متسمرين وهم
يتطلعون عبر حافة المنحدر وعبر الطريق الى تلك الناحية .
وضحك بارشين وقال :

— انها غنم ! انه قطع غنم جاء إلينا من الحصار ...
فرد فيلتشنكو :

— انها غنم ، ولكنها لا تأتى إلينا بدون غرض .
فقال أوديتسوف :

— ليس بدون غرض . سنأكل كباباً ساخناً .

— صه ! — أمر الموجه السياس — انتباه ! الرفيق
تسيبولكو ، الى الرشاش !

فرد تسيبولكو :

— تمام الى الرشاش ايها الرفيق الموجه .

— الجميع الى البنادق !

فرد البحارة :

— تمام الى البنادق .

انحدرت الغنم في تيارين ملتفين حول التبة وراحت تهبط
منها وتتحد في حقل الشبح في تيار واحد . واتجه القطيع
مباشرة نحو طريق دوفانكوى . وأصبح ثغاء الغنم المذعورة
مسموعاً الآن ، اذ يبدو ان شيئاً كان يقلقها فأسرعت تعدو
بخطوات قصيرة بقوائمها النحيلة . وفجأة توقفت احدى الشياه
والتفت الى الخلف ، فاصطدمت بها الشياه الخلفية وتجمعت
فحدث ازدحام ، ومن زحمة الشياه نهض شخص في معطف
اخضر رمادى ولوح بسلاحه للحيوانات .

«شاة ذكية !» — قال فيلتشنكو في نفسه عن تلك الشاة
التي توقفت ، وقرر ان يتحرك .

— تسيبولكو ، وجه الرشاش الى الاوغاد في وسط بهائمنا !
فرد تسيبولكو :

— أراهم !

ورأى فيلتشنكو الآن وسط الشياه ستة ألمان آخرين
يركضون محنيين في زحمة قطع الغنم .

— تسيبولكو !

— تمام ، أرى الهدف بوضوح ! — اجاب جندى

الرشاش وهو يرتعش من نفاد الصبر امام الرشاش .
وصاح الموجه السياسى :

— تسيبولكو ! لا تقتل الغنم عبثاً ، انها أصيلة .
اضرب !

وانطلق الرشاش . وغرد تيار الرصاص في الهواء . وسقط
عدوان على الفور ، وقفزت الشياه الخلفية برشاقة وهدوء من
فوق جثث الساقطين .

وصلت الغنم الى حافة الجهة الاخرى من سفح الجسر
تقريباً . واصبح من السهل الآن تمييز الألمان وسط كتلة
الغنم الكثيفة . كانوا حوالى خمسين شخصاً . وراح بعضهم
يطلق نيران رشاشاتهم على جسر الطريق وهم يركضون ،
بينما اندفع الآخرون الى الامام في صمت .

وأمر فيلتشنكو كراسنوسلسكى بأن يأخذ مكان معاون
جندى الرشاش ، بينما فتح هو وبارشين وأوديتسوف ناراً دقيقة
مسددة من البنادق على حملة الرشاشات الالمان .

كان مدفع تسيبولكو الرشاش يعمل بضراوة وكفاءة مثل

قلب صاحبه وعقله . وكان نصف الاعداء قد سقطوا صرعى على الأرض ، ولكن حوالى عشرين المانيا أو أكثر ظلوا احياء . وتمكنوا من بلوغ الجانب المقابل من منحدر الجسر الترابى وانبطحوا هناك . ولم يعد بالامكان اصابتهم لا بالمدفع الرشاش ولا بالبندق . وعلاوة على ذلك تدفقت الغنم واصبحت تسير الآن فوق رؤوس البحارة مباشرة وهى ترتعش وتجأر بالشكوى كالاطفال من هذه الحياة الرهيبة وسط البشر .

وومض خاطر فى ذهن بارشين : « اوه ، الالمان يسوقون الى سيفاستوبول طعاماً جيداً ! »

وصاح فيلشنكو :

— تسبولكو ! افصح لنا سكة الى الامام ، عبر الطريق ! اضرب على الغنم !

راح تسبولكو يحصد الغنم التى عبرت جسر الطريق نحو وحدتهم . وسقطت الشياه الامامية القرية ، بينما ادركت الشياه الراكضة خلفها أين الخلاص فاندفعت يمينا ويسارا بعيدا عن الناس .

وصاح فيلشنكو :

— الجميع الى القنابل اليدوية ! الى الامام ! واندفع بقنبلة يدوية عبر الطريق وألقى بها على الألمان . وكانت الشياه المذعورة ما تزال تركض عبر الالمان نائرة بعرها فراح الالمان يحصدونها بالسيوف ليتخلصوا من هذه الشياطين التى اتخذوا منها ساترا لهم .

اعمل البحارة قنابلهم بسرعة ، فخلطوا دماء الغنم وعظامها بدماء اعدائهم وعظامهم .

وعاد البحارة الى مواقعهم .

وسأل تسبولكو مخاطبا فيلشنكو :

— كيف الحال ؟

فقال الموجه السياسى :

— بسيطة . حاربنا أكثر ضد الغنم .

وزفر بارشين :

— وهل هذا قتال ! هذا لا شيء .

وسمح لهم فيلشنكو بالتدخين :

— دخنوا قليلا .

وجمع كراسنوسلسكى الغنم المقتولة من السفح ووضعها فى مكان واحد لتنتقل ليلا الى المدينة لاطعام الناس . ومن خلف التبة بدأت مدفعية العدو تطلق نيرانها على الطريق وعلى الخطوط الواقعة خلف البحارة . كانت المدافع تضرب على مهل ، وعلى فترات متباعدة ، ولكن بقصف ملح ، ليس بهدف الاصابة بقدر ما هو تحديد خط الدفاع السوفيتى . ويبدو ان الالمان كانوا يتوقعون رداً ، لأن مدافعهم كانت تصمت بين الحين والحين ، وكأنها تصغى وتفكر . ولكن الدفاع لا يرد . فيعاود الالمان قصفهم المتباعد وكأنما يستجوبون محادثهم .

جاء المفوض لوكيانوف ركضاً مع وثبات قصيرة بتعزيزات — حوالى نصف سرية مشاة بحرية — وضعها على جناحى وحدة فيلشنكو ، تاركاً له زمام المبادرة فى هذا القطاع . وبعد أن استمع لوكيانوف الى بلاغ الموجه السياسى عن معركتهم الصغيرة مع الألمان وسط الغنم أفضى باستتاجه الخاص :

— حسنا . ذلك كان استطلاع قوة من جانبهم . أما

المعركة فستأني فيما بعد .
وانصرف المفوض . وبعد قليل تحولت المدفعية الالمانية الى القصف القتالي العاصف . وأدرك فيلتشنكو غرضهم فقال :
— يخلون الطريق امامهم . اذن ستهجم الدبابات قريبا .
وسحب وحدته الى الملجأ المسقوف بطبقة واحدة فقط
من الجذوع الرفيعة ، ولكن الجو هنا كان اهدأ مع ذلك .
وبقى فيلتشنكو نفسه عند مدخل الملجأ لكي ينظر عبر الجسر
الترابي ويراقب ظهور الدبابات .
حرثت قذائف المدافع الطريق وجوانبه حتى
الاساس وتشوهت جثث الغنم والألمان بعد الممات وكانت
التربة تغطيها تارة فتدفعها ، وتارة أخرى تعريها .
انبعث الغبار من السطح الأيسر للتبة عند قاعدتها حيث
كانت تتصل بحقل شيعي سبخي . ولم تخف وطأة نيران
المدفعية . وخرج جسم الدبابة الامامية الداكن الى حقل الشيع ،
وتبعته دبابات أخرى . وتقدمت تحت سائر نيران المدفعية .
اختبأ فيلتشنكو في الملجأ اثر انفجار قريب اهل عليه
السحاب الأسود والتربة . وقال في نفسه : «ينبغي أن اظل
سليما . ستصمت المدافع الآن» .
وعندما سكنت المدافع اعاد فيلتشنكو وحدته الى موقعها .
واقتربت الدبابات من الجسر . وكان عددها حتى الآن سبعة ،
أى حوالى دبابة ونصف لكل مقاتل .
وصاح فيلتشنكو ناحية تسيبولكو :
— فامبيا ! الرشاش الى مزغل الرؤية في الدبابات
الأمامية ! كراسنوسلسكى ، بارشين — الزجاجات والقنابل !
هيا ! اضرب !

واطلق تسيبولكو دفعة اولى ، وثانية ، ولكن الدبابة
واصلت تقدمها نحو البحارة بكل عنفها وجبروتها . وزحف
بارشين وكراسنوسلسكى عبر الجسر الترابي الى الناحية الاخرى
من الطريق .
وصرخ فيلتشنكو : — سدد جيدا يا رشاشجي !
وأحكم تسيبولكو التسديد وهو يتلمس مزغل الرؤية بسيل
الطلقات ، بكل قوة الاحساس في يده التي استطالت ،
وانشب رصاصه في مزغل الدبابة . واندفعت الدبابة مستديرة
بحدة حول نفسها نصف دائرة على جزير واحد ، ثم خمدت
في موضعها ، مستجيبة لحركة سائقها المتشنجة اذ عاجله الموت .
ورفع كراسنوسلسكى هامته للحظة بجوار الدبابة وقذف نحوها
زجاجة حارقة . وارتفع عمود قطراني اسود من جسم الدبابة ،
ثم ظهرت النار من قلب الدخان واشتعلت لها عالبا حاراً .
وحول تسيبولكو نيران رشاشه الى الدبابات الاخرى . اطلق
في البداية دفعات قصيرة محكمة متلمسة ، ثم أنشب في
الهدف سילاً طويلاً لاسعاً مميتاً . وكان كراسنوسلسكى وبارشين
يقاتلان وراء جسر الطريق . كانا يختبئان في حفر القذائف ،
وخلف كتل التربة المنسوفة ، ووراء جثث الشياه النافقة ،
وينهضان للحظة ، فيقذفان الزجاجات والقنابل على الآلات
المزمجرة .
وبقى فيلتشنكو وأودينتسوف خلف الجسر ينتظران ساعتها .
وعلى الفور تصاعد الدخان الكثيف من دبابتين اخريين ثم
لفهما لهيب ساطع . وبقيت على قيد الحياة اربع دبابات .
ولكن الألمان ييخلون بالخسائر ، ولا يحبون انفاق ما لديهم
حتى النهاية .

توقفت الدبابات الأربع واستدارت في مكانها ، كاشفة المشاة خلفها .
وصاح فيلشنكو :

— فاسيا ! هيا ! على الافراد ، اضرب !
وأنشبت تسبولكو تيار النيران في مشاة العدو الذين ارتموا فوراً على الأرض .

وانطلق فيلشنكو وأوديتسوف عبر الجسر ، ولكن كراسنوسلسكى وبارشين سبقاهما . كانا قد اقتربا زحفاً على البطون من مشاة العدو المنبطحين ، ونهضا قليلاً ، وقذفاهم بأولى القنابل اليدوية .

وانسحبت الدبابات الأربع السليمة في صمت ولم تطلق نيرانها لأن المشاة الألمان والبحارة الروس اختلطوا في ميدان القتال وقد يؤدي إطلاق النار إلى إصابة الألمان .

وألقى فيلشنكو وأوديتسوف بالقنابل اليدوية على أجساد المشاة الداكنة . ولم يمكن رشاش تسبولكو الاعداء من رفع رؤوسهم . وعندما كانوا ينهضون قليلاً ، يصليهم تسبولكو نيراناً محكمة حاصدة . وإذا تحركوا أو زحفوا تحول تسبولكو إلى «الرِف» ، أى إلى غرز الرصاص في الأرض بزاوية خلال اجساد الأعداء . ولكن جندى الرشاش كان يواجه مهمة صعبة ، إذ كان عليه ألا يصيب رفاقه الذين اقتربوا من العدو . غير أن الألمان أيضاً كانوا ذوي فطنة ، إذ ادركوا أنه

من الأفضل لهم أن ينسحبوا مؤقتاً من أن يموتوا معجلاً . فقفز حوالى ثلاثين شخصاً من الأرض معاً وهم يعولون وركضوا في أثر الدبابات . وقذفهم فيلشنكو وأوديتسوف بالقنابل ، ثم أطلقا عليهم نيران بنديتيهما ، فسقط حوالى عشرة اشخاص

على الأرض من جديد . اما بقية المشاة — وكانوا حوالى الخمسين — فلم يعد بمقدورهم ان ينهضوا أبداً .

واطلق تسبولكو آخر دفعة طويلة على الراكضين فأردى منهم سبعة آخرين بينما استمر الرمي عليهم من الجناحين . عاد البحارة إلى مواقعهم في الجسر الترابى ، والتي أصبحت مأهولة ومألوفة كالمنزل . عادوا مرهقين مثلما بعد عمل شاق ، ونعسوا على الفور مستغلين الهدوء الذى ساد الهواء والأرض . وبقي فيلشنكو وحده يقظاً للحراسة .

وبعد نصف ساعة مرقت الطائرات الألمانية المنقضة فوق حقل الشيح والطريق المسفلت على ارتفاع منخفض . وراحت تطلق نيران رشاشاتها على الأرض المشخنة بالجراح وتقصفها بالقنابل في الوقت نفسه . ولم يستيقظ البحارة النائمون في الخندق ، ولم يوقظهم فيلشنكو الساهر ، فما زال اليوم طويلاً ، وما زال امامهم قتال ، فليستريحوا الآن . حل الهدوء مرة أخرى بعد رحيل الطائرات . وفى هذا السكون صاح شخص منادياً فيلشنكو باسمه .

كان طاهى البحرية روبتسوف يركض بحذاء الجسر الترابى ، حاملاً في يده اليمنى بجهد وعاء كبيراً مطلقاً بلون الحرب الكالح . . ترموس الميدان الانجليزى .

وقال الطاهى البحرى باقتضاب ولباقة :
— جئت بالطعام ! أسمح بتضييف الجنود ايها الرفيق الموجه ؟

فقال فيلشنكو بلهجة مهمة :
— اسمح لك .
فانحنى الطاهى قائلاً :

— اشكرك . أين تأمر بتجهيز المائدة للكباب الساخن ،
الملتهب ؟ اللحم من عندكم !
فسأله فيلتشكو مندهشا :
— وكيف استطعت اعداد الكباب بهذه السرعة ؟
فأجاب الطاهي موضحا :
— استخدمت يدي الماهرة ايها الرفيق الموجه فاستطعت !
انتم ايضا تلاحقون باعداد لحم الغنم ، ونصف الجبهة الآن
يعرف اخباركم . الناس يعرفون حتى عدد الشياه التي اصبتموها .
بالفعل !

فضحك فيلتشكو قائلا :
— ومن اين عرف الناس ذلك اذا كنا نحن لا نعرف ؟
فقال الطاهي :
— الجبهة مثل شارع القرية . . ما لا حاجة الى معرفته
تجد الجميع يعرفونه ، وما ينبغي ان يُعرف تجدهم نسوه !
وعشر روبرتسوف على مكان مستو بجوار الجسر مباشرة ،
ففرش مفرشا أبيض ، ورتب ادوات الطعام عليه ، ووضع
الاطباق— وكان كل ذلك في درج خاص في الترموس—
ثم اخرج من الترموس وعاء من الالومينيوم تصاعدت منه روائح
اللحم الشهية .

وكان البحارة النائمون اثناء الغارة الجوية قد استيقظوا ،
فخرجوا من الملبأ الى العراء وقد جذبتهم رائحة اللحم .
وسأل فيلتشكو الطاهي بصرامة :
— ما هذا المطعم الذي افتتحته اثناء الحرب ؟
فاجاب الطاهي موضحا :
— المطعم في الجبهة مفيد ايها الرفيق الموجه . انه

لا يعرقل النصر ، كلا ، ابداً ! أما النعش فلا داعي له ،
لذلك لم أحضره . انما المطعم شيء عظيم ايها الرفيق
الموجه . . انه تذكرة للجنود بزمان السلم !
تفحص البحارة مطعم روبرتسوف الميداني باهتمام ، ثم
تطلعوا في وقت واحد الى الطاهي وقهقهوا بملء حناجرهم
الشابة المريحة . وقال بارشين محذراً روبرتسوف :
— سيصيبونك في الوعاء على رأسك طالما تركض في
الخطوط الأمامية ايها الطاهي !

فاستبعد الطاهي هذه التوقعات :
— كلا ، أنا يقظ ، سأبقى حيا . انا ابذل جهدي
من أجلكم ، لكي اغذى اجسادكم !
فقال تسيبولكو :
— كذاب ! دعك من الكذب !
فاعترف الطاهي :
— ولكني أكذب قليلا يا فاسيا ! حسناً ، انا ايضا
أريد ان احصل على شيء اعلقه في صدري !
فسأل كراسنوسلسكي بصوت متحشرج :
— وما الذي تريد ان تعلقه في صدرك ؟
فقال الطاهي :

— حسناً ، ليكن وساماً ، لتكون ميدالية ، فانا اطعم
الجنود تحت النيران ، فهل الطاهي أقل من الممرضة ؟
فقال اوديتسوف :
— يا له من طاه عظيم ! انه بطل ووصولي معاً ،
يمكن منحه ميدالية أو صفة ! وله الحق في الاثنتين دفعة
واحدة !

فلم يطلق تسيولكو صبرا وقال : — هات الأكل !
 فدعاهم الطاهى :
 — تفضلوا . افواهكم كانت مشغولة بالكلمات ، فلا
 مكان فيها للكباب .
 وجلست وحدة فيلتشنكو كلها على العشب حول المفروش ،
 وأمر الطاهى بالحراسة والنظر الى الامام لمراقبة العدو .
 وبعد ان فرغ البحارة من الأكل قرروا ان الطاهى
 «يستطيع» . وكانت هذه الكلمة تعنى فى لغتهم الودية أعلى
 درجات التقدير لعمل ما . وقد استخدموها الآن للتعبير عن
 تقديرهم لعمل الطاهى فى اعداد الكباب .
 صاح بارشين فى رويسوف :
 — ايها الطاهى ، انك تستطيع !
 فرد الطاهى بلامبالاة :
 — أعرف . انا أيضا من العاملين المبدعين !
 فقال اودينتسوف :
 — سيكون لهذا الطاهى شأو بعيد . فلديه الموهبة والوقاحة .
 وبعد الغداء اصطف البحارة . وأمرهم فيلتشنكو :
 — انتباه ! الى الطاهى انظر !
 كان ذلك تعبيرا حرييا عن الشكر على الكباب ،
 فانصرف الطاهى الى الخطوط الخلفية راضيا تماما عن عمله
 البطولى فى اطعام الجنود .
 وبقي البحارة وحدهم . وكانت الساعة قد تجاوزت
 منتصف النهار . وعين فيلتشنكو اودينتسوف حارساً ، وأمر بقية
 جنوده بالراحة . واستلقى الجنود على سفح الجسر ليتدفأوا قليلا
 فى شمس الربيع .

وقال بارشين محنقا من عادته فى الشرب بعد الأكل :
 — يا للشيطان ، لقد عطشت ! ليس هناك أفضل
 من القتال ، ففيه لا ترغب فى شيء ! وما أن تبدأ حياة
 السلم حتى تجد نفسك دائما راغبا فى شيء ما . . . مرة فى
 الأكل ، ومرة فى الشرب ، ومرة فى النوم ، ومرة تشعر بالملل ،
 ومرة . . .
 وعدد بارشين بالتفصيل ما يحتاج اليه الشخص فى حياة
 السلم ، حتى ان هذا الشخص لا يجد متسعا للعيش لأنه
 مشغول دائما بتلبية احتياجاته . واتضح ان المقاتل هو وحده
 الذى يحيا حياة حرة سعيدة عندما يخوض المعركة الضارية . .
 فحينذاك لا يحتاج الى الشرب أو الأكل ، كل ما يحتاجه
 ان يبقى حياً ، وتكفيه هذه السعادة وحدها . . .
 وقال اودينتسوف من على الجسر :
 — أرى الدبابات !
 فأصدر فيلتشنكو أوامره :
 — الى اماكنكم ! استقبلوا الدبابات بالنار !
 وخرج الى الموقع وراح يعد الدبابات التى خرجت من
 وراء التبة فى صبر . كانت خمس عشرة دبابة ، ثلاث
 دبابات لكل جندي ، وكانت فى المرة الماضية دبابة ونصف .
 واذن فقد ضاعف الألمان الجرعة . وعلى الفور بدأ قصف
 مدفعى سريع . راح الألمان يطلقون نيراناً غير مركزة لصرف
 انتباه الروس وتشيتت قواهم على جبهة واسعة بدفع الدبابات
 لاخترق الدفاع بغتة فى مكان واحد .
 وقال تسيولكو بعد ان أحصى الدبابات :
 — انهم يحترمونا . . انظر كم دبابة حشدوا ضدى

وحدى . اقسم خمس عشرة على خمسة ثم اضرب في قوة
ألف حصان ! أنا راضي !
وأطرق اوديتسوف . فضجيج الدبابات المنطلقة المقرب ،
ونيران المدفعية ، والاصرار القلق الصاحب المبالغ فيه من
جانب العدو . . . كل ذلك بدا له غير جدي . . . كل ذلك ،
رغم خطورته ، كان اشبه بتصرف شخص يهاجم خوفاً ،
ويحاول النجاة من الهلاك بالهرولة والتكشير عن الأنياب .
تقدمت الدبابات الجبارة في خط مباشر . ربما كان
الالمان يريدون الآن الوصول الى طريق دوفانكوى ، ثم يندفعون
عبر الطريق الى سيفاستوبول مباشرة ، فهذه الطريقة تبدو اكثر
استعاضية .

اصاخ تسيبولكو السمع عبر صرير الجنازير وقرقعة الاجسام
الحديدية الى صوت محركات الديزل المنشد السريع الايقاع
وقال لنفسه : « اوه ، كل هذا ضدى ! مرحبا يا حضرة
المهندس رودولف ديزل ! انا لست غاضبا منك ، انا احترمك
لاختراعتك العظيم للمحرك . . انا تسيبولكو ، البحار البسيط
والانسان العظيم ! »

وقال فيلتشنكو مخاطبا الجميع :
— يا رفاق !
ورغم انه تحدث بصوت خافت ، وكان الصخب شديدا ،
فقد سمعه الجميع .
— يا رفاق ، اريد أن اقول لكم ان المعركة ستكون
صعبة . اريد ان اقول لكم اننا لا نستطيع ان ننسحب .
سوف نقاتل هنا حتى العظام . . .
فقال بارشين : — وبالعظام ايضا يمكن القتال . انتزع

من الهيكل العظمى واضرب . ألم يرد المفوض الرفيق بوليكاروف
ان يقاتل بذراعه المبتورة ! . . .
وقال فيلتشنكو :

— يا رفاق ! اقول لكم يا اصدقائي ان قلبي يشعر
الآن بما تشعرون به ، ولهذا فأنتم تفهموننى جيدا . اننى
أمركم ان تصمدوا على هذه الأرض ولا تموتوا حتى نقاتل
طويلا ، والى ان نسحق هنا دبابات العدو وعظامه !
واقرب تسيبولكو من فيلتشنكو وقبله . ثم تبادلوا القبل
جميعا وكل منهم يحدق فى وجه الآخر ليحفظ ذكراه الخالدة .
ويقلب مطمئن قرير تفقد كل بحار منهم هندامه واستعد
للقتال وشغل موقعه . وشملت نفوسهم الآن السكينة والراحة .
وبارك كل منهم الآخر وهم يقدمون على اعظم وأرهب وأغمض
ما فى الحياة ، على ما يدمرها وما يخلقها ، على الموت
والنصر . . وفارقهم الخوف لأن ضمير كل منهم ازاء رفيقه
الذى يواجه نفس المصير قهر فيه الخوف . وامتلات ابدانهم
قوة فأحسوا بأنفسهم قادرين على انجاز عمل كبير ، وادركوا
انهم لم يولدوا لكي ينفقوا حياتهم ويدمروها فى التمتع الفارغ
بها ، بل لكي يعيدوها ثانية للحق وللأرض وللشعب . . ليعطوا
اكثر مما اخذوا ساعة الميلاد ، كيما يتضاعف مغزى الوجود
البشرى . فإذا لم يتمكنوا الآن من قهر العدو ، وإذا ما
استشهدوا دون ان ينتصروا عليه ، فلن يتغير فى الدنيا شيء
بعدهم ، وسيكون الموت مصير الشعب والبشرية . وراحوا
يتطلعون الى الدبابات الزاحفة عليهم ويتوقون ان تسرع فى
زحفها ، ولم يكن فى وسع شيء ان يشفى غليلهم سوى
القتال الضارى .

خرج مشاة العدو من وراء الدبابات مهاجمين جناحي وحدة فيلتشنكو ، فاستقبلتهم نيران بحارة فيلتشنكو وبحارة نصف السرية الذين جاء بهم لوكيانوف . واذن فلدى جناحي فيلتشنكو همومهما ولا يمكن التعويل على مساعدة منهما . ثم ان هذين الجناحين ، الأيمن والأيسر ، لم يكن بهما سوى ثلاثين جنديا في كل منهما بينما كان العدو يهاجم بقوة نصف كتيبة على كل جناح .

جرت هناك في الجناحين رماية نارية سريعة ، اما في الوسط ، في خط تقدم الدبابات ، فقد أمر فيلتشنكو بالكف عن اطلاق النار حتى لا يكشف للعدو عن قوتهم القليلة . وكان على فاسيلي تسيبولكو ان يبدأ المعركة ضد الدبابات . وأمره فيلتشنكو أن ينتظر حتى تقترب الدبابات الى مسافة مائة متر .

وعندما اقتربت الدبابة الامامية اندفعت واثبة الى الامام ، فضاغت جميع الدبابات خلفها من سرعتها بحدة . عند ذلك بدأ تسيبولكو المعركة . كان قد ضبط المدفع الرشاش من مدة طويلة وهو يتابع حركة الدبابة بجهاز التسديد . والآن فتح نيران الرشاش . كانت يد تسيبولكو المدربة وقلبه الحساس يعملان بدقة ، فأصاب أول دفعة رصاص مزغل الدبابة الامامية ، فانحرفت الدبابة جانبا وتوقفت في ذروة اندفاعها بين يدي سائقها الصريع . بيد ان الدبابة الثانية اندفعت بضراوة جسورة الى جسر الطريق ، مقتحمة وحدة فيلتشنكو اقتحاما مباشرا ، في الوجه تقريبا . وفي لحظة خاطفة سبقت تفكيره هب تسيبولكو ، مكيفا جسمه كله ، وألقى بحزمة القنابل اليدوية تحت هذه الدبابة .

نسى تسيبولكو نفسه ورفاقه ، ودوى انفجار قريب أصم آذان مجموعة المقاتلين ، وطرحتهم موجة الانفجار أرضا . وجمدت الدبابة في مكانها ، ثم بدأت تتزلزل ببطء ، تحت ثقل وزنها ، على الجانب الآخر للجسر الترابي ، الذي بقي نصف جسم الدبابة معلقا فوقه . ونهض تسيبولكو ، وضرب ذراعه اليسرى على حجر ليترد منها الألم ، ولكن الألم لم يخفف وظل يعذبه . . . كان دم كثيف غزير يسيل من عضلاتها الممزقة ويخرج منها عبر الكف . افضل شيء لو تقطع هذه الذراع تماما ، لكي لا تعيقه ، ولكن لم يكن هناك ما تقطع به ولا وقت للانشغال بذلك .

ظهرت دبابتان على الطريق دفعة واحدة . ونسى تسيبولكو اصابة ذراعه واجبرها على العمل وكأنها سليمة . وانكب على الرشاش ثانية وراح يطلقه على الدبابات مباشرة محاولا ان يصيبها في فتحات الدروع . ولكن الرشاش صمت ، فلم يعد هناك ما يتزود به بعد انتهاء الشريط الأخير . عندئذ لم يتح تسيبولكو للدبابات فرصة ، فانقض بطول قامته على الدبابة الاقرب وألقى بحزمة قنابل تحت جزيورها الذي كان ينهش الأرض في سيره . ودوى انفجار حاد مولول ، وراحت النار تمزق الصلب ، وصمت الدبابة المحطمة الى الأبد .

لم يسمع تسيبولكو صوت الرصاص المنطلق من رشاش هذه الدبابة . لكنه احس الآن وكأنما استقرت في جسده مخلوقات صغيرة غريبة ، راحت تنهشه من الداخل . كانت هذه المخلوقات في بطنه وصدره وزوره . وأدرك انه مصاب كله ، واحس بحياته تذوب وتلاشي ، وبالبرودة والخواء يسريان في قلبه ، فرقد على كتل التربة وتكور ، كما كان ينام في

طفولته مع امه تحت الغطاء ليتدفأ . ولم يمكن ايفان كراسنوسلسكى الدبابة الثانية من التقدم نحو سيفاستوبول . ركض نحوها قاطعا عليها الطريق ، والقى عليها ثلاث زجاجات حارقة ، الواحدة تلو الأخرى . واشتعلت الدبابة ، وقطعت مسافة قصيرة قبل ان تتوقف لتحترق تماما . والتفت كراسنوسلسكى نحو رفاقه . . كانت اربع دبابات اخرى قد أفلتت وراحت تطلق مدافعها ورشاشاتها من الحركة للارهاب . وزحف أوديتسوف وبارشين في المنطقة الواقعة خارج تأثير الضرب . وألقى بارشين وهو راقد زجاجة على الدبابة ، فالتصق السائل الحارق بالدروع واشتعل لها . ومرت قذيفة معولة بجوار رأس كراسنوسلسكى ، فاستشاط المقاتل غيظا من احتمال ان يقتله الفاشست وصرخ في الدبابة بصوت رهيب ، ناسيا ان احدا هناك لن يسمعه ، ثم القى بزجاجة على جسد الدبابة المميت بحركة حادة محكمة التسديد ، وابهجته نيران الحريق . وبقيت لديه زجاجة حارقة واحدة . وألقى بنفسه في حفرة ، لأن دبابة جديدة اندفعت نحوه متخطية الدبابة المشتعلة . والآن ادرك كراسنوسلسكى شعور الرضا بالتسيّد ، فقد دمر دبابتين ، وبوسعه ان يدمر واحدة اخرى ، وبذلك يقلل من الموت في الدنيا ويخفف عن البشر . وكأنما كان كراسنوسلسكى ، بتدميره للعدو ، يجمع الخيرات ، وكان يدرك جدوى عمله . واندفعت الدبابة الى الامام وهي تنشر النار في الفضاء . . واطئة ، عنيدة ، جبارة .

— قفى يا لثيمة ! — صاح كراسنوسلسكى في الدبابة وغرز في صلبها المقرقع زجاجته اليتيمة .

ولفح اللهب الدبابة . وارتد غطاء البرج مفتحا ، وظهر

هناك وجه العدو مبهم الملامع . وامتنشق كراسنوسلسكى بندقيته ، ولكن العدو كان اسرع منه الى مسدسه السريع الطلقات ، فسقط كراسنوسلسكى على الأرض بقلب مزقه الرصاص . وتطلع الى السماء وهو يلفظ انفاسه الاخيرة ، وأسف على عروسه التي ستبقى يتيمة بدونه لأن احداً لن يحبها كما احبها هو . واغمض عينيه ، المليئين بالدموع ، لكي لا يفتحهما بعد ذلك ابدا . وقذف بارشين الزجاجة في الدبابة السليمة التالية ، التي اندفعت على الطريق مباشرة نحو سيفاستوبول . ولكن اللهب لم يمسك جيدا بها فواصلت الدبابة سيرها وهي تتخلص من الدخان واللهب بفعل سرعتها . عندئذ ركض بارشين في اثرها بقنبلة ، ولكن فيلشنكو وأوديتسوف اصطادا هذه الدبابة قبله . فجرا بالقنابل عجلاتها وجزيرها ، حتى ان المعدن تطاير منها ، فاستدارت الدبابة في مكانها وخمدت . ولكن بارشين لم يعد بوسعه ان يتوقف ، فلقى عليها بالزجاجة لكي يكون موت العدو اكيدا .

كانت الدبابات تشتعل فوق الطريق ، ولكن دبابات جديدة حولت اتجاهها مندفعة عبر حقل الشيع في محاولة للوصول الى منعطف الطريق بالالتفاف حول الدبابات المشتعلة المدمرة . وخشية ان يصابوا بنيران العدو الذي كان يضرب الآن بقذائف الشظايا من الدبابات المقترية ، قفز فيلشنكو وأوديتسوف وبارشين إلى اقرب خندق ومضوا عبره الى الملجأ . وفي عتمة الملجأ تفحص فيلشنكو رفيقه بانتباه ليرى هل اصيبا ، وهل تسرب الخوف الى قلوبهما . كان أوديتسوف وبارشين يلهثان ووجهاهما مغطيان بالسخام والوحل ، ولكن عيونهما اشرقت بضياء القوة والتعطش الى القتال .

وسأل فيلتشنكو مخاطباً بارشين :

— ماذا يا يورا ؟

فأجاب بارشين بصوت أبح :

— لا بأس ! هيا نوقفهم كلهم ، انا لا اخاف فقد

رأيت الموت واعتدته .

راح بارشين وهو لا يدري في اضطرابه ماذا يفعل وكيف

يكبح نفسه ، يمسح بكفه السوداء جدار الملجأ الترابى .

— هيا نسحقهم ايها القائد ! والا فسأذهب وحدى ! . . .

انا لم أحب الشعب ابداً كما احبته الآن ، لأنهم يقتلونهم .

الى أى درجة أوصلونا . . لقد أصبحت وحشاً ! صب فى

فسى البارود من الطلقات وسأفجر بطنى فيهم !

فقال فيلتشنكو وهو يتزع عن كتفه البندقية :

— انت نفسك تعرف انه لم يعد لدينا طلقات .

وكان اوديتسوف يرتجف من الأسى والغضب .

ودمدم بصوت خافت :

— هيا الى الموت ! ليس فى الدنيا الآن ما هو

افضل .

وكانت نيران العدو تدوى قريبة منهم . واحكم فيلتشنكو

فى صمت ربط قبلة الى حزامه ، وترك قبليتين لرفيقه .

وبخلاف هذه القنابل الثلاث لم يعد لديهم اية ذخيرة لملاقاة

العدو . ولذلك كان لا يجوز لهم الآن ان يخطئوا الهدف او

يضرىوا بضعف . كان عليهم الآن ان يسددوا بدقة ويصيبوا

مقتلاً من الضربة الأولى .

لم يأمر فيلتشنكو رفيقه بشئ . وخرج من الملجأ فاختفى

فى هزيم القصف المدفعى للدبابات المندفعة وصرير جنازيرها

وهى تسحق احجار الطريق . وزحف حتى بلغ منعطف الطريق

وسكن هناك للحظة .

وربط كل من اوديتسوف وبارشين قبلة يدوية فى حزامه

على نحو ما فعل فيلتشنكو ، وخرجا الى النيران ، لملاقاة

دبابات العدو . وشاهدوا فيلتشنكو الرابض عند منعطف الطريق

حيث ينبغي أن تظهر الدبابات الملتفة حول الآلات المدمرة ،

واختبأ فى احدى الحفر . كانا يدركان ان اهم شئ بالنسبة

لهما الآن أن يظلا على قيد الحياة ولو بضع دقائق أخرى ،

ومن ثم اخذا يحافظان على حياتهما بحذر وخشية .

وكان فيلتشنكو هو الآخر منفعلاً . كان يخشى ان يكون

قد اخطأ التقدير ، وبدلاً من ان تتجه الدبابات الى الطريق

فستمضى بحذائه من الجانب الآخر . والى ان يركض عبر

الطريق ويصل الى الدبابات يكونون قد حصده بالرشاش

فيموت كحيوان أحرق ذليل ويصبح أضحوكة امام الاعداء .

كان يتعذب وهو يصيح الى ضجيج الآلات المقتربة فى الناحية

الأخرى من جسر الطريق ، ويخشى ان تفلت منه سعادته

الاخيرة هذه . كانت الدبابات تطلق النار الآن اخف من

السابق ، ومن المدافع فقط ، مسددة نيرانها الى خط الدفاع

الاقرب الى سيفاستوبول والواقع خلف البحارة . وبعيداً من

الجناحين تردد طوال الوقت اطلاق النار من البنادق والرشاشات ،

فقد كانت وحدات بحارة اسطول البحر الاسود القليلة العدد

تصد الألمان المندفعين الى الامام .

عبرت الدبابة الأمامية الطريق قبل ان تبلغ المنعطف

وراحت تهبط الجسر الى تلك الناحية التى رابط فيها فيلتشنكو .

يبدو ان قائد الدبابة اراد ان يخترق خط الدفاع عبر الحقل .

وخففت الدبابة الجبارة الثقيلة سرعتها وهي تنحدر بحذر على جانب الجسر الترابي . يبدو ان قائدها لم يكن يرغب في الاندفاع بها كيفما كان واستهلاك اجهزتها الثمينة . وراحت ضلوع جنازير الدبابة تسحق الحشائش الحية البائسة النابتة على جانب المنحدر ، وشاة نافقة وعظاماً جافة لشخص ما من زمن بعيد ، وتضغطها بنفس الدرجة في تراب الأرض الصبور .

رفع فيلتشنكو رأسه . لقد أتى دوره ليصيب هذه الدبابة وليموت هو أيضا . وانقبض قلبه حيناً إلى الحياة المعهودة . ولكن الدبابة قد هيّطت من جانب الجسر فرأى فيلتشنكو بقربه الجسد الحي الحار لمعدبته المدمرة . ما أقل ما ينبغي عمله لتزول وليختفى من على وجه الأرض هذا المعدن الكثيب الذي يسحق ارواح البشر وعظامهم . بحركة واحدة كان يمكن ان يتقرر هنا مصير العالم وماذا يسود : معنى الحياة وسعادتها ام اليأس الابدى والفراق والهلاك .

عند ذاك خفق قلب نيكولاي فيلتشنكو في قوة منطلقة وأعجاب مستعر . كانت سعادته وحياته السامية أمامه ومن حوله ، وهو الآن يعيشها بنهم وشغف ملتصقا بالأرض ، ودموع السعادة تسيل من عينيه ، لان الموت الساحق سيتوقف الآن فوق جسده وينهار عاجزاً على الأرض بارادة قلبه وحده . وربما يبدأ منه هو تحرير البشرية الآمنة التي ولدت مشاعر الحب في قلبه لها بفضل امه المحبة ، ولينين ، والوطن السوفيتي . كان مصير حياته البسيط ممتداً أمامه ، فشعر نيكولاي فيلتشنكو بالراحة اذ تقبلته روحه بيسر ، روحه المستعدة للموت والناشدة له كما تنشد الحياة .

نهض بطول قامته ، ونضا عنه السترة ، وفي لحظة خاطفة أصبح امام ضلوع جنزير الدبابة القاسية ، الزاحفة عليه من أعلى ، والتي زفرت في وجه هذا الانسان الوحيد حرارة محركها . وسدد فيلتشنكو جسده الذي اعتاد أن يستجيب له ، وألقى بنفسه في اعشاب الشيع تحت الجنزير القاضم بعرض مساره . سدد باحكام ، بحيث تجيء القبلة المربوطة على بطنه في وسط عرض حلقة الجنزير ، وألصق وجهه بالأرض نافثاً آخر زفرة حب وحقد .

ورأى بارشين وأوديتسوف ما فعله فيلتشنكو ، وشاهدا كيف توقفت الدبابة فوق عظام الموجه السياسي وقد زلزلها الانفجار . وألقى بارشين في فمه بقبضة طين وراح يلوكه وهو لا يعي ما يفعل .

وقال اوديتسوف :

— نيكولاي مات . ونحن ايضا حان دورنا .
وظهرت خمس دبابات جديدة على الطريق وبدأت تهبط ببطء على المنحدر متجنبة الدبابة المدمرة .
ونهض البحاران .

وقال بارشين بصوت خافت :

— دانييل !

فأجابه اوديتسوف :

— يوزا !

وبدا وكأن كلا منهما يضع صاحبه في قلبه ، لكي لا ينساه ولا يفرقه عنه الموت .

وقال بارشين وقد داخلته الطمأنينة والمرح :

— ايه ، لذكرانا الخلود !

واندفعوا نحو الدبابات في نصف دائرة ليقابلوها وجها لوجه . غير ان اوديتسوف سقط على الأرض قبل ان يتمكن من الالتحام بالدبابة ، لأن جندي الرشاش في الدبابة بدأ يحصد بالرصاص صدر البحار وهو يكاد يلاصقه . لكن اوديتسوف ، وهو يحتضر ، تحامل على جسده المحطم بقوة قلبه وحده الذي لما يزل يخفق ، وزحف لملاقاة الدبابة . . . فمزقه الجنزير هو والقنبلة ، محولا حياة الى لهب ونور انفجار . وركض بارشين الى دبابة أخرى ، وتثبت بحاجزها ، وتمكن من ركوب الدبابة المعادية مسافة قليلة ، وبعد أن سمع انفجار جسد اوديتسوف ، ترك الحاجز وركض إلى الامام سابقا الدبابة . وهناك نضا بارشين عنه السترة وعرى بطنه بالقنبلة المربوطة عليه ، لكي يرى الأعداء ذلك الذي يواجههم . ثم انتظر حتى اقتربت منه الدبابة ، وارتمى بحرية وتقدير تحت الجنزير .

توقفت الدبابات الاخرى ، السليمة بعد ، على الطريق ومشارفه . ثم تحركت بجنازيرها متجهة نحو بعضها البعض وقفلت عائدة ، عبر حقل الشيع ، الى ملجئها خلف التبة . كانت تستطيع ان تقاتل أي عدو ، ولو كان أروع الأعداء . لكنها لم تعرف كيف تخوض قتالا ضد رجال جبابرة ، يفجرون أنفسهم ليقضوا على عدوهم . لم تكن تعرف كيف تغلب على ذلك ، وفي الوقت نفسه لم تشأ أن تمنى بالهزيمة .

وها قد انتهى كل شيء . وحملة الرشاشات الالمان ، الذين التفوا من الجناحين حول موضع قتال البحارة ضد الدبابات ، صمتوا حتى قبل ذلك ، فبعضهم قتل ، والباقيون

على قيد الحياة غاصوا في الخنادق . لم يبق ظاهرا في مكان قتال الوحدة التي قادها الموجه السياسي فيلتشنكو سوى الدبابات الميتة ورجل واحد حي . بقي فاسيلي تسيبولكو وحده حياً . وادرك انه سيموت قريباً ، لكنه كان لا يزال حياً بعد . كان قد زحف إلى حافة الطريق متحيا عن المكان الذي خاض فيه رفاقه القتال ضد الدبابات ، فرأى كل ما دار هناك تقريباً .

وها هو الآن يرى كيف اقتربت إحدى وحداتنا الحربية من الطريق قادمة من الخطوط الدفاعية في تشكيل انتشار . وبسبب التريف والضعف كان تسيبولكو يرى كل شيء بوضوح تارة ، وتارة اخرى تغيم الدنيا في عينيه ويفقد وعيه .

عندما افاق تسيبولكو رأى حوله اناساً ، وعرف بينهم المفوض لوكيانوف . وضمد الجنود تسيبولكو ، ثم حملوه على ايديهم ومضوا الى سيفاستوبول . واحس بالراحة وهو محمول على ايدي الجنود ، فراح يروي لهم وللوكيانوف الذي كان يحمله معهم كل ما رآه اليوم على قدر ما استطاع . ولكنه لم يتمكن من رواية كل شيء ، فقد صمت ومات .

أفروديت

«أما نزال أفروديته حية ؟» . بهذا التساؤل وهذا الأمل توجه نزار فومين الآن لا الى البشر والمؤسسات — فقد ردوا عليه بأنه لا أثر لأفروديته في أى مكان — بل الى الطبيعة ، الى السماء ، الى النجوم ، الى الأفق وإلى الجماد . كان يؤمن بوجود علامة ما فى العالم غير ظاهرة أو إشارة غامضة تستطيع أن تدله هل ما زالت أفروديته تتنفس أم لفت البرودة صدرها . كان يخرج من الملجأ الى الحقل ، ويقف أمام زهرة زرقاء بسيطة ، فيحديق فيها طويلا ، ثم يسألها أخيرا : «حسنا ؟ أنت أدري ، فأنت متصلة بالأرض كلها وأنا وحدى أسير ، هل أفروديت حية أم لا ؟» . لكن الزهرة لا تتأثر بلوعته وسؤاله ، وتلزم الصمت وتواصل حياتها الخاصة ، والريح تمر بلا مبالاة فوق العشب ، كما مرت من قبل ربما فوق قبر أفروديت أو فوق وجهها الحى الضاحك . ويحديق فومين الى الأفق البعيد ، الى السحب المارة هناك والمشعة بالنور الصافى ويفكر بأنه ربما كان من الممكن من هناك ، من ذلك الارتفاع ، أن يرى أين توجد أفروديت الآن . كان يؤمن بأن للطبيعة أملاكا عامة لو نظرت اليها لعرفت حزن الطبيعة على ضياع خيراتها أو فرحتها لبقاء هذا الخير ، فأراد ان يستشف من خلال العلاقة المشتركة بين جميع الاحياء والاموات فى هذا العالم تلك الإشارة الواهية الخفية

التي قد تنبئه بمصير زوجته أفروديت . . . حية هي أم ميتة . اختفت أفروديت فى بداية الحرب . ، وسط النازحين الى الشرق هربا من الألمان . وفى ذلك الوقت كان نزار ايفانوفيتش فومين يحارب فى صفوف الجيش ، فلم يكن فى مقدوره ان يساعد هذا المخلوق الحبيب من اجل انقاذه . وكانت أفروديت امرأة شابة ، نبيهة ، سهلة التكيف ، فما ينبغى أن تضع بلا أثر او تموت جوعا بين شعبها . من الجائر طبعاً ان تتعرض لبلوى فى تلك الطرق الطويلة او للهلاك صدفة . بيد أنه لم يندلج عن الطبيعة ولا عن البشر أدنى صوت أو اختلاجة تحمل النبا الحزين الى قلبه المفتوح المنتظر ، ومن ثم فلا بد أن أفروديت حية فى هذه الدنيا .

واستسلم فومين للذكريات مكرراً فى نفسه ماعاناه مرة من سعادة توقفت وجمدت الى الأبد . . .

رأى بذاكرته مدينة صغيرة تضئوها الشمس ، واسقف بيوتها القرميدية وجدرانها الجيرية الباهرة ، وبساتينها المثمرة النامية فى نعيم الدفء تحت السماء الزرقاء . فى ساعة الظهر كان فومين يمضى عادة للافطار فى مقهى يقع غير بعيد عن مكتب الانشاءات للمواد المقاومة للحرارة ، والذي كان يعمل فيه مشرفاً على التنفيذ . وفى المقهى يعزف الحاكى ، ويمضى فومين الى البوفيه ليطلب لنفسه سجقا بالكربن وما يسمى «بالطيارة» ، أى البازلاء المملحة التى يلقونها فى القم ويقتنصونها وهى طائرة . ويطلب فوق ذلك كوز بيرة .

• المقصود هنا الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١ — ١٩٤٥) التى خاضها الشعب السوفييتى ضد الغزاة الفاشست . المغرب .

وتملأ المرأة العاملة فقط في صب البيرة الكوز بينما يتابع فومين تدفق تيار البيرة ، وهو يطالب باصرار مبدئي ان تصب له حتى حد الكوز ولا تملأه بالرغوة . وفي خضم هذا الصراع اليومي مع رغوة البيرة لم ينظر فومين مرة واحدة بانتباه الى وجه المرأة التي كانت تخدمه ، ولم يكن يذكرها بعد مغادرة المقهى . ولكن تلك المرأة زفرت ذات مرة زفرة عميقة عارضة ، بلا موعد ، فنظر فومين نظرة طويلة الى المرأة الواقفة خلف منصة البوفيه . ونظرت هي ايضا اليه . وملأت الرغبة الكوز حتى فاضت ، بينما لم تلاحظ المرأة ذلك في شرودها . فقال لها فومين حينذاك : « كفى ! » ، ولأول مرة يكتشف ان المرأة كانت شابة ، مشرقة الوجه ، بعينين سوداوين براقتين ، تجمعان في نظرتيها بصورة غريبة بين الاستغراق في التفكير والسخرية ، وبشعر أسود كث ينمو على رأسها بقوة وحشية . وحول فومين عنها عينيه ، لكن صورة هذه المرأة ملكت عليه أحاسيسه ، ولم تعد تلك الأحاسيس تقيم وزناً لا لعقله ولا لهدوء باله ، بل تناقضت معهما ، وهي تقوده الى سعادته . ظل ينظر آنذاك الى الرغبة السائلة على الطاولة ، ولم يعد يبالي بانسيابها هدرا على لوح المنصة المرمى . وفيما بعد اطلق على نتاليا فلاديميروفنا ، باسماء ، اسم « أفروديت » ، التي ظهرت له صورتها هي أيضا فوق الرغبة ، وان لم تكن رغبة مياه البحر ، بل رغبة سائل آخر . ومع أفروديته عاش نزار ايفانوفيتش ، كزوج وزوجة ،

• أفروديت — الهة الحب والجمال عند الاغريق (فينوس عند الرومان) . تقول الاسطورة انها ولدت من رغبة (زبد) مياه البحر .
المعرب .

عشرين عاما اذا لم نستثن فترة انقطاع دامت عامين ونصف ، ولم يفرق بينهما سوى الحرب . وها هو الآن يسأل النباتات وكل مخلوقات الأرض الطيبة عن مصيرها بلا جدوى ، بل ويتوجه بنفس السؤال متفرسا في ظواهر السحب والنجوم السماوية . وكان مكتب استعلامات المهجرين يبحث بجهد ومنذ وقت طويل عن نتاليا فلاديميروفنا فومينا ، لكنه لم يعثر عليها بعد . لم يكن لدى نزار ايفانوفيتش انسان أقرب من أفروديت . وقد اعتاد طوال عمره ان يتحدث معها ، لأن ذلك كان يساعده على التفكير ، ويلهمه الثقة فيما يقوم به من عمل . والآن ، ونزار ايفانوفيتش في الحرب ، وقد مرت اربع سنوات على فراقه عن أفروديت ، فانه يكتب اليها في كل وقت فراغ رسائل طويلة ، ويبحث بها الى مكتب استعلامات المهجرين في بوجوروسلان ، لكي تسلم هذه الرسائل فيما بعد الى المرسل اليه بعد العثور عليه . وخلال سنوات الحرب لا بد ان الكثير من مثل هذه الرسائل قد تراكم في مكتب الاستعلامات . . وبعضها سيُسلم ، وبعضها لن يسلم ابداً وسوف يتحلل دون ان يفض . كان نزار ايفانوفيتش يكتب لزوجته بهدوء وتفصيل ، مؤمنا بوجودها ، وبلقائه المقبل بها ، بيد انه لم يتلق بعد أى رد من أفروديت . وكان الجنود والضباط الذين يقودهم فومين يتابعون البريد بدقة ، حتى لا تضيع رسالة مرسلة الى قائدهم ، لأنه يكاد يكون الشخص الوحيد في الفوج الذى لا تصله رسائل لا من زوجته ولا من اقربائه .

لقد مرت سنوات السلم السعيدة تلك منذ زمن بعيد . ولم يكن بوسعها ان تستمر الى الأبد ، لأن كل شيء ينبغي

ان يتغير لكي يبقى ، حتى السعادة . وفي الحرب وجد نزار
ايفانوفيتش فومين سعادة أخرى ، مختلفة
عن الكد السلمي السابق ، ولكنها ذات قرابة به . اما بعد
الحرب فقد أمل أن يخبر حياة أكثر سموا من تلك التي
عاشها وهو كادح ومقاتل .

• • •

حررت وحداتنا العلوية تلك المدينة الجنوبية التي كان
فومين يعيش ويعمل فيها قبل الحرب . وكان فوج
فومين في الاحتياط ، فلم يزوجوا به في المعركة لعدم الحاجة
الى ذلك .

وعسكر فوج فومين في النسق الثاني في نطاق المدينة ،
لكي يتحرك فيما بعد نحو الغرب في مسيرة طويلة . وفي
اول يوم للتوقف كتب نزار ايفانوفيتش رسالة الى أفروديت ،
ومضى ليزور أعز مدينة عليه في أرض روسيا كلها . كانت
المدينة محطمة بنيران المدفعية ومحروقة بلهب الحرائق ،
بينما نسف العدو مبانيها المتينة وحولها الى تراب . وقد ألف
فومين رؤية حقول القمح التي دعكتها العجلات ، والأرض
التي امتلأت بجراح الخنادق ، ومنازل البشر التي اطارت
بها القذائف . . ذاك كان حفل الحرب المحرث ، الذي
زرع فيه ما لا ينبغي ان ينمو مرة ثانية : جثث الاشرار .
وما ولد للحياة الطيبة الخلاقة ، فاذا نصيبه مجرد الذكرى
الخالدة : اجساد جنودنا التي تحرس في الأرض بعد موتها
عدونا المجندل .

مضى فومين عبر بستان الفواكه الى ذلك المكان الذي
كان مقهى افروديت يقع فيه في وقت ما . كان ذلك في
شهر ديسمبر . وبردت الاشجار المثمرة العارية من صقيع
الشتاء وشملها خدر سبات حزين . واغصانها الممدودة التي
كانت تحمل في الخريف الثمار ، مزقتها الآن دفعات
الرصاص فتدلت عاجزة نحو الأرض ، معلقة بخيوط شظايا
الخشب ، ولم تسلم سوى اغصان نادرة . واجتث الالمان
اشجارا كثيرة من جذورها لاستخدامها في بناء الاستحكامات .
كان المنزل الذي ضم المقهى منذ نيف وعشرين عاما
ثم اصبح بعد ذلك مسكنا ، متناثرا الآن شظايا ومخلفات ،
مقتولا ، ميتا ، تصفر فيه الريح . كان فومين لا يزال
يذكر ملامح ذلك المنزل ، بيد انها هي الأخرى ستلاشي
قريبا مع مرور الوقت في ذاكرته ، وسوف ينساها . أفلا
يرقد الآن هكذا في مكان ما ، في حقل مقفر بعيد ، جسد
أفروديت البارد الكبير الحبيب ، تنهشه اكالات الجيف ،
ويتحلل في الماء والهواء ، وتجففه الريح وتحمله ، لكي
تبدد كل مادة حياة افروديت في العالم بالتساوي وبلا أثر ،
حتى يصبح الانسان نسيا منسيا ؟

واصل طريقه نحو طرف المدينة ، حيث عاش صبيها .
وبعث الخواء البرودة في قلبه ، وهبت نسائم متأخرة ،
جاءت بعد الموت ، على اطلال المساكن الصامتة . ورأى
المكان الذي عاش فيه ولعب في صباه . لقد احترق المنزل
الخشبي القديم حتى الأساس ، وتبعثر القرميد الذي فته
الحريق الشديد على الارض المحروقة فوق مهد طفولته .
وشجرة الحور في الفناء ، التي كان نزار الصغير ينام في ظلها

صيفاً ، قد اجتثت وتمددت الآن بجوار جذلها ، مينة متحللة اللحم .

وقف فومين طويلاً أمام شجرة طفولته هذه . وكأنما فجأة فقد قلبه المخدر قدرة الاحساس ، لكى لا يستوعب المزيد من الألم . ثم جمع فومين بضع قزميدات سليمة وورصها رصة صغيرة منسقة ، وكأنه يجهز المواد للبناء القادم ، أو انه يجمع البذور ليزرع روسيا من جديد . هذه القزميدات وكل ما عداها من قزميد فى المنطقة كلها قد صنعت فى الورش التى أسسها فومين هنا فى سنوات السلم الغابرة وأشرف عليها اعواماً طويلة .

مضى فومين الى السهب . . ففى وقت ما شيد هناك ، على بعد حوالى كيلومترين من المدينة ، أول سد صغير لتجميع المياه . كان آنذاك بناء سعيديا ، اما الآن فكان حقل شبابه حزينا خاويا ، عقيما حرثته الحرب . وتفرقت اعواد حشائش مجهولة فى الثلج الذائب القليل ، وراحت تهتر مع الريح فى اذعان ، غير مبالية بالانسان . . . كان السد الترابى قد نسف فى وسط جسده ، وجفت مياه البركة وماتت فيها الاسماك .

عاد فومين الى المدينة . وعثر على شارع شيفتشينكو وعلى المنزل الذى عاش فيه بعد عودته من روستوف حيث تخرج هناك من المعهد البوليتيكنيكي المتوسط . لم يكن للبيت وجود ، ولكن الدكة بقيت . كانت هذه الدكة تقوم تحت نوافذ شقته ، وكان يجلس عليها فى اوقات المساء ، وحده فى البداية ، ثم مع افروديت فيما بعد ، وكانا يعيشان آنذاك فى احدى غرف المنزل المدمر الآن ،

بنوافذ تطل على الشارع . كان أبوه ، الاسطى بمصنع صهر الحديد ، قد مات بصورة مفاجئة عندما كان فومين ما يزال يدرس فى روستوف ، وتزوجت امه للمرة الثانية وسافرت لتقيم فى كازان . وبقي نزار فومين القتي وحيدا آنذاك ، لكن العالم كله ، المغمور بنور الشمس ، والملىء بالأشخاص الجذابين ، عالم الشباب المغرى والأسرار الخالدة الملفعة بالغموض ، العالم الشحيح وغير المرتب بعد ولكنه مشحوذ بأمل واردة العمال البلاشفة . . هذا العالم كان فى انتظار الشاب ، وأمامه ارتعت الأرض الحبيبة المعروفة ، وقد جوعتها وعرتها ويلات الحرب العالمية الأولى .

جلس فومين على الدكة التى امضى عليها مع افروديت الكثير من الأماسى الصيفية الهادئة فى الحديث والحب . اما الآن فكان أمامه عالم خاو مدمر ، وربما لم يعد على قيد الحياة أقرب انسان اليه . كان لا بد ان يبدأ كل شىء من جديد ، ليكمل ما شرع فيه منذ ربع قرن مضى .

• • •

كان من الممكن ان تتجه حياة نزار فومين اتجاها آخر تماماً لو لم يلهمه الايمان بمعنى حياة الطبقة العاملة فى سنوات صباه الماضية . فلولا ذلك لعاش ، على الأرجح ، حياة أكثر هدوءاً ، ولكنها حياة كثيفة عقيمة . ولكن له قدره المنفرد ، ولكنه ما كان ليعرف ذلك المصير الذى عرفه عندما اعطى للشعب قلبه ، فأحس وأدرك أكثر مما يستطيع فرد واحد أن يحسه ويدركه ، وأصبح يتنفس ما

تتنفسه البشرية . فالإنسان الفرد لا يمكنه ان يدرك معنى
وغاية وجوده . اما حينما ينتمى الى الشعب الذى انجبه ،
ومن خلاله الى الطبيعة والعالم ، الى ماضى الزمن وحلم
المستقبل . . حينها يتكشف لروحه ذلك النبع الدفين الذى
ينبغى ان يشرب منه الانسان ، لكى يستمد قوة لا تنضب
لانجاز عمله وايماناً راسخاً بضرورة حياته .

كانت روسيا السوفيتية آنذاك قد شرعت لتوها فى
تحديد مصيرها . وسار الشعب فى درب عظيم بلا عودة . .
الى ذلك المستقبل التاريخى الذى لم يخط اليه احد قبله . .
فقد أراد أن يجد تجسيدا لكل احلامه . . وان يحصل
بالكد والمآثر على القيم الخالدة وكرامة الحياة الانسانية ليتقاسمها
مع غيره من الشعوب . . . كان فومين قد رأى فى صباه
مشهداً بسيطاً فى بحر آزوف . كان واقفاً على الشاطئ ،
وقارب صيد شراعى وحيد يبحر بعيداً فى البحر الأزرق تحت
سماء مشرقة ذهبية . وراحت السفينة تبتعد أكثر فأكثر ،
وعكس شراعها الأبيض بلونه الهادئ ضوء الشمس ، ولكن
السفينة ظلت مرئية طويلاً للواقفين على الشاطئ . ثم اختفت
تماماً خلف الافق السحرى . أحس نزار آنذاك بفرحة منقبضة ،
كأنما دعاه شخص يحبه ليتبعه نحو فضاء السماء والأرض
الساطع ، بينما لم يكن قادراً بعد على المضى خلفه .
وكتلك السفينة المختفية فى الأفق المضى ، تخيل فى
تلك اللحظة روسيا السوفيتية المبحرة فى آفاق الدنيا والزمن .
وتذكر أيضاً ساعة من ساعات القيلولة فى احد الأيام
المنسية . كان نزار يسير فى الحقل هابطاً الى واد غطته
اعشاب برية رائعة . والشمس فى الاعالى تدعو الجميع

اليها ، فنهضت النباتات والمخلوقات من ظلام الأرض
نحوها لتزورها . . وكانت متعددة الألوان ، كل منها مختلف
عن الآخر ولا يشبهه . . كل منها نشأ وعاش فى داخل الأرض
كيفما استطاع ، المهم ان يخرج الى النور ، ويتنفس ويتהלل
ويقضى الأجل المقدر له فى اللقيا المشتركة لكل الكائنات ،
من اجل ان يتمكن من حب الاحياء لكى يفترق عنها
بعد ذلك الى الأبد . أحس نزار فومين الشاب آنذاك بأسى
الكون الصامت العظيم الذى لا يمكن ان يفهمه ويفصح
عنه ويتغلب عليه سوى الانسان وحده ، وفى ذلك يتجلى
واجبه . وفرح نزار آنذاك بواجبه كإنسان . وأيقن مقدما من
أنه سيؤديه ، لأن الطبقة العاملة والبلاشفة أخذوا على عاتقهم
كل واجبات البشرية واعبائها . . وبالعمل البطولى وقوة
الادراك السليم لمعنى وجوده على الأرض سيؤدى الشعب
العامل رسالته وسيبدد نور الحقيقة ظلام مستقبل البشرية .
هكذا كان نزار فومين يفكر فى شبابه . كان آنذاك يحس
أكثر مما يعرف ، ولم يكن بعد قادراً على شرح فكرة المصير
المشترك لكل البشر بكلمات واضحة ولكنه كان قانعاً بالثقة
السعيدة بان الظلام الذى يلف العالم ويلقى بظلاله على
قلب الانسان ، ليس ظلاماً ابدياً بل مجرد ضباب ما
قبل الفجر .

وكان أتراب نزار فومين من الكمسمولين والبلاشفة مفعمين
بنفس فكرة خلق العالم الجديد ، وكانوا ، مثل نزار ،
واقفين بأنهم مدعوون من لينين للمشاركة فى المأثرة العالمية
للشعبية . . من أجل أن يحل أخيراً على الأرض عصر الحياة
الحقة ، وتحقق جميع احلام البشر التى استحقوها بكد

القرون والتضحيات الجسام ، والتي صانوها بالتجربة الطويلة والتفكير الصبور . . .

بعد ان أنهى نزار فومين المعهد المتوسط المتخصص في مدينة روستوف على الدون عاد الى مسقط رأسه ، الى هذه المدينة ذاتها ، التي يجلس فيها الآن وحيداً . آنذاك اصبح نزار فني بناء وبدأت مأثرة حياته . كان ينظر الى كل ما هو مادي وباهت وعادى بانفعال وتأثر حتى لقد أصبح بالنسبة له روحياً ، وغذى شغفه بالعمل . والآن لم يعد يذكر هل كان يعي آنذاك أن كل ما هو سام حقاً لا يولد الا من الحاجة المعيشية ، بيد انه كان يصنع بيديه حينذاك ذلك التحول من المادي الى الروحي ، وكان يؤمن بحقيقة الثورة لانه قام بها بنفسه ورأى اثرها على مصير الشعب .

في البداية عمل نزار فومين مشرفاً على انتاج مواد البناء المقاومة للحرارة في الاقليم . . . وكان ذلك المنصب يعد منصباً صغيراً . ولكنه كان متحمساً لهذا العمل فلم يتقبله بقلبه كوظيفة بل كمغزى حياته ، وكان ينظر نظرات مشبوبة بالعاطفة الى بواكير القرميد الذي انتجوه في الورشة اليدوية . مسدً آنذاك برفق أول بلاطة قرميد ، وتشممها ، وحملها الى غرفته ، حيث كان يعيش ، لكي ينظر اليها مرة اخرى في المساء ، وفي الصباح أيضاً ، وليتأكد : أهى فعلاً جيدة ومتينة بحيث تستقر لاعوام طويلة على اسطح بيوت الفلاحين بدلاً من القش ، وتحمل بذلك المنازل الريفية من الحرائق . كان قد درس آنذاك احصائيات الحرائق في اقليمه حسب بيانات مجالس «الزيمستفو» القديمة ،

فقدّر انه اذا حل القرميد محل القش في تغطية الاسطح . فان الفلاحين يستطيعون من الاموال المتوفرة نتيجة تلافى خسائر الحرائق ، ان يبنوا مثلاً خلال ثلاث سنوات بئراً ارتوازية في كل قرية ، تدر ماء وفيراً صحياً ، أو شيئاً آخر ، اما في السنوات الثلاث أو الأربع التالية فيمكنهم بنفس الموارد التي ينقذها القرميد من الحريق ، بناء محطة كهربائية محلية بطاحونة ومقشرة غلال . كانت مثل هذه الافكار تجعل باستطاعة نزار فومين ان يحدد طويلاً في القرميد دون ضجر ويفكر في كيفية جعله اكثر متانة ورخصاً . . . كان القرميد آنذاك عواطفه ومعاناته ، وعوضه عن الكتاب والصديق ، عن الانسان . . . وفيما بعد أدرك انه لا يمكن لأى مادة ان تعوضه عن الانسان ، اما في ايام الشباب فكان يكفيه مجرد تصور الانسان .

هناك أزمان يعيش الناس فيها فقط على الآمال وتوقعات التغيير في اقدارهم . وهناك زمن تحمل فيه ذكرى الماضي وحدها السلوى للجيل الحاضر ، وهناك زمن سعيد يتوافق فيه تطور العالم التاريخي مع حركة قلوب البشر . وكان نزار فومين رجلاً من الزمن السعيد لشعبه ، وفي البداية كان ، مثل الكثيرين من أترابه وشركائه في الرأي ، يعتقد بأن عصر البهجة الوادعة قد حل ، عصر السلام والاخوة والنعيم ، الذي سينتشر تدريجياً ليشمل العالم . ولكي يصبح ذلك واقعاً ملموساً يكفي فقط ان يبنى ويكدح . هكذا كان يعتقد فومين الشاب آنذاك .

وهياً نزار فومين لنفسه راحة النفس بحبه لزوجته واخلاصه لها . وبذا رُوّض في نفسه كل الشهوات الغامضة التي كانت

تشده الى زوايا عالم الحس المظلمة ، حيث لا يمكن الا ان يبدد حياته عبثا ، وان يكن بلذة ربما ، فكرس كل قواه للعمل ولخدمة الفكرة التي اصبحت تشغف قلبه . . .
 اي لما لا يبدد حياة الانسان ، بل يبعثها دواما وبلا توقف . . . لما اصبحت مصدر متعته . . . ليس تلك المتعة الضارية المنهكة ، بل المتعة الوديعه كالخير الهادي .
 كان نزار فومين ، كغيره من ابناء جيله ، مشغولا آنذاك ببث الالهام في العالم ، الذي كان قائما قبل ذلك في صورة كشيبة ، مبعثرا وبلا هدف عام جلي .
 وفي بداية عمله كان فومين يصنع القرميد للتكسيات المقاومة للحرارة ، ثم اتسعت واجباته فيما بعد ، وسرعان ما انتخب نائبا لرئيس مجلس البلدة . وحسب الاهمية الفعلية لنشاطه أصبح كبير مهندسى جميع الاعمال في البلدة وفي الاقليم المحيط بها . آنذاك كانت هذه المدينة تعتبر بلدة ، بمثابة عاصمة الاقليم او الناحية .
 كان فومين يشيد السدود في السهوب الجافة لسقى المواشى ، ويحفر في القرى الآبار المدعمة بالحلقات الاسمنتية ، ويعبد الطرق في الناحية كلها بنوع من الاحجار المحلية ، لكي يتغلب بكل الوسائل على فقر الحياة ويربط روح الفلاح الوحيدة بالشعب كله .
 ولكنه فكر آنذاك ايضا فى شيء أهم ، وحتى فى الأحلام كانت تراوده نفس الفكرة وتعيش فيه ، معشمة اياه بالسعادة . ظل فومين يعد لعمله عامين ، حتى سمح له مجلس الاقليم بالبدء فيه . كان هذا العمل عبارة عن بناء محطة كهربائية فى البلدة ، مع التوسع التدريجى فى

شبكة الكهرباء ومدها منها الى كل الاقليم ، الى كل الناحية ، لكي يحصل الشعب على النور لقراءة الكتب ، وعلى قوة الآلة لتخفف عنه عناء العمل ، وعلى الحرارة فى الشتاء لتدفئة المنازل وحظائر الماشية . وبتنفيذ هذا الحلم البسيط ينبغى أن يتغير كل نمط حياة السكان ، وسيشعر الانسان آنذاك بالتححرر من الفقر والاحزان ومن وطأة الكد الذى ينهكه حتى النخاع ولا يضمن له مع ذلك الرخاء فى الحياة . . .
 كانت ظلال الذكريات تمر الآن على وجه العقيد فومين ، الجالس بين اطلال المدينة الصريعة التى شيدها هو ورفاقه فى وقت ما . وكانت الذكريات تطبع على وجهه تارة ابتسامة ، وتارة حزناً ، وتارة صورة هادئة للماضى البعيد .
 وقد شيد آنذاك محطة كهربائية . وأقيم حفل راقص فى نادى الثقيف السياسى بالناحية تكريما لبدء تشغيل المحطة الكهربائية القوية فى ذلك الوقت ، ورقصت أفروديت أيضا فى هذا الحفل ، الذى اضاءه اشعاع الكهرباء ، على الحان اوركسترا من ثلاثة اكورديونات ، وكانت أسعد من نزار نفسه ، لأن عمل زوجها تكلل بالنجاح .
 ولكن تنفيذ المشروع كان صعبا على فومين آنذاك . فقد كانت اعتمادات ميزانية الناحية قليلة ، ولذلك تطلب الأمر شرح فائدة الكهرباء لكل سكان الناحية ، لكي يساهم الناس فى بناء المحطة وشبكة الكهرباء بجهودهم وبمداخراتهم . ومن ذلك نظم فومين آنذاك أربعاً وثلاثين جمعية فلاحية للكهربة وجمعها فى اتحاد على مستوى الناحية . وقد كلفه ذلك كثيرا من عناء القلب والقلق والجهد المتوتر . وتذكر

الفتاة الفلاحة اليتيمة يفدوكيا ريميكو . كان والداه قد تركا لها بائنة صغيرة لزواجها ، فأودعتها عن آخرها كحصاة ، ثم عملت بعد ذلك بدأب واقبال كبيرين كمعاونة نجار في تشييد مبنى المحطة . يفدوكيا ريميكو الآن امرأة كبيرة السن ، لو انها على قيد الحياة ، ولو كانت شابة لكانت تخدم في الجيش على الأرجح او تقاتل ضمن فصيلة فدائيين . وتذكر فومين ايضا كثيرا من الذين عملوا معه آنذاك . من الفلاحين والفلاحات ، وأهالى البلدة ، والشيخ والشبان . كانوا يشيدون بكل الصدق والاخلاص ، وبكل ما يملكون من قدرة ، عالما جديدا على وجه الأرض . لقد تفجرت قدراتهم الدفينة المكبوتة آنذاك وظهرت ، وراحت تنمو في العمل الواعى المعطاء . واشرقت نفوسهم وادراكهم للحياة آنذاك ونمت كما ينمو الزرع فى أرض أزيلت عنها الواح الأحجار . لم تكن المحطة قد اكتمل بناؤها وتجهيزها بعد ، ولكن فومين اصبح يرى بسرور ان بناتها ، هؤلاء الفلاحين الذين يعملون تطوعا بالاضافة الى كدهم فى الحقول من اجل لقمة العيش ، قد انهمكوا فى العمل ، واحس كل منهم من خلاله بالاهتمام بالآخر وبصلتهم بالطبقة العاملة التى صنعت الآلات لتوليد الكهرباء ، الى درجة ان وحدة قلوبهم الكثيرة زابلتهم ، واللامبالاة الفردية للمالك الصغير بالعالم الغريب عنه كله والخوف منه بدأت هى الاخرى تزايلهم . صحيح أن لدى كل شخص ، فى افكاره الدفينة ، رغبة فى الخروج من داره ، من وحدته ، لكى يرى ويعايش الكون كله ، بيد انه كان يتعين ايجاد طرق ميسرة وفى متناول الجميع لتحقيق ذلك . وقد عبر الفلاح العجوز يريميف

لفومين انذاك عن فكرته الغامضة حول نفس الموضوع فقال : «ألا نشعر يا نزار ايفانوفيتش بان السلطة السوفييتية تعطينا فرصة الاختيار فى الحياة . . . كأنها تقول : هيا ، اعمل ، واسعد ، ولتكن مسئولاً عن الخير وعن الشر ، فأنت الآن على الأرض لست بعابر سبيل غريب . فانظر كيف كانت الحياة من قبل . . . ترقد فى رحم الأم فلا تشعر بنفسك ، فاذا خرجت الى الدنيا تفهرك البلايا والمصائب ، وتعيش فى الدار وكأنك فى زنزانة ولا ترى الدنيا ، فاذا مت فترقد ساكنا فى القبر ولتنس انك كنت . كنا دائما محشورين يا نزار ايفانوفيتش . . . فى الرحم ، وفى الزنزانة ، وفى القبر ، ولاشئ غير الغيبوبة . ومع ذلك كان كل واحد يعطل الجميع ! اما الآن فكل واحد يساعد الجميع . . . ها هنا السلطة السوفييتية والتعاونيات ! » .

ترى ابن ذلك العجوز يريميف الآن ؟ ربما لا يزال حيا بعد . . . كلا ، هيهات ، فقد مر زمن طويل . . . لم تعمل المحطة الكهربائية سوى فترة قصيرة . فبعد سبعة أيام من بدء تشغيلها احترقت . وكان نزار فومين ساعتهما على بعد أربعين كيلومترا من البلدة ، فقد ذهب ليتفقد سدا بالقرب من عزبة دوبروفكا هدمه فيضان امطار الخريف ، وليحدد حجم الأعمال المطلوبة لاصلاحه . وابلغوه هناك نبأ الحريق عن طريق رسول راكب ، فعاد فومين على الفور . فى طرف البلدة ، حيث كان يقوم بالأمس فقط مبنى المحطة الجديد المبنى بالطوب اللبن ، أصبح المكان خاويا الآن . احترق كل شئ وصار رمادا ، ولم يتبق سوى اجساد الآلات المعدنية الميتة : المحرك العمودى والمولد .

وبفعل الحرارة ذابت في جسم المحرك كل الاجزاء النحاسية
وسالت منه . وانفصلت كراسي التحميل واسلاك التوصيل
الذائبة وتجمدت فوق الاساس كسيول دموع . وفي المولد
انصهرت وتشوهت شناير العلامسات ، واحترق الملف وتبدد
دخاناً ، وتبخر النحاس كله واصبح عدماً .

وقف نزار فومين انذاك بجوار آتانه الميتة التي كانت
تحلق فيه بفتحات اجزائها الرقيقة المحترقة العمياء ، وراح
يبكى . وحركت ريح عاصفة الواح الحديد المنكمشة على
الارض اثر ما عانته من الحريق فقرقت بكآبة . ونظر فومين
في هذه اللحظة الحزينة من لحظات حياته الى السماء . .
كانت تسبح فيها سحب خريفية داكنة تسوقها رياح مكفهرة .
هناك كان الملل واللامبالاة بالانسان ، لأن الطبيعة كلها ،
رغم ضخامتها ، وحيدة تماماً ، لا تعرف شيئاً سوى نفسها .
أما ما احترق في النار هنا فكان مختلفاً . . كان هنا عالم
شيده البشر في تعاطف . هنا تحقق بصورة مصغرة الحلم
بحياة سامية ، وفي المستقبل بتغيير واحياء الطبيعة المضنية ،
الراوحة تحت قهرها لذاتها . . الحلم الذي ربما لا يوجد
في الكون كله سوى في قلب الانسان ووعيه ، وليس كل
انسان ، بل فقط ذلك الانسان ، الذي كان أول من
توصل عبر القداء والكد والثورة ، الى مثل هذا الادراك لمصيره .
واذن فما أصغر هذه القوة الخيرة في آماذ العالم الضخم وما
اشد الحاجة الى صونها .

وحل بالنسبة لنزار فومين زمن حزين . انبأته سلطات
التحقيق ان المحطة لم تحترق صدفة او بسبب اهمال ،
بل أحرقتها يد شريرة . وهذا ما لم يستطع فومين ان يفهمه

للهولة الأولى . . اذ كيف يمكن لما يعتبر خيراً للجميع ان
يشير الحقد ويصبح سبباً للجريمة . وذهب ليرى ذلك الشخص
الذي أحرق المحطة . وبدا له المجرم شخصاً عادياً ،
ولم يكن نادماً على فعلته . وأحس فومين في كلامه بحقد
لم يشبع ، ظل المجرم يستمد منه طاقته الروحية حتى وهو
مقبوض عليه . الآن لم يعد فومين يذكر ملامحه وكلماته
على وجه الدقة ، لكنه يذكر جيداً غله الذي لم يخفه
امامه هو ، كبير بناء المنشأة الشعبية المدمرة ، وتفسيره
لفعلته على انها اجراء ضروري لارضاء عقله وضميره . أصغى
فومين الى المجرم آنذاك صامتاً ، وادرك انه يستحيل اقناعه
بالكلمة ، اما اقناعه بالعمل فممكناً ، لكنه لن يدع لهم
الفرصة ابداً لاتمام العمل حتى النهاية ، وسوف يخرب ويدمر
دائماً كل ما بينه سواه وهو بعد في البداية .

رأى فومين كائناً كان يظن انه اما لاجود له ابداً
في العالم ، واما انه يعيش بعد الثورة في حالة عجز وعدم
قدرة على الحاق الضرر . اما في واقع الأمر فقد كان هذا
الكائن يحيا حياة مستعرة ، بل كان له حتى عقل يؤمن
بصحته ما يعتقد . عندئذ تسلسل الشك الى ايمان فومين
بقرب حلول النعيم على ظهر الأرض كلها . وبدأت صورة
المستقبل المشرق في مخيلته وكأنها ابتعدت نحو الأفق
المضئب ، وتحت قدميه امتدت من جديد الأرض الرمادية
القاسية الوعرة والتي كان عليه ان يسير فوقها طويلاً ، نحو
ذلك العالم البراق ، الذي بدا جد قريب وسهل المنال .
عقد الفلاحون والبناء والمساهمون في المحطة اجتماعاً .
واستمعوا في الاجتماع الى ما قاله فومين وأطرقوا صامتين

وهم لا يخفون أساهم المشترك . ثم تقدمت يفتدوكيا ريميكو وقالت بوجل انه ينبغي جمع المال من جديد ، واعادة بناء المحطة المحروقة . فخلال عام او عام ونصف يمكن اعادة بناء كل شيء بأيدينا—قالت ريميكو—وربما أسرع من ذلك بكثير . فرد عليها من مجلسه فلاح داخله المرح ، ولم يكن معروفا من هو : «ماذا دهاك يا فتاة ، ضيقت باثنتك في النار ، والآن تلقين فيها بيانة اخرى . بهذه الطريقة لن تتزوجي حتى الممات ، وستذبلين عانسا !» . وبعد ان بحثوا الأمر ، وكم سيحصلون من مؤسسة التأمينات تعويضا عن الحريق ، وبكم ستساعدهم الدولة اقراضا ، وكم ينبغي اضافته من المدخرات المكتسبة بالكد قرر المساهمون ان يتعهدوا ببناء المحطة من جديد لثاني مرة . وقال صانع البراميل الحرفي يفتوخوف : «الكهرباء انطفأت ولكننا سنواصل العيش بلا انطفاء ! اما انت يا نزار ايفانوفيتش فنوصيك جميعا بصورة قاطعة بالبناء وفق الخطة والمقاييس مثلما كان من قبل !» . كان يفتوخوف يحب ان يوصى بتنفيذ اكبر الاعمال واصغرها بصورة قاطعة . وكان هو نفسه يحيا بصورة قاطعة وثورية ، واخترع برميلا كرويا مستديرا . وكأنما مس نور دافئ روح نزار فومين المحزونة آنذاك . ودون ان يدري ما الذي ينبغي ان يفعله او يقوله ، لمس يفتدوكيا ريميكو ، واراد ان يقبلها في خدها وهو خجل من الناس ، فلم يجرؤ على تقبيلها الا في شعرها الداكن فوق اذنها . هذا ما كان حينذاك ، وبقي الاحساس الحي بالسعادة ، ورائحة شعر الفتاة ريميكو ، وصورتها الوديفة ، ماثلة في ذاكرة فومين حتى الآن .

ومن جديد شيد نزار فومين في المكان السابق محطة كهربائية اقوى مرتين من تلك التي احترقت في النار . واستغرق هذا العمل عامين تقريبا . وخلال هذه الفترة هجرت أفروديت نزار فومين . . فقد أحبت شخصا آخر ، مهندسا قدم من موسكو لتركيب محطة اذاعة وتزوجته زواجا ثانيا . وكان لفومين اصدقاء عديدون من الفلاحين والعمال ، لكنه أحس باليتم بدون أفروديته الحبيبة ، ولفت برودة الوحدة قلبه . كان قبلا يعتقد على الدوام ان أفروديته الوفية هي ربة ، لكنها الآن اصبحت بائسة بحاجتها واحتياجها الى الاستمتاع بحب جديد ، بتعلقها بالفرحة والمتعة التي كانت اقوى من ارادتها ، اقوى من وفائها وتعلقها الأبسى بمن كان يحبها وحدها على الدوام . ولكن نزار فومين لم يستطع حتى بعد فراق افروديت أن ينساها ، وظل يحبها كما في السابق . لم يشأ حتى أن يقاوم مشاعره ، التي تحولت الآن الى عذاب . . فلنكن الظروف قد انتزعت منه زوجته ، فجعلتها الآن بعيدة عنه جسديا ، فليس من الضروري ان تستحوذ على الشخص عن قرب وتسعد فقط بجواره . يكفي ان تحس بالشخص الحبيب ساكنا مقيما في قلبك . وهذا ، في الحقيقة ، أصعب وأشد تعذيبا من الاستحواذ القريب المشبع ، لأن الحب لشخص لامبال لا يعيش الا على قوة وفائه وحدها ، دون ان يحصل في المقابل على ما يغذيه . ولكن هل يقوم فومين وغيره من ابناء وطنه بتغيير العالم الى الافضل من اجل أن يسيطروا عليه أو لكي يتصرفوا فيه بعد ذلك كملكية لهم ؟ . . وتذكر فومين انه قد خطرت له آنذاك فكرة غريبة ظلت بلا تفسير . أحس في فراقه

عن أفروديت بأن القوة الشريرة قطعت عليه طريق حياته مرة أخرى . وربما كانت من حيث الأصل هي تلك القوة ذاتها التي احترقت بسببها المحطة الكهربائية . كان يدرك الفرق بين الحدثين ، وكان يرى التباين بينهما ، لكنهما بنفس الدرجة من القسوة عملا على تدمير حياته ، وكان يواجههما نفس الشخص . من الجائر ان يكون هو نفسه المذنب في حق أفروديت ، فقد يقع الشر رغما عن الشخص ، بلا قصد ، ودون ان يلاحظ ، حتى وهو يشهد قواه لفعل الخير لشخص آخر . يبدو ان ذلك يحدث لأن القلوب تختلف بعضها عن بعض . فأحدها حين يتلقى الخير ، يستهلكه كله في سد حاجته ، فلا يبقى منه شيء للآخرين . أما القلب الآخر فقادر حتى على معالجة الشر وتحويله الى خير وقوة . . لنفسه وللآخرين .

ادرك نزار فومين بعد الحريق وبعد فقدان أفروديت ان النعيم الشامل والاستمتاع بالحياة ، كما كان يتصورهما من قبل ، ليسا سوى حلم واهم ، وان حقيقة الانسان ونيمة الفعل لا يكتمان في ذلك . وعبر صراعه مع عذابه وتخطيه وتحمله لما كان يمكن ان يقضى عليه ، واعادة بناء ما تهدم ، أحس فومين بغتة بفرحة طليقة ، مستقلة عن الشرير وعن الصدفة . وادرك سذاجته السابقة فبدأت عريكته تقسو وتتصلب ، وتنضج في الشدائد وتعلم القدرة على مغالبة وتفتيت صخور المصاعب التي تعترض طريق الحياة . وساعتها غاب العالم ، الذي بدا له حتى هذه اللحظة واضحا وسهل المئال ، في الظلام الغامض البعيد ، لا لأن الظلمة والأسى والرغبة كانت هناك بالفعل ،

بل لأن العالم كان في الحقيقة أكثر اتساعا وامتدادا في جميع الاتجاهات بحيث تستحيل الاحاطة به دفعة واحدة لا في روح الانسان ، ولا في الفضاء المجرد . وأرضى هذا التصور الجديد نفس فومين أكثر من ذلك النعيم التيسر ، الذي ظن فيما مضى ان الناس لا تعيش الا من أجله . بيد انه هو وجيله لم يكونا آنذاك الا في بداية طريق الحياة للشعب الروسي السوفيتي بأسره . ولم يكن كل ما عاناه نزار فومين في ذلك الزمن سوى مقدمة لمصيره الشاق ، واختبار أولي للانسان الشاب واستعداده لتحمل عبء القضية التاريخية الواجبة ، التي شرع شعبه في انجازها . وفي الحقيقة فثمة شيء دنيء ومزعزع في السعي الى السعادة من اجل الذات فحسب . فبالمأثرة وحدها وتأدية الواجب ازاء الشعب الذي انجبه يبدأ الانسان ، وفي هذا يكمن ارتياحه الأسمى أو سعادته الحقيقية الخالدة التي لا يمكن ان تعصف بها أية بلوى أو مصيبة أو بأس . بيد ان فومين لم يستطع آنذاك اخفاء حزنه بسبب مصائبه . وربما لو لم يكن بقربه اناس أحبوه كرفيقهم في الرأي ، لخارت قواه تماما ولما استطاع ان يتمالك نفسه . قال له أحد رفاقه المقربين بأسى متفهم : «اهدأ ، تماالك نفسك ! ماذا كنت تنتظر غير ذلك . . من ذا الذي سيقدم لنا الفرحة والحقيقة ؟ علينا نحن أن نصنعهما ، لأن حزننا يحقق معنى الحياة في العالم . . حزننا هو حرس البشرية ، وأنت من الحرس ! الحزب لا يربى عجولا بلهاء بل أبطالا لعصر الثورات والحروب العظيم . . سوف تتعاطف امامنا المهام دوما ، وسنرقى الى ذرى جبال تتكشف لنا منها كل الآفاق ، حتى آخر الدنيا !

فما بالك تعوى وتحزن ! عش معنا . ماذا ، أتريد ان تحصل على الدفء من الفرن المتزلى والزوجة فقط ؟ انت شخص ذكى ، وتعرف اننا لسنا بحاجة للمخلوق العاجز الذى يحافظ على نفسه ! لقد حل زمان آخر ! . . .

سمع فومين كلمة «حرس» لأول مرة آنذاك . . . ومضت حياته بعد ذلك . وذات يوم قابلته أفروديت ، زوجته ، وهى تشعر بالمهانة لخيانة زوجها الثانى لها ، وقالت له انها حزينة وتحزن اليه ، وانها لم تفهم الحياة على الوجه الصحيح ، اذ أرادت أن تفرح فقط دون ان تتحمل واجبا او التزاما . وأصغى نزار فومين الى أفروديت فى صمت ، فقد كانت مشاعر الغيرة والكرامة المجروحة ما تزال تتحرك فى قلبه ، ورغم انها كانت مكبوتة وشبه خرساء ، فقد ظلت حية ، مثل الحشرات التى لا تفنى . بيد ان فرحته وهو امام وجه أفروديت ، وقرب قلبها الخافق لملاقاته اسكتنا حزنه البائس ، فقبل بعد نيف وستين من الفراق يد أفروديت الممدودة اليه .

وبدأت سنوات جديدة فى العمر . وكثيرا ما جعلت الظروف من فومين ضحية ، وساقته الى حافة الهلاك ، بيد أن روحه لم يعد من الممكن أن تنضب بأسا وكآبة . كان يعيش ويفكر ويعمل ، كأنما يشعر دائما بيد كبيرة تقوده الى الامام برقة وصلابة . . . نحو مصير الأبطال . ونفس اليد التى قادتته بصلابة الى الامام ، نفس تلك اليد الكبيرة أدفاته ، ووصل دفوها الى اعماق قلبه .

— الى اللقاء يا أفروديت !

قال نزار فومين بصوت مسموع .

أينما كانت الآن ، حية أم ميتة ، فهنا ، فى هذه المدينة الخاوية من البشر ، ما تزال مستكنة الى الآن آثار قدميها على الأرض ، وما تزال باقية ، فى صورة رماد ، اشياؤها التى امسكت بها يداها فى وقت ما ، طابعة عليها دفء اصابعها ، وهنا انتشرت فى كل مكان علامات حياتها غير المرئية ، التى لن تندثر كلها ابدا مهما تبدل العالم تبديلا عميقا . وقنعت مشاعر فومين نحو افروديت ، فى تواضعها ، بمجرد فكرة انها كانت تنفس هنا فى وقت ما ومازال هواء الوطن يحمل دفء شفيتها الخفيف وبقايا رائحة جسدها المختفى . . . فلا شيء يفنى فى العالم بلا أثر .

— الى اللقاء يا أفروديت ! انا الآن احس بك فى

ذكرياتي فقط ، ولكنى اريد ان اراك كلك ، حية ، سالمة ! . . .

نهض فومين من على الدكة ، ونظر الى المدينة التى اصبحت منخفضة بأطلالها ، ومكشوفة للعين من طرف الى طرف ، وانحنى لها ، وعاد ادراجه الى الفوج . كان قلبه المدرب على الصبر قادرا ربما حتى على تحمل الفراق الأبدى ، وكان قادرا على الحفاظ على الوفاء ومشاعر الارتباط حتى آخر أيامه . أما فى اعماقه الدفينة فكان يحمل كرامة الجندى ، القادر على القيام بأى عمل أو مأثرة . وكان فومين

يشعر بالسعادة وهو يطيح بالعدو الملتصق بالاسمنت وبالأرض ،
أو وهو يجعل من قنوط روحه أملا ، ومن الأمل نجاحا
ونصرا .

أوليا

عاش في هذه الدنيا فيما مضى طفل رائع . أما
الآن فقد نسيه الجميع ، ونسوا أيضا اسمه . لم يعد أحد
يذكر اسمه أو وجهه . جدتي وحدها هي التي ظلت تذكر
ذلك الطفل الرائع ، وهي التي روت لي عنه .

قالت جدتي ان الطفل كان اسمه أوليا ، وكانت صبية .
كان كل من يرى أوليا الصغيرة يشعر في قلبه بألم الخجل ،
لأن أوليا كانت رقيقة الوجه وطيبة الخلق ، ولم يكن كل
من يتطلع اليها شريفا وطيبا .

كانت ذات عينيْن واسعتين صافيتين ، وكان كل من
ينظر اليهما يرى ان في اعماقهما ، عند القاع تماما ،
يوجد أهم وأحب شيء في الدنيا ، فكان كل واحد يريد
أن يحدق في عيني أوليا ليرى في قاعهما أهم واسعد شيء
لنفسه . . . ولكن عيني أوليا كانتا تطرفان ، فلم يتمكن
احد من رؤية ما كان يكمن في عمق عينيها الصافيتين .
وعندما كان الناس يحدقون من جديد في عيني أوليا ويبدأ
البعض يدرك ما يراه هناك ، تعود عينا أوليا تطرفان ، فيصبح
من المستحيل ادراك ما يكمن في اعماقهما تمام الادراك .
بيد ان شخصا تمكن رغم ذلك من الوصول بنظرته
إلى قاع عيني أوليا ورؤية ما كان هناك . وكان هذا الشخص
يدعى دميان . كان يعيش على شراء القمح من الفلاحين

في سنوات الرخاء بثمرن رخيص لبيعه في سنوات القحط بثمرن غال ، وكان من ذلك شعبان وغنيا على الدوام . رأى دميان في اعماق عيني أوليا الحقيقة نفسه ، ولكن ليس بالصورة التي كان يبدو بها للجميع ، بل بالصورة التي كان عليها في الحقيقة : بفكين نهمين ونظرة ضارية . كانت روحه المستورة مرسومة على وجهه بوضوح . ومنذ ان رأى دميان نفسه هجر الناحية التي كان يعيش فيها ، ولم يسمع احد عنه شيئا فترة طويلة ، حتى انهم بدأوا ينسونه . كانت عينا أوليا تعكسان الحقيقة وحدها . فاذا كان شخص ما قاسى القلب لكن له وجهها جميلا وثيابا فاخرة ، فانه يلوح في عيني أوليا قبيح المنظر تغطيه القروح بدلا من الزينة .

اما أوليا فلم تكن تعرف ان عينيها تعكسان الحقيقة . فقد كانت ما تزال صغيرة ، قليلة الادراك . واما الآخرون فلم يتمكنوا من معرفة انفسهم في عينيها ، ولكن كلا منهم كان يتملاها باعجاب ويفكر في ان الحياة جميلة ، طالما أوليا موجودة في الدنيا .

ولم تكن أوليا تعرف أمها وأباها الحقيقيين . لقد وجدوها ذات صيف تحت احدى الصنوبرات بجوار بئر على الطريق . ولم يكن عمرها آنذاك يتجاوز عدة اسابيع . كانت ممددة على الارض ، ملفوفة بمنديل صوفى ، وهى تحلق صامتة في السماء بعينين واسعتين يتبدل لونهما ، فتارة تبدوان رماديتين ، وتارة زرقاوين ، وتارة سوداوين تماما . واخذ الناس الطيبون الطفلة ، وتبنتها احدى الأسر الفلاحية التي كانت بلا خلف ، وسمتها أوليا . وعاشت

أوليا طفولتها المبكرة كلها في دار ريفية مع والديها اللذين تبنيها .

كانت عندما تنام تغمض عينيها نصف اغماضة ، فكأنها تنظر . وقيل الصباح ، عندما يشرق الفجر خارج الدار ، كان كل ما يبدو وراء النافذة ينعكس في عيني أوليا نصف المفتوحتين . كانت ترقد على الاركة بينما يضيء الصباح الباكر وجهها . كانت اغصان الصفصافة القائمة خلف النافذة ، والسحب المضاء بأولى اشعة الشمس اللطيفة ، والطيور المحلقة . . كان كل ذلك يبدو في الخارج مرة ، ويتلأأ مرة اخرى في اعماق عيني أوليا . ولكن السحب والطيور واوراق الصفصافة كانت تبدو في عيني أوليا أجمل وأصفى وأبهى مما كانت تبدو للناس .

وبلغ من حب والديها المتبنين لأوليا الصغيرة انهما كان يستيقظان كل ليلة من شدة شوقهما اليها . يهبطان من فراشهما ، ويقتربان من أوليا ويتمليان طويلا في الغسق هذه الابنة الغريبة التي اصبحت أغلى عندهما من الخلف . وكان يخيل اليهما ان النور يشع من عينيها نصف المفتوحتين ، فتبدو الدار الفقيرة في تلك اللحظة بهيجة مثلما في يوم العيد في صباحها .

وتقول الأم بصوت خافت :

— الظاهر ان أوليا ستموت قريبا .

فيقول الأب :

— اسكتي ، لا تجرى الشؤم . ولماذا تموت وهى

بعد صغيرة ؟

فتعود الام تقول :

— امثالها لا يعمرن . عيناها لا تغمضان اثناء النوم .
كان يشيع في قرينهم اعتقاد بأن الاطفال الذين لا
يغمضون اعينهم اثناء النوم يموتون مبكراً .
وكم من مرة ارادت الأم أن تغمض يديها جفنى أوليا ،
ولكن الأب لم يسمح لها بأن تمسها حتى لا تفزعها .
وحتى في النهار عندما كانت أوليا تلعب في الركن بقطع
القماش او تصب الماء من صحن فخارى في كوب معدنى ،
كان الأب لا يجرؤ ان يلمس ابنته ، وكأنما يخشى أن
يؤذى جسدها الصغير .

كان شعر أوليا أصفر ، يتلوى خصلات على رأسها
الصغير وكأنما تخللته الريح ثم سكنت هناك . وكان وجه
أوليا الناعم يبدو فى المنام ، كما فى اليقظة ، متطلعا
الى مكان ما ومهموما . وعندئذ يخيل للأب وللأم ان أوليا
تريد ان تسألها عن شىء ما يعذبها ، ولكنها لا تستطيع
لأنها لا تحسن الكلام بعد .

واستدعى الأب الطبيب الرفى ليعود أوليا ، اذ خطر
له انها ربما تعاني من ألم وقد يستطيع الطبيب مساعدتها .
وأصغى الطبيب الى نفسها ثم قال ان كل ذلك سيزول
عندما تكبر .

وسأل الأب الطبيب :
— ولماذا يعجب بها الجميع ؟ الافضل لو كانت
أقبح !

فأجاب الطبيب :
— تلك لعبة الطبيعة .
فغضب الاب والأم وقالوا :

— اية لعبة ! انها حبة وليست لعبة .
وظل الناس كما فى السابق يحدقون فى عيني أوليا
لكى يروا فيها انفسهم على حقيقتها . وربما استطاع البعض
منهم أن يرى نفسه ، بيد انه لم يذكر شيئا عن ذلك ،
بل قال للجميع انه لم يتمكن من رؤية شىء لأن أوليا
طرفت بعينها .

وعرف الجميع ان لون عيني أوليا كان يتبدل . فاذا
نظرت إلى شىء طيب — الى السماء او الى فراشة ، او
الى بقرة ، او إلى زهرة ، او الى عجوز فقير غابر — تشع
عيناها بنور صاف . اما اذا نظرت الى شىء يخفى فى
داخله شرا ، تسود عيناها وتصبحان حالكتين . وفى أعماق
عيني أوليا فقط ، فى وسطهما تماما ، كان ينبعث دائما
ضوء صاف لا يتغير ، وفيه تنعكس حقيقة الشخص او
الشىء الذى تنظر اليه ، لا ما كان يبدو للجميع من الخارج ،
بل ما كان يخفى خبيثا فى داخله ولا يرى .

وعندما بلغت أوليا العامين بدأت تتكلم ، وكانت تتكلم
بوضوح ولكن نادراً ، وكانت تعرف كلمات قليلة . . . كانت
ترى فى الحقل وفى شارع القرية ما يراه الناس ويبدو لهم
مفهوما . لكن أوليا كانت تدهش دائما مما تراه ، وأحيانا
كانت تصرخ من الخوف وتبكي ، وهى تشير بيدها نحو
ما تراه .

ويسألها ابوها وهو يحملها على ذراعيه ولا يفهم سبب
خوفها : — مالك يا أوليا ؟ ماذا هناك ؟ لماذا تنظرين هكذا
الى ؟ هناك القطيع يعود الى الدور ، وهنا أنا معك .
وتنظر أوليا بفرع الى أبيها وكأنه شخص غريب عنها

لم تره من قبل أبداً . وتترلق بهلع الى الأرض وتهرب منه .
وينفس الدرجة كانت تخاف من أمها وتختبئ منها .
ولم تكن أوليا تشعر بالسكينة الا فى الظلام ، حيث
لا ترى عيناها شيئا .

وعندما تستيقظ أوليا فى الصباح تشعر على الفور بالرغبة
فى الفرار من البيت . فكانت تهرب إلى منشف الحبوب
المظلم او الى الحقل حيث توجد مغارة رملية فى الخور ،
فتجلس هناك فى العنمة الى ان يعثر عليها ابوها وأمها .
وعندما كان أبوها او أمها يحملانها على اذرعهما ، ويضمانها
اليهما ويقبلانها فى عينيها ، كانت أوليا تبكى من الخوف
ويرتعش بدنهما كله ، وكأنما لم يكن والداهما يداعبانها بل
الذئاب خطفتها .

واذا ما رأت أوليا فراشة وجلة محلقة فوق العشب ،
تفر منها صارخة ، ويظل قلبها المذعور يبق طويلًا . أما
اكثر من كانت أوليا تخشاه فهو امرأة عجوز ، هى جدتى ،
والتي كانت عجوزا الى درجة ان جميع العجائز كن ايضا
يناديهن بالجدة . ونادرا ما كانت جدتى تذهب الى دار
أوليا . وعندما تأتى كانت تحمل للصغيرة دائما هدية .
رغيفا من الدقيق الأبيض ، او قطعة سكر ، او قفازا حاكته
بنفسها طوال اربعين يوما ، او شيئا آخر تحتاجه أوليا .
وكانت جدتى العجوز تقول انها من المفروض ان تموت ،
فقد حان اوان موتها ، بيد أنها الآن لا تستطيع ان تموت ،
فما ان تتذكر أوليا حتى يعود قلبها الضعيف يتنفس وينبض
من جديد وكأنه قلب شاب . . يتنفس بحب أوليا ومن الشفقة
عليها ومن الفرحة .

أما أوليا فما أن ترى الجدة حتى تشرع فى البكاء .
وكانت لا تحول عنها عينيها المسودتين ، وتتفص من الخوف .
وتقول الجدة :

— انها لا ترى الحقيقة ! انها ترى الشرير فى الطيب ،
والطيب فى الشرير .
فيسألها الأب :

— ولماذا ترى الحقيقة الخالصة كلها فى عينيها ؟
فتقول الجدة العجوز :

— لهذا السبب ! الحقيقة كلها تشع منها ، ولكنها
هى نفسها لا تفهم هذا النور ، ويبدو لها كل شيء معكوساً .
ستكون حياتها اشق من حياة العمياء . الافضل لو كانت
عمياء .

وفكر الأب آنذاك : «ربما كانت الجدة مصيبة .
أوليا ترى الخبيث طيبا ، والطيب خبيثا» .
ولم تكن أوليا تحب الزهور ، فلم تلمسها ابداً ،
وكانت تملأ حجرها بالاعشاب السوداء الجافة من الأرض
وتمضى الى ركن مظلم ، فتلعب هناك وحدها وهى تلتقط
الاعشاب السوداء مغمضة العينين . ولم تكن تصادق الاطفال
الآخرين من القرية وعندما تلتقاهم تفر منهم الى البيت .
وتصرخ أوليا :

— أخافهم ! انهم مخيفون .
عندئذ تضم الأم رأس أوليا الى صدرها وكأنما تريد
ان تخفى الصغيرة وتطمئنها فى قلبها .
اما اطفال القرية فلم يكونوا مدللين بل كانوا طيبين ،
نظيفي الوجوه ، يتقربون من أوليا ويتسمون لها .

ولم تكن الأم تفهم مم تخاف أوليا ، وما هو ذلك الشيء المرعب الذى تراه عينا أوليا الرائعتان المسكيتان . فتقول لها :

— لا تخافى يا أوليا ! لا تخافى شيئا فأنا بجانبك . فتنظر أوليا الى امها ثم تعود تصرخ :

— انا خائفة !

— ممن تخافين ؟ أنا أمك !

— اخاف منك . أنت مخيفة !

تقول أوليا ، وتغمض عينيها حتى لا ترى امها . لم يكن احد يدرى ما الذى تراه أوليا ، أما هى فلم تكن تستطيع ان تتكلم من شدة الخوف . وكانت هناك فى القرية طفلة أخرى ، فى الرابعة من عمرها ، وتدعى جروشا . ومعها وحدها راحت تلعب أوليا ، وأحببتها . وكانت جروشا طويلة الوجه ، فأطلقوا عليها لذلك «رأس الفرس» ، وكانت غضوبا حادة الطباع . لم تكن تحب حتى اباهما وأمه ، وتندرها بأنها ستهرب قريبا من البيت الى مكان بعيد ، ولن تعود ابداً ، لأن الحياة هنا سيئة ، اما هناك فطيبة .

كانت أوليا تتحسس وجه جروشا بيديها وتقول لها انها جميلة . وتحديق عينا أوليا باعجاب فى وجه جروشا العابس الحاقد ، وكأنما ترى أمامها صديقة طيبة محبة ، جميلة الوجه . وذات مرة نظرت جروشا عفوا الى عيني أوليا وتمكنت من ان ترى فيهما نفسها كما هى عليه فى حقيقة الأمر . فصرخت من الفزع وفرت الى البيت . ومنذ ذلك الحين أصبحت أطيب قلباً ، ولم تعد تصرخ فى

والديها بان الحياة فى البيت سيئة . وعندما تريد ان ترجع شريفة مرة اخرى ، تتذكر صورتها الرهيبة فى عيني أوليا فتخاف من نفسها وتعود مطيعة وديعة .

ورغم حزن أوليا من رؤية الزهور ووجوه الناس الطيبة مرعبة ، فقد مضت ، ككل الاطفال الصغار ، تأكل الخبز وتشرب اللبن ، ولهذا أخذت تكبر . ولما كانت الحياة تسير بسرعة ، فسرعان ما بلغت أوليا الخامسة من عمرها ، ثم السادسة ، فالسابعة .

وفى تلك الآونة عاد الى قريتهم ذلك الفلاح دميان ، الذى ترك القرية منذ فترة طويلة الى مكان مجهول . عاد فقيرا وبسيطا ، وراح يحرق الأرض مثل بقية الناس ، وعاش بعد ذلك طيبا حتى آخر العمر . بل لقد أراد حتى أن يعطوه أوليا فيبتناها لتعيش معه فى بيته لأنه كان عجوزا ووحيدا ، ولكن والدى أوليا اللذين تبنياها لم يوافقا . فهما لا يستطيعان أن يعيشا بدون أوليا منذ أن دخلت بينهما . ومنذ ان بلغت أوليا الخامسة كفت عن الصراخ والفرار رعباً ، بل كانت تصبح حزينة فحسب عندما ترى أمامها روحا طيبة رائعة ، سواء كانت تلك جدتى العجوز ام شخصا وديعا آخر ، وتبكي كثيرا . غير أن الصورة الحقيقية لمن تتطلع اليه ظلت تشع كما فى السابق فى اعماق عينيها الواسعتين . أما هى نفسها فلم تكن ترى الحقيقة بل ترى الكذب . وكانت عيناها الحزيتان الميالتان الى التصديق تنظران الى الدنيا وكأنما جمدهما الدهشة وهما لا تدركان ما تريانه .

وعندما بلغت أوليا السابعة أخبرها والداها بأنهما والداها

بالتبني ، وان والديها الحقيقيين لا يعرف اين يعيشان وهل هما على قيد الحياة أم لا . وقال لها والداها ذلك بأسلوب حكيم . لقد ارادا ان تعرف الصبية الحقيقة منهما وليس من الغرباء . فالغرباء سيخبرونها بالأمر ان عاجلا ام آجلا ، ولكنهم سيخبرونها بصورة سيئة فيجرحون قلبها الصغير .

وسألت أوليا عن والديها الحقيقيين :

— وهل هما ايضا مخيفان ؟

فقال لها أبوها :

— كلا ، ليس مخيفين . انهما هما اللذان انجباك ، وليس هناك من هو أقرب اليك منهما وأعز . وزفرت الأم قائلة :

— انت لا ترين الحقيقة يا بنتي . عيناك فاسدتان . ومن يومها اصبحت أوليا أكثر حزنا . كان الوقت صيفا ، وقررت أوليا ان تهجر البيت بحلول الخريف لكي تلقى امها واباها الحقيقيين اللذين هجراها .

وقبل ان ينقضى الصيف جاءت الى القرية فلاحه كهلة ترتدى حذاء من لحاء الشجر وتحمل كيس خبز خلف ظهرها . وكان واضحا انها قادمة من بعيد ومرهقة . جلست بجوار بئر الطريق التي كانت تقوم بجوارها صنوبرة عمجوز ، وتطلعت الى الشجرة ، ثم نهضت وتحسست الأرض حول الصنوبرة ، وكأنها تبحث عن شيء تركته ونسيته من زمان . واستبدلت المرأة حذاءها ، واتجهت الى الدار التي يقطنها دميان ، وجلست على المصطبة .

لم يكن ثمة مارة اذ كان الجميع يعملون في الحقول ، فظلت المرأة الرحالة جالسة وحدها مدة طويلة . ثم خرجت

صبية من احدى الدور ، وعندما رأت المرأة الغريبة مضت اليها .

وقالت الصبية ذات العينين الواسعتين الصافيتين النور : — انت لست مخيفة .

نظرت الرحالة الى الصبية ، وامسكت بيدها ، ثم عانقتها وضممتها اليها . ولم تخف الصبية ولم تصرخ . حينئذ قبلتها المرأة في عينها ثم في العين الاخرى واجهشت بالبكاء ، فقد عرفت في أوليا ابنتها من عينها ، ومن الشامة على رقبتها ، عرفت من جسمها كله ومن قلبها المرتعش . وقالت لها المرأة :

— كنت شابة ، حمقاء ، تركتك للناس . والآن جئت لكي آخذك .

والتصقت أوليا بصدر المرأة الدافئ اللين وأغفت . — اننى أمك . . . — قالت المرأة وقبلت أوليا ثانية

في عينها نصف المغمضتين .

شفت قبلة الأم عيني أوليا ، ومن يومها اصبحت ترى الدنيا الغارقة في ضوء الشمس على نفس الصورة التي يراها بها الآخرون . كانت تنظر أمامها بعينيها الرماديتين الصافيتين في سكونية ولا تخاف احدا . اصبحت ترى بصورة صحيحة ، فلم تعد الاشياء الرائعة والطيبة في الدنيا تبدو لها مخيفة وقبيحة ، ولم تعد الاشياء الشريرة القاسية تبدو لها رائعة كما كان الحال وهي بدون أمها الحقيقية .

بيد ان اعماق عيني أوليا منذ ذلك الحين لم تعد تشف عن شيء ، فقد اختفت منها صورة الحقيقة الدفينة . ولم تشعر أوليا بالحزن من انطفاء نور الحقيقة في عينها ،

ولم تحزن امها ايضا عندما علمت * بذلك .
قالت الأم :

— ليس الناس بحاجة الى رؤية الحقيقة ، فهم يعرفونها ، ومن لا يعرفها فلن يصدق حتى اذا رآها . . .
فى ذلك الوقت كانت جدتى العجوز قد ماتت ولم يعد بإمكانها ان تحكى لى اى شىء عن أوليا . ولكن بعد مضى وقت طويل رأيت أوليا ذات مرة . أصبحت فتاة جميلة ، جميلة الى درجة اكبر مما يحتاج اليه الناس ، ولذلك كان الناس يعجبون بها بينما تظل قلوبهم غير مiale اليها .

العودة

سُرح نقيب الحرس اليكسى اليكسييفتش ايفانوف من الجيش بعد نهاية الحرب . وفى الوحدة التى خدم فيها طوال الحرب ودعه زملاؤه كما ينبغي ان يكون الوداع : بأسف ، وحب ، واحترام ، وموسيقى ، وخمر . وتوجه اصدقاء ايفانوف المقربون ورفاقه معه الى محطة القطار ، وبعد أن ودعوه هناك الوداع الاخير ، تركوه وحده . غير ان القطار تأخر ساعات طويلة ، وعندما مرت هذه الساعات ، تأخر لفترة اضافية . وحل الليل الخريفى البارد . وكان مبنى المحطة قد دمر اثناء الحرب فلم يعد هناك مكان للمبيت ، فعاد ايفانوف الى وحدته فى سيارة عابرة . وفى اليوم التالى ودع زملاء ايفانوف رفيقهم مرة اخرى . ومن جديد غنوا الاغانى وعانقوا زميلهم الراحل اثباتا للصدقة الأبدية معه ، ولكنهم كانوا أكثر اقتصادا فى عواطفهم هذه المرة ، وجرى الاحتفال فى دائرة ضيقة من الاصدقاء .

ثم رحل ايفانوف مرة أخرى الى المحطة . وهناك علم ان قطار الأمس لم يصل بعد ، ولهذا كان بوسعه فى واقع الأمر ان يعود مجددا الى وحدته ليبيت ليلته . لكنه شعر بالحرَج من خوض الوداع لثالث مرة ومن ازعاج زملائه ، فبقى على الرصيف الاسفلتى الخاوى يعانى الوحشة . بجوار تحويلة خط الخروج من المحطة قام كشك

حارس التحويلة سليماً . وعلى اريكة بجوار ذلك الكشك جلست امرأة في سترة مبطنه بالقطن ومندبل رأس ثقیل . كانت بالأمس ایضا جالسة مع حاجياتها ، وها هي تجلس اليوم كذلك في انتظار القطار . وقد فكر ایفانوف وهو یرحل بالأمس لیبيت في الوحدة : ألا يدعو هذه المرأة الوحيدة معه ، فلتبت هي ایضا في منزل دافئ لدى الممرضات ، فما الداعي لأن تبرد هنا طول الليل ، اذ لبس معروفا هل تستطيع ان تتدفأ في كشك الحارس أم لا ؟ غیر ان السيارة العابرة تحركت به وهو ما يزال يفكر ، فسرعان ما نسی هذه المرأة .

وها هي ذي تلك المرأة جالسة بلا حراك في مكان الأمس . كان هذا الثبات والصبر يدلان على اخلاص قلبها ووفائها ، على الأقل فيما يتعلق بأشیائها ودارها التي من المرجح ان تكون عائدة اليها . ومضى ایفانوف نحوها ، اذ ربما لن تشعر معه بالوحشة كما تشعر بها وهي وحيدة .

التفتت المرأة نحو ایفانوف فعرفها . كانت فتاة ، يدعوها «ماشا ابنة الحمامجي» لأنها هي التي سمت نفسها كذلك فيما مضى ، اذ كانت بالفعل ابنة موظف حمام . لم یرها ایفانوف اثناء الحرب الا نادرا ، عندما كان يزور احدى كتائب خدمة المطارات حيث كانت ماشا هذه ، ابنة الحمامجي ، تعمل مساعدة طبّاخ في المطعم كعاملة غیر مجندة .

كان في الطبيعة الخريفية المحيطة بهما في تلك اللحظة كآبة وحزن . وكان القطار الذي ينبغي ان یقل ماشا وإيفانوف الى منزليهما یوجد في مكان مجهول في الفضاء الرمادي .

والشيء الوحيد الذي يمكن ان یسلي قلب الانسان ويعزیه هو قلب الشخص الآخر .

تبادل ایفانوف مع ماشا الحديث فاعتدل مزاجه . كانت ماشا مليحة الوجه ، بسيطة القلب ، طيبة الذراعین الكادحتين الكبيرتين والجسد القوی الفتی . كانت هي الاخری عائدة إلى بيتها ، وهي تفكر كيف ستكون حياتها المدنية الجديدة . لقد ألفت صديقاتها المجندات ، وألفت الطيارین الذين أحبوا كأختهم الكبرى ، وكانوا یهدونها قطع الشيكولاتة ويدعونها «ماشا الرحبة» لطول قامتها وسعة قلبها ، الذي كان یشمل كقلب كل اخت حقيقية ، جميع الاخوة بالحب دون تمييز لأحدهم . اما الآن فكانت ماشا تشعر بعدم التعود ، والغربة بل والخوف من عودتها الى البيت ، الى اقربائها الذين نسبت عشرتهم .

كان ایفانوف وماشا بدون الجيش یشران الآن بالیتم . الا ان ایفانوف لم یكن یطبق ان یبقى طویلا في حالة الكآبة والحزن . كان یخیل اليه في تلك اللحظات ان شخصا ما ینظر اليه من بعيد ویضحك منه ، ويهناً بالسعادة بدلا منه ، بينما یبقى ایفانوف مجرد ساذج عابس . ولذلك كان یلجأ بسرعة الى أمور الحياة ای الى الانشغال بعمل ما أو تسلیة ، أو ، كما كان یقول هو نفسه ، یجد لنفسه فرحة بسيطة متاحة ، وبذلك یخرج من حالة الكآبة . ترحز في جلسته مقتربا من ماشا ، ورجاها أن تسمح له ، بصورة رفاقية ، بان یقبلها في خدّها .

وقال لها :
— قبله بسيطة جداً ، فالقطار يتأخر ، وانتظاره ممل .

وسألته ماشا وهي تحدق في وجهه بتمعن :

— لأن القطار يتأخر فقط ؟

كان النقيب السابق يبدو من هيئته في نحو الخامسة والثلاثين ، وكانت بشرة وجهه التي لفحتها الريح ولوحتها الشمس بنية اللون . وتطلعت عيناه الرماديتان الى ماشا في تواضع ، بل وحياء ، ورغم انه كان يتكلم صراحة فقد كان لبقاً ولطيفاً . واعجبت ماشا بصوته ، ذلك الصوت الأصم الأبح لرجل كهل ، وبوجهه الداكن الخشن وتعبير القوة والعجز فيه . وأحمد ايفانوف نار غليونه بابهامه الذي لم يحس بلفح النار المشتعلة تحت الرماد ، وتنهّد في انتظار سماح ماشا له . وتحركت ماشا في جلستها مبتعدة عن ايفانوف . كانت تفوح منه بقوة رائحة التبغ والخبز المحمص الجاف ، والى حد ما رائحة الخمر ، أى تلك المواد الخالصة التي تولدت من النار او تستطيع ان تولد النار . وبدا وكأنما ايفانوف لم يطعم سوى التبغ والخبز المحمص والبيرة والخمر .

وكرر ايفانوف رجاءه :

— سأقبل بحذر . . . قبله سطحية يا ماشا . . . تخيلي

اننى عمك .

— تخيلت بالفعل . . . تخيلتك أبى لا عمى .

— هكذا اذن . . . فلتسمحنى لى . . .

فضحكت ماشا قائلة :

— الآباء لا يستأذنون بناتهم .

فيما بعد اعترف ايفانوف لنفسه بأن رائحة شعر ماشا كانت تشبه رائحة اوراق الخريف الداوية فى الغابة ، فلم

يستطع ان ينساها ابداً . . . ونهض ايفانوف فأشعل ناراً صغيرة على مقربة من الخط الحديدى لكى يلقى بيضا للعشاء لماشا وله .

وفى الليل وصل القطار فحمل ايفانوف وماشا الى حيث كانا يقصدان ، الى داريهما . وقضيا يومين معاً ، وفى اليوم الثالث وصلت ماشا الى المدينة التى ولدت فيها منذ عشرين عاما . وجمعت حاجياتها وهى بعد فى العربة وطلبت من ايفانوف ان يسوى لها كيسها على ظهرها فى وضع مريح ، ولكنه وضعه على كتفيه هو ، وخرج من العربة فى اثر ماشا ، رغم انه كان ينبغى عليه ان يسافر لاكثر من يوم حتى يبلغ بلده .

دهشت ماشا وتأثرت من عناية ايفانوف بها . لقد كانت تخشى ان تصبح وحدها فجأة فى المدينة التى ولدت وعاشت فيها والتي اصبحت بالنسبة لها مع ذلك غريبة تقريبا . كان الألمان قد ساقوا أباهما وأمها من هنا ، حيث لقيا حتفهما فى مكان مجهول ، ولم يبق لماشا فى مسقط رأسها سوى ابنة خالتها وخالتين ، ولم تكن تحسن نحوهم بعاطفة قرابة .

وسجل ايفانوف توقفه فى المدينة عند قومندان المحطة وبقي مع ماشا . وفى الواقع كان عليه ان يسافر بأسرع ما يمكن الى داره ، حيث كانت فى انتظاره زوجته وطفلاه الذين لم يرههم طوال اربع سنوات . لكنه أجل لحظة اللقاء السارة والمثيرة بأسرته . ولم يدرك هو نفسه لماذا يفعل ذلك . . . ربما لأنه أراد أن يلهو قليلاً وهو بعد حر . ولم تكن ماشا تعرف وضع ايفانوف العائلى ولم تسأله

عنه بسبب من حياتها العذري . ولطيفة قلبها اطمأنت له
ووثقت به ولم تفكر في شيء آخر .
وبعد يومين واصل ايفانوف سفره الى بلدته ، وودعته
ماشاً في المحطة . وقبلها ايفانوف بصورة مألوقة ووعدها
بلطف بأنه سيظل يذكر صورتها الى الأبد .
وابتسمت ماشا رداً على ذلك وقالت :
— وما الداعي لأن تذكرني الى الأبد ؟ لا داعي
لذلك ، ستنسائي على كل حال . . . اننى لا اطلب منك
شيئاً ، فلتنسنى .
— ماشا يا عزيزتى ! ابن كنت من قبل ، ولماذا
لم اقابلك من زمان طويل ؟
— قبل الحرب كنت في المدرسة ، ومن زمان طويل
لم اكن قد ولدت بعد . . .
وصل القطار فودعا احدهما الآخر . رحل ايفانوف
ولم ير كيف اجهشت ماشا بالبكاء عندما اصبحت وحدها ،
لأنها لم تستطع ان تنسى احداً ، لا صديقة ولا رفيقاً ،
ممن جمعها بهم القدر ولو مرة .
وتطلع ايفانوف من نافذة القطار الى المنازل المارة
امامه ، منازل هذه المدينة التى هيات أن يراها بعد ذلك
ابداً ، وفكر بأنه فى منزل شبيه بهذه المنازل ولكن فى
مدينة أخرى ، تعيش زوجته لوبا مع ولده بيتيا وابنته ناستيا ،
وانهم ينتظرونه . فقد أرسل لزوجته بركة قبل ان يغادر الوحدة
يخبرها فيها بأنه عائد دون ابطاء ، ويتمنى ان يقبلها والاولاد
بأسرع ما يمكن .
ظلت لوبوف فاسيليفنا ، زوجة ايفانوف ، تخرج

ثلاثة أيام على التوالى لملاقاة جميع القطارات القادمة من
الغرب . كانت تنصرف من العمل مستأذنة ، ولا تنفذ
المعدل الانتاجى ، ولا تنام الليل من الفرحه وهى تصنع
لحركة بندول ساعة الحائط البطيئة اللامبالية . وفى اليوم
الرابع ارسلت الى المحطة بالأولاد : بيوتر وناستيا ، لكي
يقابلا اباهما اذا ما وصل نهارا ، اما هى فذهبت ليلاً
لملاقاة قطار الليل .
وصل ايفانوف فى اليوم السادس ، واستقبله ابنه بيوتر .
كان بتروشكا . الآن فى الثانية عشرة فلم يتعرف الأب على
ابنه فوراً فى هذا المراهق الجاد ، الذى بدا اكبر من سنه .
ووجد ايفانوف ان بيوتر أصبح صبياً قصير القامة ، نحيلاً ،
ولكنه كبير الرأس ، عريض الجبين ، وكان وجهه هادئاً
وكأنما قد ألف هموم الحياة ، اما عيناه الصغيرتان العسليتان
فكانتا تنظران الى الدنيا بعبوس وسخط ، كأنما لا تريان
حولهما سوى الخلل والتسبب . وكان ملبس بتروشكا مهندياً :
حذاءه مستهلك ولكنه صالح بعد للاستعمال ، وسرواله
وسترته قديمان جيكا من ملابس ابيه المدنية ، ولكن دون
ثقوب ، مرفوءان حيث ينبغي ، ومرقعان حيث يجب ،
وكانت هيئته كلها اشبه بهيئة فلاح صغير فقير ولكنه مثابر .
ودهش الأب وتنهده .
— أنت أبى ؟ — سأل بتروشكا عندما عانقه ايفانوف وقبله
وهو يرفعه اليه — الظاهر انك أبى !

• بتروشكا وبيتيا تدليل للاسم الاصلى : بيوتر . المغرب .

— أبوك . . مرحبا يا بيوتر اليكسييفتش ! .
 — مرحبا . . لماذا طال سفرك ؟ انتظرناك كثيرا .
 — القطار يا بيتيا سار ببطء . . كيف حال ماما وناستيا ؟
 بخير وعافية ؟
 فقال بيوتر :
 — لا بأس . كم وساماً تحمل ؟
 — وسامين يا بيتيا ، وثلاث ميداليات .
 — أما انا وأمي فكنا نظن انه لا يوجد فى صدرك
 موضع خال من الاوسمة . أمى ايضا لديها ميداليتان ،
 اخذتهما عن جدارة . . . لماذا حاجياتك قليلة . . كيس
 واحد !
 — لا حاجة بى لأكثر من ذلك .
 فسأله الابن :
 — ومن لديه صندوق . . يصعب عليه القتال ؟
 فأمن الأب :
 — يصعب عليه . بالكيس يسهل القتال . هناك لا
 توجد صناديق عند أحد .
 — كنت أظن ان لديكم صناديق . لو كنت هناك
 لوضعت حاجياتى فى صندوق ، ففى الكيس تتكسر وتتجعد .
 وأخذ كيس ابيه ومضى الى البيت ، وسار الاب فى
 اثره .
 استقبلتهما الأم عند عتبة المنزل ، فقد استأذنت من

« المخاطبة بالاسم واسم الأب تعنى الاحترام فى التقاليد
 الروسية ولا تستخدم الا فى مخاطبة الكبار . المعرب .

العمل مرة اخرى ، وكأنما انبأها قلبها ان زوجها سيصل اليوم . مضت
 من المصنع الى البيت أولاً لكي تذهب بعد ذلك الى المحطة .
 فقد كانت تخشى ان يكون سيميون يفسيفتش قد جاء لزيارتهم ،
 فهو يحب زيارتهم فى النهار احيانا ، اذ لديه عادة المجئ
 اليهم فى وضوح النهار فيجلس مع ناستيا ابنة الخمسة اعوام
 ومع بتروشكا . صحيح ان سيميون يفسيفتش لا يأتى ابدا
 خاوى اليدين ، بل يأتى دائما معه بشىء ما للأطفال : حلوى
 أو سكر ، أو رغيف ابيض ، أو كوبون لصرف سلع صناعية .
 ولم تجد لوبوف فاسيليفنا فى سيميون يفسيفتش اى سوء ،
 فخلال العامين اللذين مضيا منذ ان عرف احدهما الآخر كان
 طيبا معها ، وكان يعامل الاطفال معاملة الأب الحقيقى بل
 وباهتمام يفوق اهتمام بعض الآباء . بيد أن لوبوف فاسيليفنا
 كانت لا تود اليوم ان يرى زوجها سيميون يفسيفتش . وقد
 نظفت المطبخ والغرفة ، اذ ينبغي ان يكون كل شىء فى
 البيت نظيفا ولا يجب ان يوجد اى شىء غريب . اما فيما
 بعد ، غدا أو بعد غد ، فسوف تروى لزوجها بنفسها الحقيقة
 كلها ، كما كانت . ولحسن الحظ لم يأت سيميون يفسيفتش
 اليوم .
 تقدم ايفانوف نحو زوجته وضمها ، وظل ملتصقا بها
 طويلا ، وهو يحس بالدفع المنسي والمعروف لهذا الانسان
 الحبيب .
 وخرجت ناستيا الصغيرة من الدار ، ونظرت الى ابيها
 الذى لم تكن تذكره ، وراحت تدفعه بيديها فى ساقيه بعيدا
 عن أمها ثم بكّت . ووقف بتروشكا صامتا بجوار ابيه وأمه
 وكيس ابيه معلق خلف ظهره . وانتظر قليلا ثم قال :

— كفاكما ، ناستيا تبكى ، فهى لا تفهم .
ابتعد الأب عن الأم وحمل ناستيا الباكىة الخائفة على ذراعيه .

و صاح فيها بتروشكا :
— ناستيا ! كفى قلت لك ! هذا أبونا ، انه قريبنا !
دخل الأب المنزل واغتسل ثم جلس الى الطاولة .
ومدد ساقيه واغمض عينيه ، واحس فى قلبه بفرحة هادئة ورضى مطمئن . لقد انتهت الحرب . وخلال هذه السنوات قطعت قدماء آلاف الكيلومترات ، وانطبعت تجاعيد التعب على وجهه ، وتحت جفنيه المغمضين وخز الألم عينيه اللتين تنشدان الآن الراحة فى العتمة او الظلام .

وبينما كان جالساً راحت أسرته كلها تسعى مهولة فى الغرفة والمطبخ لتعد وليمة الطعام . واخذ ايفانوف يتأمل الاشياء المنزلية بالترتيب : ساعة الحائط ، صوان الآنية ، ميزان الحرارة على الحائط ، الكراسى ، الزهور على النوافذ ، القرن الروسى فى المطبخ . . . كم عاشت هنا طويلا بدونه واشتاق اليه . وها هو الآن قد عاد ، واخذ يتطلع اليها متعرفاً من جديد على كل منها ، كأنما يتعرف على قريب له عاش بدونه فى وحشة وفقر . واخذ يستنشق رائحة البيت الحبيبة الراسخة : تحلل الخشب ، ودفع أجساد ابنائه وسخام فتحة القرن . ظلت هذه الرائحة مثلما كانت من قبل ، منذ اربع سنوات ، فلم تبخر ولم تتغير فى غيابه . ولم يشعر ايفانوف بمثل هذا الرائحة فى اى مكان آخر ، رغم انه مر خلال الحرب ببلدان شتى ودخل مئات البيوت . ولكن الرائحة هناك كانت رائحة اخرى ، ليس فيها ما يميز رائحة البيت الحبيب .

وتذكر ايفانوف ايضا رائحة ماشا ، رائحة شعرها . لكنها كانت رائحة اوراق شجر الغابة ، رائحة درب مجهول كساه العشب ، لم تفح منها رائحة البيت ، بل رائحة حياة تثير الاضطراب من جديد . ترى ماذا تفعل الآن ، وكيف استقرت فى حياتها المدنية . . ماشا ابنة الحمامجى تلك ؟ ليرعها الله . . .

لاحظ ايفانوف ان بتروشكا كان اكثر الجميع نهياً وأمراً فى شئون المنزل . فعلاوة على انه هو نفسه كان يعمل فقد راح يصدر الأوامر لأمه ولناستيا فيما ينبغى وفيما لا ينبغى ان تفعله وكيف يجب أن تفعل ذلك على الوجه الصحيح . وكانت ناستيا تطيع بتروشكا ، ولم تعد تخاف من ايها خوفها من شخص غريب . كان وجهها وجهاً حياً مركزاً لطفل يفعل ما يفعل فى الحياة عن ايمان وجدية ، وكان قلبها طيباً فلم تغضب من بتروشكا .

— ناستيا ، افرغى الكوز من قشور البطاطس ، فأنا بحاجة الى الوعاء . . .

وافرغت ناستيا الكوز فى اذعان وغسلته . وفى تلك الاثناء كانت الأم تعد كعكة سريعة بدون خميرة ، لكى تضعها فى القرن الذى كان بتروشكا قد اشعل ناره .
واصدر بتروشكا أوامره :

— عجلى يا أم ، عجلى ! الا ترين اننى اعددت القرن . تعودت على البطء ، ايتها الطليعية !
فقالَت الأم فى طاعة :

— حالا يا بتروشكا ، حالا . سأضع الزبيب وانتهى ، فالأب فيما اظن لم يذق الزبيب من زمان . لقد احتفظت بالزبيب من مدة طويلة .

فقال بتروشكا :

— بل كان يأكله . الزبيب ايضا يقدمونه لجيشنا .
انظري الى وجوه جنودنا السمينة . انهم يطعمونهم جيدا . . .
ما لك جالسة يا ناستيا . . هل أنت ضيفة ؟ هيا قشري
البطاطس ، فسوف نقلبها للغداء . . الكعكة وحدها لا تطعم
اسرة !

بينما كانت الأم تعد الكعكة دس بتروشكا قدر الحساء
في الفرن ليستغل النار التي كانت مشتعلة ، وعلى الفور أصدر
تعليماته لنار الفرن ذاتها :

— لماذا تشتعلين بنشعب ؟ انظر كيف تتلوى في جميع
الاتجاهات ! اشتعلي بانتظام ! ركزي التسخين على الطعام
وحده ، فهل تقطع اشجار الغابة حطباً لتتبدد . . وأنت يا
ناستيا ، لماذا دسست الحطب في الفرن كيفما كان ؟ كان ينبغي
ان ترصيه كما علمتك . ثم انك تقشرين البطاطس قشرا سميكاً
مرة ثانية ، ينبغي ان تقشريها قشرا رقيقاً ، فلماذا تجورين
على لحم البطاطس ؟ هذا تبديد للطعام . . كم مرة قلت لك
هذا ، هذه آخر مرة ، وبعدها سأهوي على قفاك !

وقالت الأم بصوت وادع :

— ما لك يا بتروشكا تتحامل على ناستيا ، ماذا فعلت
لك ؟ وهل تقدر هي على تقشير كل هذه البطاطس ، بحيث
يكون القشر رقيقاً ، ولا تجور على اللحم مثل الحلاقين . . .
الأب عاد اليها ، بينما أنت تغضب طول الوقت !

— انا لا اغضب بل اقول ما يجب عمله . . . علينا
ان نطعم الأب ، فهو عائد من الحرب ، وأنتما تبددان
الخير . كم من الطعام ضاع مع القشور طوال السنة ؟ لو

كانت لدينا خنزيرة واطعمناها تلك القشور وحدها ، لكان من
الممكن ان نرسلها الى المعرض ولكوفتنا بميدالية على ذلك . . .
أرايتما ما كان يمكن ان يحدث ، بينما انتما لا تدركان !
لم يكن ايفانوف يعرف ان ابنه كبير واصبح على هذه
الصورة ، وها هو الآن جالس يشعر بالدهشة من رجاحة عقله .
ولكن ناستيا اعجبه اكثر . . ناستيا الصغيرة الوادعة ، والمنهمكة
ايضا في العمل المنزلي بيديها الصغيرتين ، اللتين اعتادتاه
واصبحتا ماهرتين . واذن فقد الفتا العمل المنزلي من زمان .
وسأل ايفانوف زوجته :

— يا لوبا ، لماذا لا تقولين لي كيف عشت طول
هذا الوقت بدوني ، وكيف صحتك ، وای عمل تمارسين ؟ . . .
كانت لوبوف فاسيليفنا الآن تخجل من زوجها وكأنها
عروس . . اذ لم تعد تألفه . بل كانت تتضرج حمرة عندما
يخاطبها زوجها ، ويكتسي وجهها ، كما في ايام الصبا ،
بتعبير الخجل والذعر الذي كان يروق لافانوف كثيراً .
— لا بأس يا ألبوشا . . عشنا لا بأس . مرض الاولاد
قليلاً ، وانا كنت ارييهم . . السئ في الامر انني كنت لا
ابقي معهم سوى في الليل . انا اعمل في مصنع الطوب ،
في المكبس ، والمسافة الى العمل بعيدة . .

ولم يفهم ايفانوف فسألها :

— اين تعملين ؟

— في مصنع الطوب ، في المكبس . لم اكن اجد
مهنة ، فعملت في البداية مساعدة عامل في الفناء ، وبعد
ذلك دربوني ثم عينوني على المكبس . العمل جيد ، لكن
الاولاد يبقون وحدهم دائماً . . انظر كيف اصبحوا . يقومون

بكل شيء ، كالكبار — قالت لوبوف فاسيليفنا بصوت خافت —
لست ادرى يا أليوشا ان كان هذا حسنا أم لا
— سوف نرى يا لوبا . . . الآن سنعيش كلنا معاً ،
وبعد ذلك سنعرف ما هو الحسن وما هو السيئ
— معك ستكون حياتنا أحسن ، فأنا بمفردي لا أعرف
ما هو الصحيح وما هو الغلط ، وكنت اشعر بالخوف . اما
الآن فلنتفكر أنت كيف نربي الاولاد
نهض ايفانوف وتمشى فى الغرفة .
— واذن تقولين ان احوالكم كانت لا بأس بها ؟
— لا بأس يا أليوشا ، كل شيء مر ، تحملنا . لكننا
اشتقنا اليك كثيراً ، وكنا نخاف الا تعود الينا ابداً ، ان
تستشهد هناك كالآخرين
وبكت فوق الكعكة التى كانت قد وضعتها فى الصاج ،
وسقطت دموعها على العجينة . كانت قد فرغت لتوها من
دهان سطح الكعكة ببيضة نيئة وظلت تسمح براحتها على
الكعكة ، ولكنها الآن كانت تدهن كعكة الوليمة بدموعها .
وطوقت ناستيا ساق امها بذراعيها والصقت وجهها بتنورتها ،
ونظرت الى أبيها شزراً .
وانحنى ابوها فوقها :
— ما لك يا ناستيا ؟ ماذا بك ؟ هل غضبت منى ؟
وحملها على ذراعيه ، ومسد رأسها .
— ما لك يا بنيتى ؟ لقد نسيتنى تماماً ، كنت صغيرة
عندما ذهبت انا الى الحرب
وضعت ناستيا رأسها على كتف أبيها وبكت هى الأخرى .
— ماذا بك يا ناستيا العزيزة ؟

— ماما تبكى ، وأنا سأبكى .
وكان بتروشكا ، الواقف مندهشاً بجوار الفرن ، ساخطاً .
— ماذا جرى لكم جميعاً ؟ اخذتكم العواطف ، والنار
فى الفرن تضيق فهل سنشعلها من جديد ؟ ومن سيعطينا كويون
حطب آخر ! حصلنا بالكويون القديم على حصتنا واحرقناها ،
لم يبق فى الحظيرة الا القليل ، حوالى عشر حطبات ، وحتى
هذه فمن حطب الحور . . . هيا ضعى الكعكة يا أم قبل أن
تبرد نار الفرن .
واخرج بتروشكا من الفرن قدر الحساء الحديدى
الكبير ورفق الجمرات ، فأسرعت لوبوف فاسيليفنا
على عجل ، وكأنما استرضاء لبتروشكا ، بوضع صاجين
بكعكتين فى الفرن ، وقد نسيت ان تدهن الكعكة الثانية
بالببيض .
بدا بيت ايفانوف الحبيب غريباً عليه وغير مفهوم تماماً
بعد . كانت زوجته هى نفسها كما فى السابق ، بوجهها الرقيق
الخجول ، وان اصبح يكسوه الارهاق الشديد ، وكان الاطفال
هم انفسهم الذين انجبهم ، وان كبروا اثناء الحرب كما
يتبغى للاطفال ان يكبروا . ولكن ثمة شيئاً عاق ايفانوف
عن ان يحس بفرحة العودة من صميم قلبه . . . ربما لأنه
غاب طويلاً عن البيت فنسي كيف تسير فيه الحياة ، ولم
يستطع ان يفهم على الفور اقرب الناس اليه . كان ينظر الى
بتروشكا ، ابنه البكرى الذى كبر ، ويصغى اليه وهو يصدر
أوامره وتعليماته لأمه واخته الصغيرة ، ويتأمل وجهه الجاد
المهموم ، ويعترف لنفسه بخزى بأن مشاعره الأبوية نحو هذا
الصبي وميله اليه كابنه غير كافية . ومما زاد من خزي ايفانوف

من مشاعر اللامبالاة تجاه ابنه ادراكه بأن بتروشكا كان اكثر من الآخرين حاجة الى الحب والرعاية ، لأن النظر اليه الآن كان يشير الرثاء . لم يكن ايفانوف يعرف على وجه الدقة تلك الحياة التي عاشتها أسرته بدونها ، فلم يتمكن بعد من ان يفهم بوضوح لماذا أصبح لبتروشكا هذا الطبع .

وعندما جلس ايفانوف الى الطاولة ، وسط أسرته ، ادرك واجبه . عليه ان يعمل بأسرع ما يمكن ، عليه ان يلتحق بالعمل ليحصل على نقود ويساعد زوجته على تربية الاولاد تربية سليمة .. وعندئذ ستسير الامور شيئا فشيئا نحو الأفضل ، ويعود بتروشكا بلهو مع الاطفال ويذاكر الدروس لا أن يضع قدور الحساء في الفرن .

أكل بتروشكا اثناء الغداء أقل الجميع ، ولكنه جمع كل الفتات الذي تساقط منه على الطاولة ، والقى به في فمه . فقال له الأب :

— ما لك يا بتروشكا تأكل الفتات ، بينما لم تكمل نصيبك من الكعكة .. كل ! ستقطع لك امك قطعة اخرى فيما بعد .

فأجاب بتروشكا عابساً :

— يمكن أن آكل طبعاً ، ولكن هذا يكفيني .

فقالت لوبوف فاسيليفنا ببراءة :

— انه يخشى اذا اخذ يأكل كثيراً أن تفعل ناستيا مثله فتأكل كثيراً . وهو ييخل .

فقال بتروشكا بلا مبالاة :

— وانتم لا تبخلون بشيء . اما انا فأريد أن اترك لكم نصيباً اكبر .

تبادل الأب والأم النظرات واقشعر بدنهما من هذه الكلمات التي قالها ابنهما .

وسأل الأب ناستيا الصغيرة :

— وانت لماذا لا تأكلين جيداً ؟ هل تقلدين بتروشكا ؟ كلى كما ينبغي ، والا ظللت هكذا صغيرة ...

فقالت ناستيا :

— انا كبرت .

واكلت قطعة صغيرة من الكعكة ، وابتعدت عنها القطعة الأخرى التي كانت اكبر ، وغطتها بالفوطة .

فسألته أمها :

— لماذا تفعلين هذا ؟ اتريدين ان ادهن لك الكعكة بالزبد ؟

— لا أريد ، انا شبعت ...

— طيب ، كلى بدون زبد ... لماذا ابتعدت عنك الكعكة ؟

— عم سيميون سيأتي . لقد تركت له هذا . الكعكة ليست كعكتكم . ولم اكل نصيبى منها . سأضعها تحت الوسادة ، حتى لا تبرد ...

هبطت ناستيا من على الكرسي وحملت قطعة الكعكة الملفوفة في الفوطة الى السرير ، ودستها تحت الوسادة .

وتذكرت الام انها كانت تغطي الكعكة الجاهزة بالوسائد ايضا عندما كانت تعدها في عيد أول مايو حتى تكون دافئة

عند مجيء سيميون يفسيفتش .

وسأل ايفانوف زوجته :

— ومن هو العم سيميون هذا ؟

ولم تدر لوبوف فاسيليفنا ماذا تقول فقالت :
— لا أدري من هو . . . هو شخص يزور الأولاد . . .
الألمان قتلوا زوجته واولاده ، وقد تعود ان يأتى ليلعب مع
اولادنا .

فقال ايفانوف مندهشا :
— كيف يلعب ؟ وماذا يلعبون هنا عندك ؟ كم عمره ؟
ونظر بتروشكا بسرعة الى امه والى ابيه . لم ترد الأم
بشيء على الأب . وتطلعت فقط الى ناستيا بعينين حزينتين ،
اما الأب فابتسم ابتسامة شريرة ، ونهض من على الكرسي واشعل لفافة .
ثم توجه بالسؤال الى بتروشكا : — واين هى اللعب
التي يلعب بها معكم عم سيميون هذا ؟

وهبطت ناستيا من على كرسيها وصعدت على كرسي
آخر بجوار الصوان ، واخرجت منه كتبا وحملتها الى ابيها .
وقالت ناستيا لأبيها :

— انها كتب العاب . عم سيميون يقرأها لى . انظر
الى هذا اللب المضحك . انه لعبة ، وهو ايضا كتاب . . .
تناول ايفانوف كتب الالعب التي اعطتها له ناستيا .
كانت عن اللب ميشكا ، وعن المدفع اللعبة ، وعن المنزل
الصغير الذى تسكنه الجدة دومنا وتغزل فيه الكتان مع
حفيدتها

وتذكر بتروشكا ان الوقت قد حان لاغلاق فتحة التهوية
فى مدخنة الفرن حتى لا يتبدد الدفء من المنزل .
وبعد ان اغلق الفتحة قال لأبيه :

— انه اكبر منك . سيميون يفسيفتش ! . . . وهو ينفعنا
فلندعه يعيش . . .

ونظر بتروشكا الى النافذة تحوطا فلاحظ فى السماء سحبا
اخرى تتحرك ، غير تلك التى ينبغى ان تكون فى سبتمبر .
فقال :

— ما هذه السحب الرصاصية . . يبدو انها ستحمل
الثلج ! ام ترى ان الشتاء سيحل غدا مبكرا ؟ فماذا سنفعل
عندئذ . . البطاطس مازالت فى الحقل ، وليس لدينا مخزون . . .
يا لها من ورطة ! . . .

كان ايفانوف ينظر الى ابنه ويصغى الى كلامه ، فيشعر
بالوجل منه . وقد اراد ان يسأل زوجته بتحديد اكثر عن سيميون
يفسيفتش هذا الذى يزور اسرته منذ عامين ، والى من يأتى :
الى ناستيا ام الى زوجته المليحة ، ولكن بتروشكا شغل أمه
بالأمور المعيشية .

— اعطينى يا أم بطاقات الخبز ليوم الغد وكوبونات
التسجيل فى الدكان . وهاتى ايضا كوبونات الكيروسين فغدا آخر
موعد ، ويجب كذلك ان تسلم الفحم وانت ضيعت الجوال ،
بينما لا يعطون الفحم إلا فيما تحضره معك من ماعون .
فلتبحتى عن الجوال فى اى مكان ، او خيطى جوالاً آخر
من الخرق ، فنحن لا نستطيع ان نعيش بدونك . اما ناستيا
فلتنزع طالى المياح غدا من دخول القناء ، فهم يغرفون ماء
كثيرا من البئر ، وها هو الشتاء قادم ، وعندئذ ينخفض مستوى
الماء فلا يكفى حبلنا لانزال الدلو . ولن نمضغ الثلج طبعاً ،
كما ان تدوييه بالنار تبديد للحطب .

وبينما كان بتروشكا يقول ذلك كنس المكان بجوار
الفرن ، وترب اوانى المطبخ . ثم اخرج قدر الحساء من الفرن .
واصدر تعليماته للجميع :

— أكلنا قليلا من الكعكة ، والآن سنتناول الحساء باللحم مع الخبز . اما أنت يا أبى فلتذهب غدا صباحا الى مجلس الحي واللجنة العسكرية لتسجل نفسك فوراً ، لكى تحصل على بطاقات تموين بسرعة .
فوافقه الأب فى اذعان :

— سأذهب .
— اذهب ولا تنس . فقد تتأخر فى النوم صباحاً فتنسى .

فوعده الأب :
— كلا ، لن أنسى .
تناولت الاسرة أول غداء مشترك بعد الحرب فى صمت ، حتى بتروشكا جلس هادئاً ، وكأنما خشى الأب والام والأولاد ان يعكروا بكلمة عارضة هذه السعادة المطمئنة للأسرة المجمعة الشمل .

ثم سأل ايفانوف زوجته :
— كيف ملابسكم يا لوبا ؟ لا بد أنها بليت ؟
فابتسمت زوجته وقالت :

— كنا نلبس القديم ، أما الآن فنشتري الجديد . كنت أصلح ملابس الاولاد ، وصنعت لهم من بدلتك وسراويلك وكل ما تركته كسوة لهم . انت تعلم انه لم يكن لدينا نقود زائدة ، والاطفال بحاجة الى ما يلبسونه . . .
فقال ايفانوف :

— خيراً ما فعلت . لا تبخلى على الاولاد بشيء .
— انا لم ابخل . بعت المعطف الذى اشتريته لى ، وألبس الآن سترة مبطنة بالقطن .

فقال بتروشكا :

— السترة قصيرة ، وهى تخرج فيها ، وقد تصاب بالبرد . سأعمل وقاداً فى الحمام واحصل على راتب واشترى لها معطفاً . فى السوق يوجد من يبيعون معاطفهم ، وقد ذهبت الى هناك وعانيت الاسعار . . توجد معاطف باسعار مناسبة . . .

فقال الأب : — لن نكون فى حاجة الى راتبك . وبعد الغداء وضعت ناستيا نظارة كبيرة على انفها وجلست بجوار النافذة لترفو قفاز أمها الذى اصبحت الأم ترتديه تحت قفاز العمل بسبب برد الخريف .
ونظر بتروشكا الى اخته وهتف غاضباً :

— لماذا تعبين فترتين نظارة عم سيميون ؟ . .
— انا انظر من فوق النظارة وليس خلالها .

— ماذا تقولين ! اننى أرى ! ستفسدين بصرك وتصبحين عمياء ، عالة على الآخرين طول عمرك وحتى فى المعاش . انزعى النظارة حالا ، قلت لك ! واتركى القفاز عنك ، أمك ستفوه أو اقوم انا بذلك عندما أفرغ . خذى الدفتر وارسمى الخطوط ، ربما نسيت متى ذاكرت آخر مرة !

فسأل الأب :
— وهل ناستيا تدرس ؟

فأجابت الأم بانها لا تدرس فهى بعد صغيرة ، ولكن بتروشكا يأمرها ان تذاكر كل يوم . وقد اشترى لها دفترًا وهى ترسم فيه خطوطا . وبتروشكا يعلمها الحساب ايضا فيجمع ويطرح بذور القرع أمامها ، اما الحروف فتعلمها لها لوبوف فاسيليفنا بنفسها .

وضعت ناستيا القفاز جانباً واخرجت من درج الصوان
دفترها وعارضة بها قلم . اما بتروشكا ، فبعد ان ارضاه ان
كل شيء ينفذ كما ينبغي ، ارتدى سترة امه القطنية ، وخرج
الى الفناء ليقطع الحطب ليوم الغد . وكان عادة يحمل الحطب
بعد تقطيعه الى المنزل ليبقى ليلا خلف الفرن ليجف فيشتعل
بعد ذلك بحرارة اكثر وتوفير .

وفي المساء بكرت لوبوف فاسيليفنا باعداد العشاء . كانت
تريد ان ينام الاولاد مبكرا ، حتى يتسنى لها ان تجلس مع
زوجها على انفراد وتتحدث معه . ولكن الاولاد ظلوا لا
يستسلمون طويلا للنوم بعد العشاء . واخذت ناستيا ، الراقدة
على الكنية الخشبية تنظر من تحت البطانية الى ابنيها طويلا ،
اما بتروشكا الراقدة على الفرن الروسى ، حيث كان ينام دائما ،
شتاء وصيفا ، فقد راح يتقلب ويتنحج ويهمس بكلمات
ما ، ولم يركن الى الهدوء سريعا . واخيرا حلت ساعة متأخرة
من الليل فأغمضت ناستيا عينيها اللتين تعبنا من النظر ، وتساعد
شخير بتروشكا فوق الفرن .

كان بتروشكا ينام نوما خفيفا ، متحفزا . فقد كان
يخشى دوما ان يحدث شيء ما اثناء الليل فلا يحس به . .
كأن يشب حريق ، أو يتسلل قطاع طرق لصوص ، او تنسى
أمه ان توصل الباب بالرتاج فينفرج ليلا ويتسلل منه الدفء
كله الى الخارج . أما الليلة فقد استيقظ بتروشكا على أصوات
والديه القلقة وهما يتحدثان فى الغرفة المجاورة للمطبخ . ولم
يعرف كم الساعة الآن . . وهل هو منتصف الليل ام قرب الفجر ،
بينما ابوه وامه مستيقظان .
قالت الأم بصوت خافت :

— لا تصرخ يا أليوشا والا استيقظ الأولاد . لا تسبه ،
فهو رجل طيب ، أحب اطفالك
فقال الأب :

— لا حاجة بنا الى حبه . يكفينى اننى أحبهم انا . . .
يا سلام ، انه يحب اطفال الغير ! لقد كنت ارسل اليك
الراتب ، وانت تعملين ، فلماذا كنت فى حاجة اليه ،
سيميون يفسيفتش هذا ؟ هل ما زالت الرغبة مشتعلة فى دماغك . .
آه يا لوبا ! كنت فى الجبهة افكر فىك غير هذا . اذن
فقد خدعتنى

وصمت الأب ، ثم اشعل عود ثقاب ليشعل الغليون .
فهتفت الأم بصوت عال :
— ماذا تقول يا اليوشا ، ماذا تقول ! ألم اكن ارعى
الأولاد ، ولم يمرضوا تقريبا ، واجسادهم مليئة
فقال الأب :

— وماذا فى ذلك ! هناك من بقى لديه اربعة اولاد ،
وعاشوا فى خير ، وكبر الاولاد ليس بأسوأ من اولادنا . اما
أنت فانظرى الى بتروشكا كيف أصبح . . يتحدث كالعجائز
وربما نسي القراءة .

تنهد بتروشكا على الفرن وشخر متظاهرا بالنوم ليواصل
السماع . وقال فى نفسه : « طيب ، فلأكن عجوزاً ، فحياتك
كانت سهلة وانت تأكل الطعام جاهزاً ! » .
وقالت الأم :

— ولكنه عرف اصعب واهم ما فى الحياة ! ولن يتخلف
عن الدراسة ايضا .
فقال الأب مغضبا :

— من هو سيميون رجلك هذا ؟ كفى لفاً ودوراناً .
 — انه رجل طيب .
 — هل تحببته اذن ؟
 — أليوشا . . انا أم اولادك . .
 — ثم ماذا ؟ اجبني بصراحة !
 — احبك أنت يا أليوشا ! انا أم ، ولم اكن امرأة
 الا معك ، ومن زمن طويل ، نسيت حتى متى كان ذلك .
 لزم الاب الصمت وهو يدخن الغليون فى الظلام .
 — اشتقت اليك يا أليوشا . . صحيح ان الاولاد كانوا
 معي ، لكنهم لم يغنوني عنك ، فأخذت انتظرك ، سنوات
 طويلة رهيبة ، وفى الصباح لم اكن ارغب فى الاستيقاظ .
 — وما هى وظيفته ؟ أين يعمل ؟
 — يعمل فى قسم الامدادات بمصنعنا .
 — مفهوم . نصاب .
 — ليس نصاباً . انا لا أدري . . . ولكن اسرته كلها
 هلكت فى موجيلوف . كان لديه ثلاثة اولاد ، وابنته كانت
 عروساً .
 — لا يهم ، فقد حصل على اسرة اخرى جاهزة . . .
 وعلى امرأة ليست عجوزاً بعد ، ومليحة ، واذن فقد عوض
 خسارته .
 لم تجب الأم بشيء . وحل الصمت ، ولكن بتروشكا
 سرعان ما سمع أمه تبكى .
 وقالت الأم من جديد فسمع بتروشكا دموعاً كبيرة تترقق
 فى عينيها :
 — كان يحكى للاولاد عنك يا أليوشا . أخبرهم كيف

كنت تحارب هناك من اجلنا وتعانى . . . وكانوا يسألونه :
 ولماذا ؟ فيقول لهم : لأنك طيب . . .
 ضحك الأب وافرغ غليونه من الجمر :
 — انظر كيف يبدو سيميونكم هذا ! لم يرنى ابداً ولكنه
 يناصرنى . يا له من شخصية !
 — انه لم يرك . وقد اخترع ذلك عمدا لكى لا ينساك
 الاولاد ولكى يظلوا يحبونك .
 — وما حاجته هو الى ذلك ؟ لكى ينالك بسرعة ؟
 اخبرنى ما الذى كان يريد ؟
 — ربما لأن قلبه طيب يا أليوشا ولذلك فهو هكذا .
 والا فلماذا اذن ؟
 — حمقاء أنت يا لوبا . اعذرني من فضلك . لا
 شيء يحدث بدون غرض .
 — ولكن سيميون يفسفتش كان يأتي للاولاد دائما
 بشيء ما ، كان يحمل لهم كل مرة حلوى او طحيناً أبيض ،
 او سكراً ، ومنذ فترة قريبة جاء لناستيا بحذاء لباد ، ولكنه
 كان صغيراً فلم يناسبها . اما هو فلا يحتاج منا الى شيء .
 ونحن ايضا لم نكن بحاجة الى شيء يا أليوشا ، وكـ
 بوسعنا أن نستغنى عن هداياه ، فقد تعودنا ، ولكنه يقول
 انه يشعر براحة النفس عندما يهتم بالآخرين ، فعندها لا
 يحس بالحنين الشديد الى اسرته الهالكة . سوف تراه . . انه
 ليس كما تظن . . .
 فقال الأب :
 — هذا كله مجرد هراء ! لا تستغفلىنى . . . اننى اشعر
 بالملل معك يا لوبا ، وما زلت اريد ان اعيش . . .

— عيش معنا يا أليوشا . . .
 — انا اعيش معكم وانت مع سي سيميون هذا ؟
 — لن افعل يا أليوشا . لن يأتى الينا ابدا . سأقول
 له الا يأتى .
 — اذن فقد فعلت مادمت لن تفعلنى ؟ . آه منك
 يا لوبا ، كلكن هكذا يا معشر النساء .
 فسألته الام بنبرة ألم :
 — وانتم كيف تكونون ؟ ما معنى كلنا هكذا ؟ انا
 لست هكذا . . . كنت اعمل ليل نهار ، كنا نصنع قطعاً
 مقاومة للحرارة لتبطين مواعد القاطرات البخارية . اصبح وجهى
 نحيلاً ، قبيحاً ، غريبة عن الجميع ، حتى الشحاذ لا يجرؤ
 أن يسألنى حسنة . انا ايضا كنت اعانى وكان الاولاد يقولون
 وحدهم فى البيت . كنت اعود من العمل قبلاً فأجد البيت
 بارداً ، مظلماً والطعام غير معد ، والاولاد يعانون الوحشة ، فلم
 يكونوا قد تعلموا كيف يدبرون امور المعيشة كما هم الآن ،
 وكان بتروشكا صبيها بعد . . . وعندئذ اخذ سيميون يفسيفتش
 يتردد علينا . كان يأتى ويجلس مع الاطفال . فهو يعيش
 وحده تماماً . كان يسألنى : «هل تسمحين بان آتى اليكم
 واتدفاً عندكم ؟» فاقول له ان البيت عندنا ايضا بارد والحطب
 رطب ، فيقول لى : «لا بأس ، روحى كلها تجمدت برداً ،
 فلاجلس ولو بالقرب من اطفالكم ، ولا داعى لاشعال الفرن
 من اجلى» . فقلت له : طيب ، تعال ، فمعلك لن يشعر
 الاطفال بالخوف . ثم تعودت انا كذلك عليه ، وكنا جميعاً
 نرتاح عندما يأتى . كنت انظر اليه واتذكرك ، اتذكر انك
 لدينا . . . فبدونك كانت العيشة كثية ، سيئة . فليأت الينا

احد ما ، عندئذ لن نشعر بوطأة الوحشة ، والوقت سيمضى
 أسرع . فما حاجتنا الى الوقت بدونك !
 فحشها الأب :
 — وبعد ، وبعد ، ماذا حدث ؟
 — لم يحدث شئ . ها قد عدت الينا يا أليوشا .
 فقال الأب :
 — طيب ، حسنا اذا كان الامر كذلك . هيا ننام .
 ولكن الأم رجته :
 — فلنتنظر قليلاً . هيا نتحدث ، فكم انا مسرورة معك .
 وفكر بتروشكا وهو فوق الفرن : «لايستطيعان ان يهدآ .
 تصالحا وكفى . الأم ينبغي ان تنهض مبكراً الى العمل ،
 بينما هى تسهر وتثرثر ، فرحت فى غير الأوان ، وكفت عن
 البكاء» .
 وسألها الأب :
 — وهل أحبك سيميون هذا ؟
 — مهلاً ، سأعطى ناستيا ، فهى تريح عنها الغطاء
 ليلاً وتبرد .
 غطت الأم ناستيا بالبطانية وذهبت الى المطبخ فوقفت
 قليلاً بجوار الفرن تصيخ هل بتروشكا نائم ام لا . ففهم
 بتروشكا مقصد امه فراح يشخر . ثم عادت الأم الى الغرفة
 وسمع صوتها تقول :
 — ربما أجنى . كان ينظر الى بئثر ، وقد رأيت
 ذلك ، فأني جمال كان فى آنذاك ؟ كانت حياته مرة يا
 أليوشا ، وكان فى حاجة الى ان يحب اى انسان .
 فقال الأب بلهجة طيبة :

— كان المفروض ان تقبله على الأقل ما دامت الأمور
قد سارت بينكما هكذا .

— ماذا تقول ! هو الذى قبلنى مرتين رغم انى لم
اكن اريد .

— فلماذا فعل ذلك ما دمت لم تريدى ؟

— لا أعرف . قال انه لم يتمالك نفسه وتذكر زوجته ،
وأنا اشبه زوجته قليلا .

— وهل هو يشبهنى أيضا ؟

— كلا ، لا يشبهك . لا أحد يشبهك . انت واحد
وحيد يا أليوشا .

— تقولين واحد ؟ العد يبدأ من الواحد . . واحد ،
ثم اثنان .

— ولكنه قبلنى فى خدى وليس فى شفتى .

— سيان أين قلبك .

— لا ، ليس سيان يا اليوشا . . ما ادراك اننت
بحياتنا ؟

— كيف لا أدري ؟ لقد خضت الحرب كلها مقاتلاً ،
ورأيت الموت أقرب مما أراك الآن . . .

— انت كنت تحارب وأنا هنا كنت اموت خوفاً عليك .
كانت يدائى ترتعشان من الهول ، بينما كان علي ان أعمل
بهمة لكى اطعم الاطفال واعود بنفع على الدولة ضد الفاشست
الاعداء .

كانت الأم تتكلم بهدوء ، ولكن قلبها كان يتعذب ،
وشعر بتروشكا بالاشفاق على أمه . كان يعرف انها تعلمت
كيف تصلح حذاءها وحذائيه هو وناستيا بنفسها ، لكى لا

تدفع نقودا للاسكافى ، وكانت تصلح مواقد الجيران الكهربائية
مقابل البطاطس .

وقالت الأم :

— ما كنت اقدر على تحمل الحياة والوحشة بدونك .
وحتى لو تحملتها لما عشت ، نعم ، اننى أعلم اننى كنت

سأموت عندئذ ، بينما لدى اطفال . . . كنت بحاجة الى ان
احس احساساً آخر يا أليوشا ، أحس بفرحة ما ، لكى

يستريح قلبى . وقد قال لى احد الاشخاص انه يحبنى ،
وكان يعاملنى برقة كما كنت تعاملنى انت فيما مضى . . .

فسألها الأب :

— ومن هذا . . أهو هذا السيميون ؟

— كلا ، شخص آخر . يعمل مراقبا فى اللجنة النقابية

للحى ، من المهجرين . . .
— عليه اللعنة من يكون ! فماذا حدث ، هل أراح

قلبك ؟

لم يكن بتروشكا يعلم شيئا عن هذا المراقب ، وأدهشه
انه لم يعلم به . وهمس فى نفسه : «أوه ، وامنا أيضا

جريئة !»

فقالَت الأم ردا على الأب :

— لم أنل منه شيئا ، ولا عرفت معه اية فرحة ، بل

ازددت تعاسة بعد ذلك . قلبى همُّ به لانه كان يحتضر ،
وعندما أصبح هو قريبا منى ، قريبا جدا ، احسست باللامبالاة ،

وفى تلك اللحظة رحت افكر فى همومى المنزلية وأسفت على
سماحى له بأن يقترب منى . ادركت اننى لا استطيع ان اكون

مطمئنة وسعيدة الا معك ، وسارتاح معك عندما ستصبح قريبا

منى . بدونك لا خلاص لى ، ولن أستطيع ان انقذ نفسى
لأبقى للأولاد . . . ابق معنا يا اليوشا ، وسنهنأ بالحياة !
سمع بتروشكا كيف نهض أبوه من الفراش واشعل
الغليون ، ثم جلس على المقعد .

وسأل الأب :

— كم مرة كنتما قريبين جدا ؟

فقالت الأم :

— مرة واحدة . لم يتكرر ذلك أبداً . وكم مرة ينبغي

اذن ؟

فقال الأب :

— قدر ما تشائين ، هذا شأنك . لماذا قلت انك أم

اولادنا ، ولم تكونى امرأة الا معى ، ومنذ زمن طويل . . .

— هذه هى الحقيقة يا اليوشا . . .

— كيف هذا ، اى حقيقة هنا ؟ الم تكونى معه ايضا

امرأة ؟

— كلا ، لم اكن معه امرأة ، لقد أردت ولكنى

لم أستطع . . . احسست اننى ضعت بدونك . . . كنت

بحاجة الى ان يكون معى أحد ، اى أحد : فقد تعذبت

تماما ، واصبح قلبى أسود . . . لم اعد أستطيع ان احب

حتى اولادى ، وانت تعرف انى من اجلهم مستعدة لأن

اتحمل اى شىء ، ولن ابخل ولو بعظامى ! . . .

فقال الأب :

— مهلاً ! ألسن تقولين انك اخطأت التقدير بالنسبة

لسيمبونك الجديد هذا ، ولم تعرفى معه اية فرحة ، ومع

ذلك لم تضيعى ولم تهلكى ، ولم يصبك سوء .

فهمست الأم :

— لم أضع ، انا حية .

— واذن فأنت تكذبين على فى هذا ايضا . اين

حقيقتك ؟

فهمست الأم :

— لا أدرى . انا لا ادرى الا القليل .

— طيب . ولكنى ادرى الكثير ، وقد عانيت أكثر مما

عانيت انت . ما أنت سوى منحنة .

لزمتم الأم الصمت ، وترددت انفاس الأب المتلاحقة

الثقيلة .

ثم قال الأب :

— ها أنا ذا قد عدت الى البيت . الحرب انتهت

ولكنك جرحتنى فى قلبى . . . حسنا ، عيشى الآن مع سيمبونك

وفيسيك ! لقد جعلت منى اضحكة ، مسخرة ، ولكنى انا

ايضا انسان ، ولست لعبة .

واخذ الأب يرتدى ملابسه وحذاءه فى الظلام . ثم

اشعل مصباح الكيروسين ، وجلس الى الطاولة ، وملاً الساعة

فى يده .

وقال مخاطباً نفسه :

— الساعة الرابعة . ما زال الجو مظلماً . حقاً يقولون :

النساء كثيرات ولا توجد زوجة واحدة .

ساد الهدوء المنزل . وكانت ناستيا تتنفس بانتظام وهى

نائمة على الكنبه الخشبية . والتصق بتروشكا بالوسادة فوق الفرن

الدافئ ونسي انه ينبغي ان يشخر .

وقالت الأم بنبرة طيبة :

— اليوشا ، اليوشا ، سامحنى !

وسمع بتروشكا أباه يتأوه ثم صوت زجاج يتحطم .
ورأى من شقوق الستارة ان الغرفة التى كان الأب والأم فيها
جالسين ازدادت ظلمة ولكن الضوء ما زال مشتعلا . فقال
بتروشكا لنفسه وقد فطن للأمر : «لقد حطم زجاجة المصباح ،
وزجاج المصابيح لا تجده الآن فى اى مكان» .

وقالت الأم :

— لقد جرحت يدك . الدم يسيل منها . خذ منشفة

من الصوان .

فصاح بها الأب :

— اسكتى ! انا لا استطيع ان اسمع صوتك . . .

ايقظى الاولاد ، ايقظيهم حالا ! . . . قلت لك ايقظيهم !
سأقول لهم من هى أمهم ! فليعرفوا !

وصرخت ناستيا من الخوف واستيقظت .

ونادت أمها :

— ماما ! اريد ان انام معك .

كانت ناستيا تحب ان تنتقل الى فراش امها ليلا وتتدفأ

معها تحت البطانية .

وجلس بتروشكا على الفرن ، ودلى ساقيه ، وقال مخاطبا

الجميع :

— هيا ناموا ! لماذا ايقظتمونى ؟ النهار لم يطلع بعد ،

والظلام مازال فى الخارج ! لماذا تصخبون وتشعلون النور ؟

واجابت الأم :

— نامى يا ناستيا ، نامى . الوقت مبكر ، سأتى انا اليك

حالا . وانت يا بتروشكا ، لا تنهض ، لا تقل شيئا بعد .

فقال بتروشكا :

— ولماذا تتحدثان ؟ ماذا يريد الأب ؟

فرد الأب :

— وما دخلك انت بما أريده ! يا له من عريف !

— ولماذا حطمت زجاج المصباح ؟ ما لك تخوف ؟

أمى ؟ الا ترى كيف هزلت ، فهى تأكل البطاطس بدون سمن ،

وتعطى السمن لناستيا .

فصرخ الأب بصوت شاك وكأنه طفل :

— وهل تعرف أنت ماذا كانت امك تفعل هنا ؟

فخاطبت الأم زوجها باستعطاف :

— اليوشا !

وقال بتروشكا :

— اعرف ، أعرف كل شيء ! امى كانت تبكى

عليك ، كانت تنتظرك ، وها قد جثت ولكنها تبكى . انت

لا تعرف !

فصاح الأب مغضبا :

— انت لا تفهم شيئا بعد ! يا له من فرع نما لدينا .

فأجاب بتروشكا من فوق الفرن :

— انا افهم كل شيء حتى النخاع . انت الذى لا يفهم ،

نحن لدينا أعمال ، وعلينا ان نعيش ، وانتما تتشاجران

كأحمقان . . .

وصمت بتروشكا . ارتعى على وسادته واجهش فجأة

بالبكاء بصوت خافت .

وقال الأب :

— اصبحت لك حرية كبيرة هنا فى البيت . على

العموم الأمر سيان ، ابق هنا مكان رب الدار . . .

مسح بتروشكا دموعه ورد على ابيه :

— ايه ، يا لك من أب ، ما الذى تقوله وانت رجل كبير وحاربت فى الحرب . . . اذهب اذن غدا الى جمعية المعوقين ، هناك العم خاريتون يعمل وراء البنك ، يقطع الخبز ولا يخدع احداً فى الميزان . هو ايضا حارب فى الحرب وعاد الى بيته . اذهب واسأله فهو يخبر الجميع ويضحك ، وانا سمعت منه باذنى . زوجته تدعى أنيوتا ، تعلمت السواقة ، وتعمل الآن سائقة تنقل الخبز ، وهى طيبة ، لا تسرق الخبز . هى ايضا كانت تصادق شخصا وتزوره ، وكان يضيفها وكان صاحبها هذا يحمل وساماً ، وهو قد فقد ذراعه ، ويعمل مديراً للمتجر ، الذى يوزع السلع الصناعية بالبطاقات . . .

وقالت الأم :

— ما هذا الهذر الذى تقوله ، نم افضل ، سيطلع الصباح عما قريب .

— انتما اللذان اقلتما نومي . . لن يطلع الصباح قريباً . لقد تصادق ذلك الاكثع مع انيوتا ، وعاشا معاً فى هناء . اما خاريتون فكان يحارب . ثم عاد خاريتون واخذ يتشاجر مع انيوتا . كان يتشاجر معها طول النهار ، وفى الليل يشرب الخمر ويأكل المزة ، وانيوتا تبكى ولا تذوق شيئاً . وظل يتشاجر حتى تعب ، وكف عن تعذيب أنيوتا ، ثم قال لها : لماذا لم يكن لديك سوى هذا الاكثع فقط ابنتها الحمقاء ؟ انا عندما كنت بعيداً عنك كانت لدى جلاشكا ، وأبروسكا ايضا ، وماروسكا ، وواحدة على اسمك تدعى

انيوتا ، وعلاوة على ذلك كانت لدى ماجدوليننا . واخذ يضحك . وضحكت العمة انيوتا ايضا . وبعد ذلك اخذت تتفاخر بزوجها ، وتقول انه طيب ، وليس هناك من هو افضل منه ، كان يقتل الفاشست ، والنساء تنهافت عليه . روى لنا عم خاريتون ذلك عندما كان يتسلم ارغفة الخبز . والان يعيشان فى سلام ووفاق . ولكن العم خاريتون يضحك ثانية ويقول : «لقد خدعت زوجتى انيوتا ، فلم يكن لدى احد ابداً . . لا جلاشكا ، ولا أنيوتا ، ولا أبروسكا ، ولا حتى ماجدوليننا . فالجندى هو ابن الوطن ، وليس لديه وقت للكلام الفارغ ، فقلبه موجه ضد العدو . انا فقط تعمدت ان أخيف انيوتا . . . » . ارقد يا أبى ونم ، واطفىء المصباح ، لا داعى لأن يرسل دخانه بدون زجاجة .

أصغى ايفانوف بدهشة للقصة التى رواها ابنه بتروشكا . وقال لنفسه وهو يفكر فى ابنه : «انظر الى هذا الملعون ! لقد خيل الي انه سيتحدث الآن عن صاحبتى ماشا ايضا . . . » واستولى التعب على بتروشكا فارتفع شخيره . لقد نام هذه المرة حقاً .

واستيقظ عندما طلع النهار تماماً فخاف ان يكون قد نام طويلاً ولم ينجز شيئاً من امور المنزل فى الصباح . لم يكن فى البيت احد سوى ناستيا . كانت جالسة على الأرض تقلب صفحات كتاب برسوم اشترته لها امها من زمان . وكانت تقلب صفحاته كل يوم ، فلم يكن لديها كتب اخرى ، وتمر باصبعها على الحروف وكأنها تقرأ .

— لماذا تلوثين الكتاب منذ الصباح ؟ ضعيه مكانه — قال بتروشكا لأخته — اين امك ؟ هل ذهبت الى العمل ؟

فأجابت ناستيا بصوت خافت وهي تغلق الكتاب :
 — نعم ، الى العمل .
 — واين ذهب الأب ؟ — ويبحث بتروشكا عنه بعينه
 في المطبخ والغرفة — هل اخذ كيسه ؟
 فقالت ناستيا :
 — اخذ كيسه .
 — وماذا قال لك ؟
 — لم يقل شيئا . قبلنى فى فمى وفى عيني .
 — هكذا اذن . . . قال بتروشكا واستغرق فى التفكير .
 وأمر اخته :
 — انهضى من على الارض . تعالى انظف وجهك
 وألبسك ملابسك ، سنخرج الى الشارع . . .
 فى تلك اللحظة كان ابوهما جالسا فى المحطة .
 كان قد شرب مائتى جرام من الفودكا وتغدى فى الصباح
 بكمبون تعيين السفر . وكان قد استقر قراره ليلاً على التوجه
 الى المدينة التى ترك فيها ماشا لكي يلقاها ثانية هناك وربما
 لا يفترق عنها بعد ذلك ابداً . من السئ انه اكبر سناً
 بكثير من ابنة الحمامجى هذه ، التى كانت تفوح من شعرها
 رائحة الطبيعة . ولكن سوف يتضح هناك كيف ستسير الامور ،
 فلا يمكن التكهن بذلك سلفاً . ومع ذلك كان ايفانوف
 يأمل بأن ماشا ستفرح ولو قليلا عندما تراه ثانية ، وهذا
 يكفيه . فمعناه ان لديه هو الآخر انساناً قريباً جديداً ،
 هو فوق ذلك رائع الجمال ، مرح وطيب القلب . وبعدها
 سوف نرى !
 وبعد قليل وصل القطار المتجه الى الناحية التى جاء

منها ايفانوف بالأمس فقط . فتناول كيس حاجياته ومضى
 ليستقل القطار . وقال فى نفسه : « ستكون مفاجأة لماشيا .
 لقد قالت لى اننى سأنساها على كل حال ، ولن نتقابل
 ابدا ، وها انذا امضى اليها الآن بلا عودة » .
 صعد الى فسحة العربى وبقي فيها لكي يلقى نظرة
 اخيرة ، عندما يتحرك القطار ، على المدينة الصغيرة التى
 عاش فيها قبل الحرب وولد فيها اولاده . . . اراد ان ينظر
 مرة أخرى الى البيت الذى هجره ، اذ يمكن رؤيته من
 العربى لأن الشارع الذى يقع فيه البيت الذى عاش فيه ،
 يفضى الى مزلقان السكة الحديدية الذى سيعبره القطار .
 تحرك القطار ومضى ببطء بين اشارات تحويل الخطوط
 متجها الى الحقول الخريفية الجرداء . وامسك ايفانوف بدرابزين
 العربى ، وتطلع من الفسحة إلى البيوت الصغيرة والمباني والحظائر ،
 وإلى برج المطافئ فى المدينة التى كانت مدينته . وعرف
 مدختين ترتفعان على البعد : كانت احدهما لمصنع الصابون ،
 والأخرى لمصنع الطوب . وهناك كانت لوبا تعمل على المكبس
 الآن . حسنا فلتعش كما تريد ، وسعيش هو كما يريد .
 ربما كان بوسعه ان يسامحها ، ولكن ما جدوى ذلك ؟
 سيان ، فقد قسا قلبه عليها ولا مكان فيه للغفران لشخص
 تبادل القبل وعاشر غيره لكي يخفف عن نفسه الملل
 ولكي لا يعاني الوحدة فى زمن الحرب وغياب الزوج . أما
 ان لوبا اصبحت قريبة من سيميونها او يفسئها لأن الحياة
 كانت شاقة عليها ، ولأن الحاجة والوحشة قد عذبتها ،
 فهذا ليس تبريرا بل تأكيداً لعاطفتها . فالحب ينشأ اصلاً
 من الحاجة والوحشة . فلو لم يكن الانسان محتاجا الى شيء

ولو لم يكابد الوحشة لما أحب ابداً انساناً آخر .
 وهم ايفانوف بمغادرة فسحة العربة لكي يأوى الى النوم ،
 اذ لم يشأ ان يلتقى آخر نظرة على البيت الذى عاش فيه
 وحيث بقى أولاده . لا داعى لتعذيب النفس سدى . وتطلع
 الى الأمام ليرى هل بقى الكثير حتى يبلغ المزلقان فرآه
 على الفور . فى هذا المكان كان خط السكة الحديدية
 يتقاطع مع سكة زراعية معبدة تتجه الى المدينة . وعلى
 هذه السكة الترابية تناثرت حزم القش والدريس ، المتساقطة
 من عربات الجر ، وعيدان الصفصاف وروث الخيل . وكانت
 هذه السكة مقفرة فى العادة ، فيما عدا يومى السوق كل
 أسبوع . ونادراً ما كان يمر هنا فلاح قاصدا المدينة بعربة
 محملة بالدريس او عائداً الى القرية . وهكذا كان الحال
 الآن ايضا ، فقد كانت السكة الريفية مقفرة اللهم الا من طفلين
 يركضان من شارع المدينة الذى كانت السكة تصب فيه .
 كان احدهما كبيراً والثانى صغيراً ، والكبير يمسك بيد الصغير
 ويسحبه وراءه بسرعة . اما الصغير ، فرغم تعجله ورغم دأبه
 فى تحريك قدميه ، فلم يكن قادراً على ملاحقة الكبير .
 عندئذ جره الطفل الاكبر خلفه جراً . وتوقفا عند آخر بيوت
 المدينة ، ونظرا ناحية المحطة ، ربما ليقررا هل يتجهان
 اليها أم لا . ثم نظرا الى قطار الركاب المار عبر المزلقان ،
 وركضا على السكة نحو القطار مباشرة ، وكأنهما ارادا فجأة
 ان يلحقا به .

مرت العربة التى يقف فيها ايفانوف بالمزلقان . ورفع
 ايفانوف كيسه من على الأرض لكي يتقل الى العربة لينام
 على الرف العلوى ، حيث لن يضايقه الركاب الآخرون .

ولكن هل استطاع ذاك الطفلان ان يبلغا ولو آخر عربة
 فى القطار ام لا ؟ اطل ايفانوف برأسه من الفسحة ونظر
 الى الوراء .

كان الطفلان ما يزالان يركضان على السكة نحو المزلقان
 وقد تشابكت يداهما . ثم وقعا على الفور معا ، ونهضا
 وعادا الركض قدما . ورفع اكبرهما يده الطليقة ، وحول
 وجهه مع اتجاه القطار نحو ايفانوف ولوح بيده نحو نفسه ،
 وكأنه يدعو احداً ما لكي يعود اليه . وعلى الفور وقعا على
 الأرض من جديد . ولاحظ ايفانوف ان احدى قدمي الصبى
 الاكبر كانت فى حذاء لباد والاخرى فى خف ، ولهذا
 كان يقع كثيراً .

واغمض ايفانوف عينيه وهو لا يريد أن يرى ويشعر
 بالآلام الطفلين الساقطين المنهكين ، بيد انه احس بحرارة
 تلمح صدره ، وكأنما قلبه المضنى والمحبوس فيه ، كان
 يخفق طويلاً وبلا جدوى طوال عمره ، والآن فقط تحرر
 من أسرته وملاً كل كيانه بالدفع والرعدة . أدرك فجأة
 كل ما كان يعرفه من قبل ، على نحو أكثر دقة وواقعية .
 كان قبلاً يحس بحياة الآخرين عبر عائق الغرور والمصلحة
 الذاتية ، وها هو الآن يحتك بها فجأة بقلبه العاري .
 تطلع مرة اخرى من سلم العربة نحو ذيل القطار الى
 الطفلين المبتعدين . وكان يعرف الآن انهما طفلاه ، بتروشكا
 وناستيا . لابد انهما شاهداه عندما مرت العربة بالمزلقان ،
 فأخذ بتروشكا يدعوه ليعود الى البيت ، الى امه ، بينما
 كان هو ينظر اليهما بلا اهتمام وهو يفكر فى شىء آخر فلم
 يتعرف فيهما على اطفاله .

كان بتروشكا وناستيا يركضان الآن بعيدا خلف القطار
على الدرب الرملى المحاذي للقضبان . وكان بتروشكا لا يزال
ممسكا بيد ناستيا الصغيرة وهو يسحبها خلفه كلما اخفقت
في اللحاق به ركضا على قدميها .
ألقي ايفانوف بكيسه من العربة الى الأرض ، ثم
هبط الى درجة سلم العربة السفلى ، وقفز من القطار على
ذلك الدرب الرملى الذى كان طفلاه يركضان عليه فى اثره .

الفهرس

«موهبة العطف» (مقدمة بقلم يفغينى	
يفتوشينكو)	٣
ترجمة خيرى الضامن :	
الاشباح	٨
ترجمة د . ابو بكر يوسف :	
فرو	١٧٨
فى العالم الرائع المحتدم	٢١٤
رجال ملهمون	٢٣٦
أفروديت	٢٨٨
أوليا	٣١٣
العودة	٣٢٥